قصص القرآن

دروس وعبر



إعداد
سعد يوسف أبو عزيز

دار الفجر للتراث

قصص القرآن

دروس وعبر

سعد يوسف أبو عزيز

دار الفجر للتراث
خلف الجامع الأزهر - القاهرة
٥١٤٧٢٤٨ - ٥١٤٧١٧٩
٠١٢٧٤١٨٣٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل رب زدني علما﴾

* الكتاب : قصص القرآن
* المؤلف : أ/ سعد يوسف أبو عزيز
* سنة الطبع : الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
* الناشر : دار الفجر للتراث - القاهرة
* عدد الصفحات : ٤٤٨ صفحة
* رقم الإيداع : ٥٢٨٣ / ٢٠١٣م

الترقيم الدولي ٢-٢٧-٦٤٤٠-٩٧٧-٩٧٨

E-mail dar_elfagr @ hotmail.com

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر / القاهرة

تليفون ٢٥١٤٧١٧٩ - تليفون وفاكس ٢٥١٤٧٢٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

«مقدمة»

الحمد لله رب العالمين : ﴿ يقصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله . . . . ولي الصالحين . . . وخالق الخلق أجمعين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . . خاتم النبيين . . . وإمام المرسلين .

صلوات ربي وسلامه عليه . . . وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين . . . وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد:

فلقد أدت القصة القرآنية أكثر من رسالة ، وحققت أكثر من غاية : أدت رسالة العظة والتوجيه ، والإرشاد . وهي رسالة كتاب الله تعالى الأولى كما أدت وظيفة التلقين والتعليم .

وهي تُبين في أسلوب موجز مؤثر بليغ أن عقيدة التوحيد هي العقيدة الغالبة وأن رسل الله مهما لقوا من العنت واحتملوا من الشدة . هم المنصورون . ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠].

وتمتاز القصة القرآنية بأنها تصور نواحي الحياة . فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم. وأخلاقهم . وأفكارهم . واتجاهات نفوسهم . وبيئتهم الطبيعية والزمنية . تَعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم .

فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش ، عرفت ما

يستكن في النفوس من طباع . وما يهجس فيها من خواطر . وانشرح صدرك لأهل الخير منهم . وضقت ذرعًا بذوى النفوس المظلمة . والوسائل الملتوية . حتى لكأنك تراهم رأى العين . وتسمع منهم سمع الأذن . وتعاشرهم وكأنك بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفوس تميل إليها . فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتي القصصي البارع ، استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب .

فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر .

وهي بالميزة الثانية - ميزة التنبه والتقبل - تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء . فيبلغ القرار .

ولكن القصص القرآني تعرض لحملات غاشمة دَسَّها « أهل الكتاب» بقصد تشويه الأنبياء والمرسلين . . . .وللأسف . . .تابعهم بعض المسلمين ، وغرهم وجود بعض هذه الإسرائيليات في كتب التفسير فالذي يقرأ في كتب التفسير . . . كمن يجول في حدائق غناء . . . ورياض فيحاء . . . فيجد الكثير من الثمار الناضرة ، . . . والورود الزاهرة . . .ولكنه لا يسلم من بعض أشواك تدميه . . . وزوائد تؤذيه . . . إن لم يكن حريصًا في سيره . . . حَذِرًا في تجواله .

فكان حقًا علينا « شرعًا » كشف الشبهات ، وردّ المفتريات فشرعت في تصنيف هذا الكتاب « قصص القرآن» . . . وتَوخَّيتُ فيه يُسْر الأسلوب . . . واستيعاب الأهداف . . . مستعينًا بالله تعالى وحده ، ثم مرتكزًا على الأدلة الشرعية المستمدة من القرآن والسنة بفهم سلف الأمة . . . وأئمة الدين المعتبرين

... الذين تلقت الأمةُ علمهم بالقبول.

هذا ، وقد كان موقفنا من « الإسرائيليات» الواردة عن أهل الكتاب أن رددناها بعد أن ناقشناها . . . وسمحنا بالمرور لبعض منها مما رأيناه يتحالف ولا يتخالف مع النصوص الشرعية ، عملاً بحديث :« حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » رواه البخاري . ولا ندَّعي العِصْمة فيما اخترناه .

ولا أنسى أن أتوجه بالشكر للإخوة القائمين على « دار الفجر للتُراث» لحرصهم على تقديم كل ما هو نافع لأمتهم ومِلتهم ، ولحرصهم كذلك على تقديم الإسلام في ثوبه الناصع الجميل ، دون تحريف ولا تزييف .

وأخيرًا ، أتوجه بالدعاء إلى الله العلي الكبير . . . أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع . . . وأن يثقِّل به ميزاني يوم العرض عليه ﴿ **يومئذ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى منكم خافية**﴾ . . . وأن يضع له القبول في الأرض .

وعلى الله قصد السبيل،،

كتبه:

سعد يوسف محمد أبو عزيز

* * *

مدخل إلى موضوع الكتاب

معنى القصص :

القصّ : تتبع الأثر ، يقال : قصصتُ أثره : أي تتبعته . والقصص مصدر ، قال تعالى : ﴿ **فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا** ﴾ [الكهف : ٦٤] أي رجعا يقصّان الأثر الذي جاءا به وقال تعالى على لسان أمِّ موسى : ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ** ﴾ [القصص : ١١] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه .

والقصص كذلك : الأخبار المتتبعة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

والقصة : الأمر ، والخبر والشأن ،والحال .

ومن أهداف قصص القرآن :

١- إيضاح أسس الدعوة إلى الله تعالى ، وبيان أصول الشرائع التي بُعث بها كُلُّ نبيّ .

٢- تثبيتُ قلب النبي ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله تعالى ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله .

٣- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

٤- إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عَبْر القرون والأجيال : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، [آل عمران : ٤٤].

٥- مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل .

٦- والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغي إليه السامع ، وترسخ عبرة في النفس : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : ١١١] .

٧- بيان أن المعاصي هي سبب هلاك الأفراد ، والأمم ، والشعوب ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت : ٤٠] وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ .

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ، ومسخ ظاهره وباطنه ... وبدّل بالقرب بعدًا ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحًا ، وبالجنة نارًا تلظى ... فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟!

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ؟!

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟!

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح الكلاب ، ثم قلبها عليهم ،فجعل عاليها سافلها ، فأهلكهم جميعًا ، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمةٍ غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] .

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى ؟ !

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟!

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟!

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا ؟!

وما الذي أهلك قوم صاحب « يس » بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟!

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما عَلَوْا تتبيرا ؟!

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات ، مرَّة بالقتل والسبي وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك ، ومرة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب سبحانه وتعالى : ﴿ **لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ [الأعراف :١٦٧] .

وبالجملة :

فالقصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم ، وتمدهم بزاد تهذيبي ، من سيرة النبيين ، وأخبار الماضين ، وسنة الله في حياة المجتمعات، وأحوال الأمم ، ولا تقول في ذلك إلا حقًا وصدقًا .

والقصص القرآني ليس خيالاً :

القصص القرآن ليس تصويرًا فنيًا ، كلا : ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف : ١١١].

إنه صورة حقيقية نقلها لنا ربُّ العزة سبحانه وتعالى من أرض الواقع : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾[النساء : ٨٧] والقصة القرآنية نبع من الحكمة لا

بنصب ، وبحر زاخر بالدروس والعبر تستحق من أولي الألباب التأمل والنظر ، خبرها الصدق ، وقولها الحق تهدي من اعتبر إلى صراط الله المستقيم ، وتصدق مسيرة المرسلين من لدن آدم ومرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتصلهم جميعًا بخاتم النبيين محمد عبد الله ورسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

وذلك أنها ليست من نسج خيال البشر ، ولا من نتاج عقولهم أو تسطير أقلامهم ، ولكنها تنزيل من حكيم حميد .

* * *

اللهم صل وسلم وبارك على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق وتضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق.

الفرق [illegible]

الدعوة تحتاج إلى فقه [illegible] حسن عرض لا فرض بعض الدعاة [illegible] [illegible] عليهم [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الله وإن قال [illegible] [illegible] ... [illegible] مقام [illegible]

ومقام الجلال مقام الجود مقام غلظة وقوة ... [illegible]

أما مقام الدعوة مقام الجود والحكمة والموعظة الحسنة ادع إلى سبيل ربك

الحكمة هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي وأركان

الحلم والعلم والأناة [illegible] [illegible] [illegible] الجاهل والطيش والعجلة [illegible]

[illegible] الموعظة [illegible] [illegible] الموعظة بالحسنة [illegible]

[illegible] [illegible] الحكمة [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] إذا قرأ [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] يا من يجيب [illegible]

[illegible] [illegible]

قصة آدم عليه السلام

ورد ذكر آدم عليه السلام في القرآن خمسًا وعشرين مرة في سور : البقرة ، وآل عمران ، والمائدة والأعراف ، والإسراء ،والكهف ، ومريم ، وطه ، ويس، وذكر بصفته في سورتي : الحِجْر و ص ، وكلها تهدف إلى معنى واحد .

وهو بيان القدرة الإلهية والعظمة الربانية في تكوين هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى فأحسن خلقه ، وبدأ خلقه من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والبصر والفؤاد .

هل كان آدم نبيًّا ؟

الصواب أنه كان نبيا مكلمًا والدليل : ما رواه ابن حبان في « صحيحه » أن النبي ﷺ سئل عن آدم أنبيّ هو ؟ قال : « **نعم نبيّ مكلم** » ، ولكنه ليس برسول لقوله ﷺ في حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون : « أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » .

بداية الخلق والإيجاد :

قبل أن يمتن الله تعالى علينا بخلق أبينا آدم دار هذا الحوار بين ربِّ العزة وبين ملائكته :

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

إن هذا استفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم، وهو استفهام خال من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . فهم : ﴿ **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنبياء :

٢٦، ٢٧] .

وإنما قالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ لأنها رأت ما كان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والإفساد ، وقد نطق القرآن بأن الجن خُلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ [الحجر : ٢٧] . **قال عبد الله بن عمر** : « كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور » .

وفي يوم جمعة مبارك خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها** » . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة أيضًا قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « **خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل** » . رواه مسلم .

وخلقه الله تعالى من قبضة قبضها من جميع الأرض .

فعن أبي موسى الأشعري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحَزَن ، والخبيث والطيب** » . رواه الترمذي وصححه .

وأول ما خُلق من آدم « **عَجْبُ الذَنَب** » .

قال ﷺ : « **كل بني آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَنَب منه خُلق ومنه يركب** » .

رواه البخاري وغيره .

ويُفصِّل حديث أبي موسى المتقدم ما يُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « بعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تَنْقُصَ مني أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ وقال : يا رب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد[1] وأخذ من تربة حمرًا وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين - ولذلك سُمِّي آدم لأنه أُخذ من أديم الأرض - فصعد به فقال الله تعالى له : « أما رحمت الأرض حين تضرَّعتْ إليك ؟ » فقال : رأيتُ أمْرَكَ أوجب من قولها ، فقال : أنت تصلح لقبض أرواح ولده ، فَبَلَّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ، ثم تُرك حتى أنتن ، فذلك حيث يقول : ﴿ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٨] قال : منتن ، ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢] . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه يقول : أتتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه ! فخلقه الله بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعًا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوّت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقول : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤] ويقول: لأمْرٍ ما خُلقت ! ودخل من فمه وخرج من دبره ، فقال إبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف[2] ، ولئن سُلِّطتُ عليه لأُهلكنه ، ويقال : إنه كان إذا مَرَّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذي لم تروا شيئًا من الخلائق يشبهه إن

---

(١) وما يروي عن ابن عباس أن الله خلق رأس آدم من تراب الكعبة ، وظهره وبطنه من تراب الهند ، ويداه من المشرق ، ورجلاه من المغرب . فباطل لا يصح .

(٢) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، =

فُضِّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا ، فأسر إبليس في نفسه لئن فُضِّلَ عليَّ فلن أطيعه ، ولئن فُضِّلْتُ عليه لأُهلكنه ، فلما بلغ الحين الذي أريد أن ينفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ، فقال الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك[1] ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ذلك حين يقول : ﴿ **خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ﴾ [الأنبياء : ٣٧] « إنها القدرة الإلهية الفائقة التي تخلق من العدم ، وجودًا ، وتجعل من الضعف قوة ، ومن السكون حركة ، ومن الجماد حياة وروحًا ، فإذا التراب يتحرك ،وإذا الطين يتكلم ، وإذا الجماد بشر سويّ ، في أجمل صورة وأحسن تقويم . ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾ [الروم : ٢٠]

هذا هو « آدم وهذه هي ذريته ، بل هذه قصته ، وقصة الخليقة . . . مخلوق يخلقه الله من طين ، ثم يخلق ذريته من نطفة من ماء مهين ، ويستخلف هذه الذرية في الأرض ، ويملكها الوجود ؟ ويجعل هذا الإنسان خليفة عن الله ، فإذا المخلوق الضعيف يستعلي على ربه ، ويريد أن ينازعه في ملكه ، ويتجرأ على عصيان أوامر الله .

أليس عجيبًا أن ينكر وجود الله من لم يكن بالأمس شيئًا مذكورًا !!

أليس عجيبًا أن يكفر بنعم الله من وجوده برهان على وجود الله !!

= فجعل إبليس يطيف به ، ينظر إليه ، فلما رآه أجوف ، عرف أنه خلق لا يتمالك » صحيح مختصر مسلم (١٧٩٣) .

(١) عن أنس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : لما نفخ في آدم الروح مارت وطارت ، فصارت في رأسه ، فعطس فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال الله : يرحمك الله » صحيح . رواه ابن حبان في الموارد (٢٠٨١) والحاكم (٤/ ٢٦٣) وقال صحيح على شرط مسلم وإن كان موقوفًا ووافقه الذهبي .

فيا عجبًا كيف يعصى الإله | أم كيف يجحده الجاحد ؟
ولله في كل تحريكة | وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية | تدل على أنه واحد

آدم يُسلِّم على الملائكة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعًا ، ثم قال : اذهب فسلِّم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيوك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعًا ، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن** » . متفق عليه .

والضمير في صورته عائد إلى آدم ، والمراد أنه خلق أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض ، وتُوفيَّ عليها وهو طوله ستون ذراعًا ، ولم يتنقل أطوارًا كذريته ، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير .

سقوط نظرية داروين :

من النصوص السابقة ، يتبين لنا بوضوح سقوط نظرية « داروين » التي تجعل أصل البشر ليس هو « آدم » وإنما تفرع الناس على زعمه . . . من سلالات أخرى، وانحدروا من أصل يختلف عن أصل آدم . . . إنه يعتقد بأن الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة ، ظهرت على سطح الماء ، ثم تحولت إلى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان ، فأصبح ضفدعًا ، فسمكة ، فقردًا ، ثم ترقى هذا القرد وتَمدَّن فصار إنسانًا !!فالإنسان في نظره قرد متمدِّن !!

رَبِّ إن الهدى هداك | وآياتك حق تهدى بها من تشاء

هل هناك عاقل يرضى أن يكون من فصيلة « الغوريلا» و « الشمبانزي » وسائر

أنواع القردة ؟!

لو حدث شيء من التطور والارتقاء - حسب ما يدَّعي داروين - للزم أن تتطور القردة الموجودة بيننا في زماننا ، وتترقى كما ترقى أسلافها من قبل ، وكما تمدنوا فأصبحوا بشرًا بعد أن كانوا قردة ؟

وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصير البرغوث « فيلاً » وأن تنقلب النملة « نعجة » ، ويصبح الهر « أسدًا » بمر القرون وكرّ الدهور ؟ !

الهدف من نظرية داروين :

إن هذه النظرية « الخرقاء » عميقة الجذور ، فهي تهدف إلى غرض معين وهو « إنكار وجود الخالق جل وعلا » فإن « داروين » اليهودي يعتقد بألا خالق لهذا الوجود . . . وأن « الطبيعة » هي التي أوجدت هذا العالم . . . فهو دهري ملحد متنكر للأديان السماوية ، ولليهودية التي ينتمي إليها . . . ولا عجب أن يأتينا بمثل هذا الهراء والافتراء ، فتلك طبيعة اليهود في القديم والحديث ، فكل دعوة للإلحاد أو للإفساد نجد وراءها يدًا يهودية خبيثة .

الله يمسح على ظهر آدم !!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلي يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا [1] من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي ربِّ ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي ربِّ ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له : داود ، فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي ربِّ زده من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمرُ آدم جاءه ملك الموت ، فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم**

---

(١) الوبيص : البريق واللمعان .

فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته » . صحيح سنن الترمذي (٢٤٥٩) .

الله تعالى يعلم آدم الأسماء كلها :

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١ ، ٣٣] .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال : « هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها » .

وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير ، وكل شيء .

قلت : وهذا هو أولى الأقوال بالصواب بدليل حديث الشفاعة المتفق عليه والذي فيه : « **يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ...** » الحديث .

ولما علم الله تعالى آدم عليه السلام الأسماء كلها ، أراد الله سبحانه أن يُري الملائكة رأي العين أن هذا الكائن الجديد الذي صغروا من شأنه هو أكثر منهم علمًا وأوسع معرفة ، ولهذا سألهم أن يخبروه بأسماء أشياء معينة وخواصها إن كانوا مصيبين في ظنهم وأنهم أحق منه بخلافة الأرض .

ولكن الملائكة عجزوا عن الإجابة وخاطبوا ربهم معتذرين : ﴿ **سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ ويدعو الله سبحانه آدم ليكون معلمًا

للملائكة – وهذا تكريم عظيم – ويقول له : يا آدم أخبر الملائكة بما سألتهم ، فيُجيب آدم ويُظهر فضله عليهم وهنا خاطب الله الملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

الملائكة تسجد لآدم وإبليس يرفض !!

وبعد هذا التكريم المبارك لأبينا آدم ، صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .... ﴾ الآية [الكهف : ٥٠]

واختلف المفسرون في سجود الملائكة لآدم على أقوال : فقال قوم : كان سجود الملائكة لآدم سجودًا على حقيقته

وقال قوم : بل كان السجود لله عز وجل وآدم قِبلة فيه .

وقال آخرون : المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض .

ورجح الفخر الرازي في « تفسيره » القول الأول وقوّاه وضعّف ما سواه .. وأن السجود كان جائزًا للمخلوقين إلى عصر رسول الله ﷺ ، وهذا قول الأكثر كما قال الإمام القرطبي في « تفسيره » ثم حُرِّم وقال ﷺ : « **لو أمرت شيئًا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها......** » الحديث .

قال الإمام القرطبي : قلت : وهذا السجود المنهيُّ عنه قد اتخذه جُهَّال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيري الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ، ضل سعيهم وخاب عملهم . اهـ

إبليس يعلل سبب الرفض :

كان إبليس من الجن بنص القرآن ولم يكن من الملائكة طرفة عين ، قال تعالى: ﴿ **إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ وبدليل قوله : ﴿ **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ** ﴾

[ص : ٧٦] . ومعلوم أن الملائكة خلقت من نور ، قال ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » رواه مسلم . وبدليل أنه عصى ربه والملائكة : ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم : ٦] . غير أنه وصل بعبادته إلى مصافّ الملائكة الكرام .

فعن ابن مسعود وغيره : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . فشمله الأمر الإلهي بالسجود . . ولكن ما أن صدر الأمر الإلهي بالسجود لآدم حتى امتنع إبليس وردّ الأمر على الآمر سبحانه ، وقال : ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ [ص : ٧٦] ورأى أنه خلق من النار ولها العلو ، وأن آدم خلق من الطين وله الدنو ، ورأى أيضًا أن النار أقوى من الطين ، فهي تحرقه ، وغاب عنه أن النار رمز للإحراق والدمار بينما الطين رمز للنماء ، والخير . . . ومن ثمّ قال ما قال ، كيف يأمر الله الأقوى بالسجود للأضعف ؟! وكيف يأمر الله من له العلو بالسجود لمن له الدنو ؟ ! فالقضية معكوسة ، وهذا تخيل إبليس وذلك ظنه الذي ظن بربه أرداه وأورده المهالك ، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : قاس إبليس ، وهو أول من قاس .

وقال محمد بن سيرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس . رواهما ابن جرير .

قال الحافظ ابن كثير : والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار .

إبليس يتحدى !

لما رفض إبليس السجود ، طرده الله من رحمته ، ولعنه إلى يوم الدين فطلب الإنظار ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾

[الأعراف : ١٤-١٧]

عن أبي سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن إبليس قال لربه بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ، فقال الله : بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني » صحيح الجامع (١٦٥٠) .

وقوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك .

ولذلك قال النبي ﷺ : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ، قال : فعصاه وأسلم ، قال :وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ، فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد والمال ، فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، فقال : فعصاه وجاهد ».

قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة » صحيح سنن النسائي (٢٩٣٧).

وعن ابن عباس في قول تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أشهي لهم المعاصي . ولم يقل من فوقهم ، لأن الرحمة تنزل من فوقهم .

كيف خلقت حواء ؟

قال الإمام القرطبي : وزوج آدم عليه السلام هي حواء ، وهو أول من سماها

بذلك حين خُلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولم ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له : من هذه ؟ قال : امرأة ، قيل : وما اسمها ؟ قال : حواء ، قيل : ولم سميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أُخذت ، قيل : ولما سُميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من حي .

قُلت : والدليل على أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام :

أ- قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف :١٨٩] .

ب- قوله ﷺ : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً** » . رواه البخاري .

آدم عليه السلام يسكن الجنة

لما سجدت الملائكة لآدم عليه السلام ورفض إبليس السجود أمر الله تعالى بإسكان آدم وحواء الجنة قائلاً : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ . [الأعراف :١٩].

وحذر آدم وحواء من عداوة الشيطان فقال تعالى : ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾. [طه :١١٧-١١٩] .

وعندما استقرت قدم آدم في الجنة ، بدأ الشيطان يمارس مهمته ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٠] .

(١) قال ابن جرير رحمه الله : « ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين وقد قيل كانت شجرة البر «القمح» وقيل :كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك إن علمه عالم لم ينفع به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به » تفسير الطبري (١/ ٢٣٣) .

أي هل أدلك على الشجرة[١] التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت في ملك لا يبيد ، ولا ينقضي ؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع » .

وأقسم إبليس إنه لهما لمن الناصحين حتى جدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ** ﴾ [الأعراف: ٢٢] قال ابن عباس : « غرَّهما باليمين » وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذبًا ، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما . وفي الحديث الشريف: «**المؤمن غِرٌّ كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم**»[١] . و«الغر» هو الذي لا يفطن للشر ، والخب – بكسر الخاء وفتحها – : الخَدَّاع الفاسد .

فصدق آدم قوله ، وضعفت عندئذ نفسه ، وقلَّ عزمه ، ونسي عهد ربه . . . وأكل من الشجرة ﴿ **فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [طه :١٢١] .

وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق**[٢] **فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة ، فأخذت شعره شجرة فنازعها ، فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم ... مني تفر ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال : يا رب ، لا ، ولكن استحياء**»[٣]

هل كانت حواء السبب ؟

لا شك أن حواء شاركت آدم في المعصية بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَأَكَلَا مِنْهَا** ﴾ الآية.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٩١٢٩)

(٢) السحوق :الطويلة .

(٣) رواه الحاكم بنحوه ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال في التلخيص :صحيح .

وقد ورد أن حواء هي التي زين لهـا إبليس الأكل من الشجرة ، ومن ثم زينت لآدم المعصية ، فعـن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لمن تخن أنثى زوجها** » . أخرجه البخاري (٣٣٣٠) .

قوله : « ولولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم » يخنز : ينتن ، والخنز : التـغير والنتن .

قـيل : أصله أن بني إسـرائيل ادخـروا لحم السلوى وكـانوا نهـوا عن ذلك ، فعوقبوا بذلك حكاه القرطبي وغيره عن قتادة ، وقال بعضهم : معناه لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن .

وقوله : « ولولا حواء لم تخن أنثى زوجـها » إشارة إلى مـا وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجـرة حتى وقع في ذلك ، فمعنى خيانتهـا أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم ، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العـرق فلا تكاد امـرأة تسلم من خيـانة زوجهـا بالفعل أو بالقـول ، وليس المراد بالخيـانة هنا ارتكاب الفواحش ، حاشـا وكلا ، ولكن لما مالت إلى شـهوة النفس من أكل الشجرة وحـسّنت ذلك لآدم عُدَّ ذلك خيانة له ، وأمـا من جاء بعدها من النساء فـخيانة كل واحدة منهن بحـسبها ، وقـريب من هذا حديث :« **جحد آدم فجحدت ذريته** » .

وفي هذا الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى ، وأن ذلك من طبعـهن ، فلا يفرط الرجل ، في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سـبيل الندور ، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع ، بل يضبطن أنفـسهن ويجاهدن هواهن والله المستعان .

اهـ .

آدم يهبط من الجنة :

لم يتمتع آدم وحواء بالجنة طويلاً . . . يقول ابن عباس رضي الله عنه : « **ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس** » رواه الحاكم في «المستدرك » وقال : صحيح الإسناد .

حتى قال الله تعالى لهما : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**...... ﴾ الآية [طه :١٢٣] .

وهكذا أخرج آدم عليه السلام من الجنة بذنب واحد .

وكم من أكلة منعت أخاها ... بلذة ساعة أكلات دهر

وكم من طالب يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدري

ورحم الله القائل :

بفرد خطيئة وبفرد ذنب ... من الخبات أخرجت البرايا

فكيف وأنت تطمع في دخول ... إليها بالألوف من الخطايا

نتائج المعصية :

لما أكل آدم عليه السلام من الشجرة المنهي عنها ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء :

الأولى : معاتبة الله إياهما على ذلك بقوله : ﴿ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [الأعراف:٢٢] .

والثانية : الفضيحة فإنه لما أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة .

الثالثة : أخرجه من جواره ، فلا ينبغي أن يجاوره من عصاه ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾ .

الرابعة : الفرقة بينه وبين حواء زمنًا طويلاً هذا « بالهند » وهذه « بجدة » حتى

التقيا بعد ذلك « بعرفات »[1] .

الخامسة : العداوة ، كما قال تعالى : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ .

السادسة : النداء عليه باسم العصيان : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ [طه : ١٢١] .

السابعة : تسليط العدو على أولاده ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ.....** ﴾ [الإسراء : ٦٤] .

الثامنة : جعل الدنيا سجنًا له ولأولاده .

قال إبراهيم بن أدهم : لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنًا طويلاً .

التاسعة : التعب والشقاء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** ﴾ [طه : ١١٧] .

العاشرة : أوهن جلده وصيره مظلمًا بعد أن كان جلده كله كالظفر وأبقى عليه قدرًا يسيرًا على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله[2] .

أين المكان الذي توجد به جنة آدم ؟

اختلف العلماء في تحديد الجنة التي أسكنها الله آدم وحواء ثم أخرجهما منها وحاصل الخلاف في ذلك أربعة أقوال :

الأول : أنها جنة المأوى التي وعد الرحمن عباده بالغيب .

الثاني : أنها جنة من جنات الأرض محفوفة بالأشجار والثمار والمياه .

---

(١) جاء ذلك في بعض الآثار .

(٢) قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط (٥/٢٧) : « قال ابن عباس وقتادة وابن جبير : كان عليهما -أي على آدم وحواء- ظفر كاسٍ فلما أكلا تلبس عنهما فبدت سوآتهما ، وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المخالفة فيجدان الندم » .

الثالث : أنها جنة لكنها ليست كجنة المأوى ولا كجنة الأرض .

الرابع : التوقف في شأنها وعدم الخوض في أمرها . قال ابن كثير : «الجمهور على أنها هي التي في السماء» . وقال ابن الخطيب : إن الكل ممكن، والأدلة متعارضة ، فوجب التوقف وترك القطع . وإلى الرأي الأخير أميل . والله أعلم.

استغفار وتوبة :

عندما أكل آدم من الشجرة ومعه حواء ، أحسّا بالندم فعادا إلى الله تعالى من قريب ،ورحمة الله أوسع من ذنوبنا ، ومن دعاء الصالحين : « اللهم أدخل عظيم جُرمنا في عظيم عفوك » . فهتفا : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف :٢٣] .

قال تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣٧] .

قال مجاهد : هي قوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

ورجح الإمام الطبري في «تفسيره» قول مجاهد رحمه الله .

آدم عليه السلام يبكي :

عن ابن عباس قال : « نزل آدم بالحجر - أي الحجر الأسود - يمسح به دموعه حين أهبط من الجنة ولم ترقأ عين آدم حين خرج من الجنة حتى رجع إليها ». رواه البيهقي وإسناده صحيح .

وعن الوضين بن عطاء قال : « يذكر أن آدم قال : كنا نسلاً من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض ، فلا ينبغي لنا الفرح في الدنيا ولكن الحزن والبكاء ما دمنا في دار السباء حتى نرد إلى الدار التي سبينا منها .

يا ناظرًا يرنو بعيني راقد ومشاهد الأيام غير مشاهد
منتك نفسك وصلة فأبحتها سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد

حقًا ، إنه درس عظيم : ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فهل استفاد الناس ؟

الحق ، كلا . . . لقد وقع أكثرهم فريسة للشيطان ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : ٢٠] رغم التحذير الإلهي : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا . . . . ﴾ الآية [الأعراف: ٢٧] .

الفرق بين معصية آدم ومصية إبليس :

قال ابن عباس : إذا كانت خطيئة الرجل في كِبْرٍ فلا تَرجُه ، وإن كانت خطيئته في معصية فارجُه ، وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبرًا .

آدم يحج إلى البيت الحرام !

عن عبد الله بن عمرو قال : « لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة قال : إني مهبط معك بيتًا ، أو منزلاً يطاف حَوله كما يطاف حول عرشي ، ويُصلَّى عنده كما يُصلَّى عند عرشي ، فلما كان زمن الطوفان رُفع ، وكان الأنبياء يحجونه، ولا يعلمون مكانه فبوأه لإبراهيم عليه السلام فبناه من خمسة أجبلٍ: حِرَاء ، وثُبير ، ولُبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخير ، فتمتعوا منه ما استطعتم»[1] .

---

(١) قال المنذري :رواه الطبراني في « الكبير » موقوفًا ، ورجال إسناده رجال الصحيح ، الترغيب برقم (١٦٨٩) .

(ورُوِي) عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام : أن يا آدم ، حُجَّ هذا البيت قبل أن يَحْدُث بك حَدَثُ المَوْت قال: وما يحدثُ عليَّ يا رب ؟ قال : ما لا تدري وهو الموت . قال : وما الموت ؟ قال : سوف تذوق . قال : ومن أستخلف في أهلي ؟ قال : أعرض ذلك على السموات والأرض والجبال ، فعرض ذلك على السموات فأبت ، وعرض على الأرض فأبت ، وعرض على الجبال فأبت ، وقبله ابنُه قاتلُ أخيه ، فخرج آدم عليه السلام من أرض الهندحاجًّا ، فما نزل منزلاً أكل فيه وشرب إلا صار عُمرانًا بعدهُ وقُرى حتى قدم مكة فاستقبلته الملائكةُ ، فقالوا : السلام عليك يا آدم بُرَّ حَجُّك ، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام »[١] .

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى : أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني - أو قدره على قبل أن يخلقني** » قال رسول الله ﷺ : « **فحج آدم موسى** » .

قال ابن كثير : من كذب بهذا الحديث فمعاند ، لأنه متواتر عن أبي هريرة ، وناهيك به عدالة وحفظًا وإتقانًا ، ثم هو مروي عن غيره من الصحابة .

وقال العلماء : بأن جواب آدم إنما كان احتجاجًا بالقدر على المصيبة لا المعصية .

وقال ابن كثير : لو كان الجواب على اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد ، لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله ، فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار ، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة . اهـ .

---

(١) رواه الأصبهاني ، وضعفه المنذري . انظر الترغيب (١٦٩١).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : معنى كلام آدم ، أنك يا موسى تعلم أن هذا كُتب عليَّ قبل أن أخلق فلابد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر ، فلا تلمني فإن اللوم على المخالفة شرعي لا عقلي ، وإذا تاب الله علي وغفر لي زال اللوم ، فمن لامني كان محجوبًا بالشرع ، فإن قيل فالعاصي اليوم لو قال هذه المعصية قدرت عليّ فينبغي أن يسقط عني اللوم ، قلنا : الفرق أن هذا العاصي باق في دار التكليف جارية عليه الأحكام من العقوبة و،اللوم ، وفي ذلك له ولغيره زجر وعظة ، فأما آدم ميت خارج عن دار التكليف مستغن عن الزجر ، فلم يكن للومه فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل فلذلك كان الغلبة له . اهـ .

النبي ﷺ يلتقي مع آدم في السماء ! !

التقى النبي ﷺ مع آدم عليه السلام في السماء الدنيا ليلة « المعراج » ففي حديث المعراج الطويل : « ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا ، قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا : افتح . قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد ﷺ قال : أفأرسل إليه ؟ قال : نعم ، ففتح، قال : فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة ، وعن يساره أسودة قال : فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . قال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح . قال : قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا آدم عليه السلام ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي على شماله أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى » متفق عليه .

آدم يخرج بعث النار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريته فيقال : هذا أبوكم آدم . فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول :

أخرج بعث جهنم من ذريتك . فيقول : يا رب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين . فقالوا : يا رسول الله ، إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون فماذا يبقى منا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » رواه البخاري وغيره .

دخول الناس الجنة على هيئة آدم عليه السلام إكرامًا له :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتمخطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة - أي : بخورهم المسك - وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خُلُق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعًا في السماء » . رواه البخاري ومسلم .

أولاد آدم عليه السلام :

ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير في تاريخه عن بعضهم : أن حواء ولدت لآدم عليه السلام أربعين ولدًا في عشرين بطنًا . قاله ابن إسحاق وقيل : مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته ، وآخرهم عبد المغيث وأخته، ولا دليل على العدد وما ذكر معه ، ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا ، وامتدوا في الأرض ونموا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] .

والمهم أن آدم عليه السلام أطال الله عمره حتى رأى الكثير من ذريته ، رأى منهم الصالح والطالح ، الخبيث والطيب كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

آدم على فراش الموت :

وبعد حياة حافلة بالآلام والآمال ، والمحن والمنح ،والبلايا والعطايا ، آن وقت

الرحيل و ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ .

نعم ... آن لآدم أن يستريح من تعب الدنيا ولأوائها ... تاركًا خلفه دروسًا وعبرًا لا تنسى ... آن له عليه السلام أن يسكن بجوار ربه الذي خلقه بيديه ، وخلقه على صورته ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ،وأسجد له الملائكة ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً .

ماذا يشتهي ؟

عن عتي بن ضمرة السعدي قال : رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب رضي الله عنه فقال : (ورفعه إلى النبي ﷺ) : « **إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بُنيّ إني أشتهي من ثمار الجنة ، قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ أو ما تريدون ؟ وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد مضى أبوكم ، فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم ، فقال : إليك عني فإني إنما أُتيتُ من قبلك ، فخلى بيني وبين ملائكة ربي عز وجل ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه ، وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره ، فوضعوه في قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم هذه سنتكم** » . أخرجه الحاكم ، وقال صحيح ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير : إسناد صحيح إليه . واختلفوا في مواضع دفنه ، فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند ، وقيل : بجبل أبي قبيس بمكة ... والقطع في هذا يستحيل لعدم ورود الدليل . فالله أعلم .

* * *

مسك الختام :

عن سلمان رضي الله عنه قال : «لما خلق الله عـز وجل آدم عليه السلام قال: واحدة لي ، وواحـدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، فـأما التي لي : تعـبدني ولا تشرك بي شيئًا ، وأما التي لك ، فما عملت من شيء جزيتك به ، وأنا أغفر وأنا غـفور رحـيم ، وأما التي بـيني وبينك : منك المسـألة والدعاء ، وعليّ الإجـابة والعطاء » خبر صحيح . أخرجه أحمد في « الزهد » ص ٤٧ .

* * *

قــصــة قــابيل وهابيل[1]

قال الله تـعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧-٣١] .

وقعت أحداث هذه القصة في عهد آدم عليه السلام .

شخصية الرجلين :

كـان قابيل من أوليـاء الشيـطان . . . قاده هواه . . .وحطمـه حقـده ، وأرداه حسده ، وأعماه الشيطان .

وكان هابيل من أولياء الرحمن . . . قاده الإيمان ، ورفعه الإحسان .

بداية القصة :

قال أهل العلم : « إن حواء كانت تلد لآدم توأمين في كل بطن غلامًا وجارية، وكان جـميع من ولـدته حواء أربعين من ذكـر وأنثى في عشـرين بطنًا ، أولهم : «قابـيل» وتوأمتـه « إقليمـا » ، ثم «هابيل » وتوأمتـه « لبودا » في بطـن واحد ، وآخرهم . « عبد المغيث » وتوأمته « أمة المغيث » ،ثم كثر الله في نسل آدم .

---

(١) الصحيح أنهـما من ولد آدم لصلبه يدل على ذلك سياق الآيات والأحاديـث الصحيحة كما سـيأتي ،أما تسميتهما « قابيل وهابيل » فإنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب .

وكان آدم يـزوج ذكر كل بطن بأنثى البطن الآخـر ، فلما ولد قـابيل وتوأمـته إقليما في بطن واحد ، وهابيل وتوأمته لبودا في بطن واحد ، وكان بينهما سنتان، وأدركوا ، أمـر الله تعالى آدم أن ينـكح لبودا أخت هابيل قـابيل ، وينكح هابيل إقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل من أجـمل النساء وأحسنهن خلقًا ، فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضي وسخط قابيل وقال : هي أختي ولدت معي في بطن وهي أحـسن من أخت هابيل فأنا أحـق بها ، فـقال له أبوه : إنهـا لا تحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، وقـال: إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه ، فقال لهما آدم : قربا قربانًا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها .

قصة القربان :

كانت القـرابين حينئذ إذا قُبلت نزلت نار من السـماء فأكلتهـا وإذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها . . . فخـرج قابيل وهابيل ليقربا وكان قابيـل صاحب زرع فقرب صبرة من الطْعام من أردأ زرعه ، وأضمـر في نفسه ما أبالي أيقبل مني أم لا . لا يتزوج أختي أبدًا ، وكان هابيل راعيًـا صاحب ماشية فقرب كبشًـا سمينًا من خيار ماشيته ، وأضمر في نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره . فوضعاقربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش ، ولم تأكل من قربان قابيل حبة . . . فنزلوا عن الجبـل وتفرقوا ، وقـد غضب قـابيل لما ردَّ الله قـربانه ، وظهر فـيه الحـسد والبغي، وكان يضمرهما قبل ذلك في نفسه .

المأساة :

أتى قابيل إلى هابيل وهو في غنمـه ، فقال : لأقتلنـك . قال : ولم ؟ قال : لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني وتنكح أخـتي الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير مني وأفضل ويفتخر ولدك على ولدي ، فقال له هابيل : وما ذنبي : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال عبد الله بن عمر : « إن المقتول كان أشد ولكنه منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده » .

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجرًا له لو انزجر .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومعنى « طوعت » أي : سولت وحسنت ، وزينت . قال السدي : لما قصد قابيل قتل هابيل زاغ هابيل على رءوس الجبال ، ثم أتاه يومًا من الأيام ، وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات .

وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه ، فتمثل له إبليس وأخذ طيرًا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ، وكان لهابيل يوم قُتل « عشرين سنة » . ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟

ولما قتل قابيل أخاه تركه ولم يدر ما يصنع لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم[1] . . . فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكّن له في الأرض ثم ألقاه في الحفرة وواراه وقابيل ينظر إليه، فلما رأى ذلك ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

قال الحسن : علاه الله بندامة بعد خسران .

الأرض تبكي على موت هابيل !!

ما من مؤمن يموت إلا وبكت عليه السماء والأرض .

روى أبو يعلى الموصلي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد إلا**

---

(١) ما يروي عن مجاهد : أن قابيل حمل هابيل على عاتقه مائة سنة ميتًا لا يدري ما يصنع به . لا يصح ، فالجثة سرعان ما تتغير .

وله بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩] .

وسئل ابن عباس : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان يقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحًا ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما .

وسئل مجاهد أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل .

الانتقام العاجل :

لم ينعم قابيل بالحياة طويلاً بعد دفن أخيه .

قال مجاهد : « عُلِّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من «يومئذ » ووجهه في الشمس حيثما دارت دار ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج » .

وقال ﷺ : « **لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سنَّ القتل** » رواه أحمد وإسناده صحيح .

قال عبد الله بن عمرو : « إن لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة

صحيحة ، العذاب عليه شطر عذابهم » .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة ، كما ذكره مجاهد وابن جبير أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به ، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » . وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

دروس من القصة :

١- الرضا بقسمة الله تعالى هو باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ومستراح العابدين .

٢- حب الذات آفة خبيثة حملت قابيل على قتل أخيه ، وحملت إبليس على رفض السجود لآدم .

٣- ما تمرد عبد على أوامر الله إلا قادته شهوته ، وانتصر عليه هواه ولذلك قال النبي ﷺ : **« إنما أخشى عليكم شهوات الغيِّ في بطونكم ، وفروجكم ، ومضلاتِ الهوى »** . رواه الطبراني وإسناده رواته ثقات .

٤- البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

٥- التقوى من أسباب قبول العمل **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** ولما حضرت الوفاة عامر بن عبد الله بكى ، فقيل له : ما يبكيك وكنت ؟ قال : إني أسمع الله يقول : **﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾** .

* * *

قصة إدريس عليه السلام

قال المؤرخون: إدريس عليه السلام كان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام[١] .

وإدريس عليه السلام أول من خط بالقلم[٢] ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وسُمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى ، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .

وإدريس عليه السلام هو : إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

واسمه في الكتب السابقة « أخنوخ » وهو في عمود نسب النبي ﷺ على ما ذكر غير واحد من العلماء .

مدحه الله تعالى في كتابه فقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم:٥٦] .

وصفه الله تعالى بأمور :

أحدها : أنه كان صديقًا .

ثانيها :أنه كان نبيًا .

ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

---

(١) قال ابن كثير : لما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده « شيث » عليه السلام ، وكان نبيًا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعًا ، أنه أنزل عليه خمسون صحيفة .

(٢) وفي الحديث : « أنه كان نبي يخط به، أي بالرمل ، فمن وافق خطه فذاك » صحيح . رواه مسلم وأحمد ، وانظر صحيح الجامع (٤٤٦٢) وفي حديث أبي ذر الطويل الذي صححه ابن حبان أن أدريس كان نبيًا رسولاً وأنه أول من خط بالقلم .

[الشرح: ٤] .

الثاني : أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عالٍ وهذا أولى ، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة .

ثم اختلفوا فقال بعضهم إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حيّ لم يمت . وقال آخرون : بل رفع إلى السماء وقبض روحه ، واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة ، أن لا يُرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة .

قلت : فالرفعة هنا رفعة مكان ومكانة .

وقال مجاهد رحمه الله تعالى قي قوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ قال : « إدريس رفع ولم يمت ، كما رفع عيسى عليهما السلام »[1] .

وقد مدحه الله تعالـي في موطن آخر فقال : ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٥، ٨٦] .

وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح ، بل في زمان بني إسرائيل وهذا لا يصح .

كما نسج بعض القصاص حول إدريس حكايات مكذوبة ليس عليها دليل يركن المسلم إليه فضربنا عنها صفحًا .

والقرآن لم يذكر شيئًا مفصلاً عن حياته وتعاليمه ، كما أنه ليس هناك سند تاريخي ثابت عن حياته .

وبالجملة فإدريس عليه السلام من ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ** ﴾ [مريم: ٥٨] . والظاهر من الآيات : أنه دعا إلى دين الله تعالى والقول

---

(١) إسناده صحيح إلى مجاهد ،رواه الطبري (١٦/ ٧٣)وابن أبي شيبة(١١/ ٥٥٠) .

بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا ، ونهى المفسدين من بني آدم عن مخالفة شريعة آدم وشيث وتحمل في ذلك الأذى والمشاق . يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وإدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾ .

النبي ﷺ يلتقي مع إدريس في السماء الرابعة :

في حديث الإسراء قال ﷺ : « فأتينا السماء الرابعة ، قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل : من معك ؟ قيل : محمد ﷺ ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على إدريس فسلمتُ عليه فقال : مرحبًا بك من أخ ونبي » رواه البخاري ومسلم .

* * *

قصة نوح عليه السلام

قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس: ٧١]

فمن هو ؟

هو شيخ الأنبياء والمرسلين ، وأول داع إلى الله تعالى : نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام .

كان بينه وبين أبينا آدم « عشرة قرون » . روى ابن حبان في « صحيحه » بسنده عن أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله : أنبيٌّ كان آدم ؟ قال : « **نعم نبيٌّ مكلم** » قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : « **عشرة قرون** » قال ابن كثير : وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه .

وفي « صحيح البخاري » عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .

طرق الشيطان المريد في إضلال العبيد :

لما مات آدم عليه السلام ، وخلفه في دعوته ولده « شيث » ثم « إدريس » عليهما السلام . . . كان الناس أمة واحدة . يعبدون الله تعالى ولا يشركون به شيئًا . فلما مات « إدريس » عليه السلام لعب الشيطان دوره . فزين للناس المعاصي ، وأغراهم بالفجور ، ولبَّس عليهم أمر دينهم .

فأحل لهم الحرام ، وحرَّم عليهم الحلال ، وأمرهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا .

وفي الحديث : « **وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم** – أي أزالتهم – **عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ،وأمرتهم أن**

يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا » رواه مسلم .

واستخدم الشيطان في إضلال الناس طريقين :

الطريق الأول : تزيين المعاصي :

قال ابن عباس « وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل ، والآخر يسكن الجبل ، وكان في رجال الجبل صباحة وفي نسائهم دمامة ، وكان في نساء السهل صباحة وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام ، فآجر نفسه منه وكان يخدمه ، واتخذ إبليس شيئًا مثل الذي يزمر به الرعاة ، فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم مستمعين إليه واتخذوه عيدًا يجتمعون إليه في السنة فتتبرج النساء للرجال والرجال لهن ، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فجاء إلى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم » . كان هذا هو بداية الانحراف عن الفطرة ... مزامير ، غناء ، تبرج ، وعري ، اختلاط ، ثم فاحشة ، وهذا هو هدف الشيطان الرجيم .

يُروى عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « **إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال : يا رب : أنزلتني إلى الأرض ، وجعلتني رجيمًا ، فاجعل لي بيتًا ، قال : الحمام ، قال : فاجعل لي مجلسًا ، قال : الأسواق ، ومجامع الطرقات ، قال : فاجعل لي طعامًا . قال : كل ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فاجعل لي شرابًا . قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لي مؤذنًا ، قال : المزمار ، قال : فاجعل لي قرآنًا ، قال : الشعر**[1] **قال : فاجعل لي كتابًا . قال : الوشم . قال : فاجعل لي حديثًا . قال : الكذب . قال : فاجعل لي رسلاً . قال : الكهنة . قال : فاجعل لي مصايد . قال : النساء »**[2] .

---

(١) المقصود هنا الشعر المذموم ، فالشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح .

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١١٩) رواه الطبراني وفيه : علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف ، وقال ابن =

الطريق الثاني : الغلو في الصالحين والأولياء .

كان بين آدم ونوح عليهما السلام علماء على طريق التوحيد ، يعلمون الناس أمر دينهم ، ويصلونهم بربهم . . . فنالوا إعجاب الناس فأحبوهم كان منهم : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . . . فلما ماتوا ، وأفضوا إلى ربهم ماذا حدث ؟

عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح:٢٣] .

قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ،فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت . رواه البخاري .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وعن محمد بن قيس قال : كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذي كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس اللعين فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم .

وفي «الصحيحين » عن رسول الله ﷺ : « أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة ، ويقال لها « مارية » وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : « **أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل** » .

= القيم : وشواهد هذا الأثر كثيرة فكل جملةمنه لها شواهد من السنة أو من القرآن . إغاثة اللهفان (٢٥٢/١) .

والمقصود : أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه .

الدعوة إلى الله :

لما بعث الله نوحًا عليه السلام إلى قومه دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طاغوتًا وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره . ولا رب سواه فقال : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف: ٥٩] .

فتصدى له أكابر المجرمين (الملأ) فرفضوا دعوته ، وكذَّبوه واتهموه ، ودار هذا الحوار : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٦١﴾ ﴾ [الأعراف: ٦١] أي لست كما تزعمون من أني ضال ، بل على الهدى المستقيم رسولاً من رب العالمين ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا ، أي فصيحًا ناصحًا أعلم الناس بالله عز وجل .

وقالوا له فيما قالوا : ﴿ **ما نراك إلا بشرًا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي** ﴾ .

قال الإمام القرطبي : « الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ، ﴿ **بادي الرأى** ﴾ أي ظاهر الرأي ، وباطنهم على خلاف ذلك . وقرأ أبو حمزة ﴿ **بادئ الرأى** ﴾ أي أوَّل الرأي ، أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك . ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ أي في اتباعه ، وهذا جحد منهم لنبوته . ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم**

لها كارهون﴾ .

وهذا تلطُّف في الخطاب معـهم ، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق ، كمـا قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥] .

يقول لهم : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ** ﴾ [هود :٢٨] أي النبوة والرسالة ، ﴿ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴾ [هود:٢٨] أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها . ﴿ **أَنُلْزِمُكُمُوهَا** ﴾ [هود:٢٨] أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها ؟

﴿ **وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾ [هود:٢٨] أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه .

﴿ **وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [هود:٢٩] . أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفـعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي ، وأبقى مما تعطوني أنتم .

صلابة الداعية :

وظل نوح يدعو قومه بما أوتي من قوة حجـة ، وفصاحة لسان ، وبلاغة بيان، وعقل راجح ، وعمل صالـح ، وتواضع جليل ، وخلق نبيل ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل .

حاورهم بشتى الأساليب ، وطالبهم بتحكيم عقولهم ، والتخلص من أهوائهم وشهواتهم ، والرجـوع إلى الفطرة التي خلقهم الله عليها ، والتـحرر من العادات المرذولة ، والتقاليد المشـئومة ، والتفكر فيما كان عليـه آباؤهم وأجدادهم من عهد آدم إلى ما قـبل زمانهم ، وكان يتـحين الفرص ، وينوع في الدعـوة ، ويتفنن في طريق العرض ، ويـراعي تغير الظروف ، واخـتلاف المناسـبات والأوقات . فـما زادهم ذلك إلا نفوراً . . . صموا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً .

وها هو يقول لربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ٥-١٤] .

كل ذلك لم يفتح للحق قلوبهم ، ولم يخلق من الرواسب الفاسدة عقولهم ، ولم يں ذا أثر طيب في نفوسهم ، بل كانوا من كثرة الدعايات ضد نوح ودعوته يصمون آذانهم حتى لا تسمع ، ويغطون عيونهم حتى لا ترى .

إن الشياطين لم تصرفهم عن الحق والنور والهدى فقط ، ولكنها حرصت مع طول الزمن أن ترسب في عقولهم أن ما هم عليه من الكفر والضلال والانحراف جاء نتيجة التطور والتقدم . والبعد من عهد آدم البدائي ، وكل من يقول بغير ذلك كاذب أو جامد أو متأخر ، فهو دون المستوى ، وأقل من أن يأتي بما هو أهدى سبيلاً ولو كانت أقواله تساندها المعجزة ويشع منها النور ، وينسبها الرسول إلى العلي العظيم ، فقد رفضوا الرسالة والرسول ، واحتقروا كل من اتبعه وأوصوا بذلك أبناءهم وكل مولود يفهم ، وكل جيل ينشأ ، وكان كبراؤهم عندهم أولى بالاتباع من رسولهم ، ومن رسالة ربهم فياللعار !!! واسمع أخي القارئ إلى هذا الحوار :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ

رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥- ١١٦] .

ولبث نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ، لا يكل ولا يمل، لا تلين له قناة ، ولا تضعف له عزيمة ، ويتهموه تارة بالجنون ، وتارة بالضلال وهددوه بالرجم إلى الممات!! وهكذا يفعل السفهاء بالأنبياء والعلماء على مر العصور وكر الدهور .

ويقف نوح عليه السلام أمام هذا الابتلاء كالجبل الأشم ويقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧١-٧٢] .

ثم حذرهم من عذاب الله ، وشدة بأسه إن استمروا في عنادهم وضلالهم ، فما كان جوابهم : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود: ٣٢] فرد عليهم ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود: ٣٣-٣٥] .

وانضم الأتباع لأسيادهم . . . ووقف الجميع في خندق واحد صادين عن سبيل الله ، معاندين كلمة التوحيد ، لا يرجى خيرهم . . . ولا يؤمن شرهم . . . ومرة أخرى يرفع نوح عليه السلام شكواه لخالقه قائلاً : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] .

تحمله الأذى في سبيل الله :

يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن نوحًا عليه السلام كان يُضرب ثم يُلَف في لبد ثم يلقي في بيته فيرون أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه ، فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا . فقال: يا بني انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك فقال : يا أبت مكني من العصا ، فأعطاه العصا . فقال : ضعني في الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه بالعصا . فقال نوح : رب قد ترى ما يصنع بي عبادك ، فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين ، فأوحى الله إليه : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود:٣٦] .

ويصنع الفلك :

لما أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام :﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أمره الله تعالى أن يصنع الفلك (السفينة) ويسلك فيها من كل زوجين اثنين ، وذلك إذا فار التنور .

قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون :٢٧] .

بدأ نوح عليه السلام بتنفيذ أمر ربه في اتخاذ السفينة ، ولم يكن لنوح عليه السلام ولا لغيره معرفة بصنع السفينة ، لذا فقد أوحى الله إليه صنعها ، وعلمه كيف ينبغي أن تكون قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود:٣٧] .

وشرع عليه السلام يصنع السفينة ، وأعد العدة لذلك ، ويبدو أن امرأته كانت تراه وهو ينقل الأخشاب ، ومن ثم يبدأ العمل في صناعتها علي شكل سفينة ... ولكن ليس قرب البحر ، أو قرب نهر كبير ، مما أثار دهشة امرأته

واستغرابها،وراحت تسأله في تهكم !ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح ؟! فقال نوح : سفينة أنجو بها ومَنْ معي من المؤمنين إذا جاء أمر الله . . . فقالت في سخرية : وأين الماء الذي تجري عليه سفينتك ؟ أظن أنك جُننتَ أو أصابك مَسٌّ من غضب الآلهة ،فهل يعقل أن تسير السفينة على اليَبَس؟!وكلما مَرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه ، وقالوا :يا نوح صرت بعد النبوة نجارًا ؟ إن هذا لشيء عجاب!

قال الماوردي رحمه الله : إنهم لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بُنيت قالوا : يا نوح ، ما تصنع ؟

قال : أبني بيتًا على الماء، فعجبوا من قوله وسخروا منه .

فقال لهم نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:٣٨] . وانتهى نوح عليه السلام من صنع السفينة ، وذكر المفسرون وغيرهم أقوالاً عن نوع الخشب الذي صنعت منه ، وعن مدة صنعها ، وعن حجمها وطولها وعرضها وارتفاعها .

وقال الألوسي - رحمه الله تعالى - « فالحريُّ بحال من يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قصَّ الله تعالى في كتابه ، ولا نخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ، من أي خشب صنعها ، وبكم مدة أتم عملها ؟! إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ، ولم تبينه السنة الصحيحة » .

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : والذي نعلمه أنه -أي الفلك - كان في السَّعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ، ولما يحتاجون إليه ، ولحصول زوجين من كُلِّ حيوان ، لأن هذا القَدْر مذكور في القرآن ، فأما غير ذلك القَدْر فغير مذكور».

دعاء وإجابة :

ولما طال حبل الأشرار ، وزاد إجرامهم ، وتفاقم خبثهم . . . وجفت منابع الخير ، وأغلق باب الأمل . . . يخوفهم نبي الله نوح عليه السلام من عذاب يوم

عظيم ، فما يزيديهم إلا طغيانًا كبيرًا . توجه عليه السلام إلى خالق القوى والقدر . . . ورفع إليه كفيه . ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] .

وفي مقام آخر أنه دعا ربه قائلاً ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ [القمر: ١٠] انتهت طاقتي . انتهى جهدي . غُلبتُ على أمري ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ انتصر أنت يا ربي ، انتصر لدعوتك ، انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك والدعوة دعوتك. وقد انتهى دوري ! .

وما تكاد هذه الكلمة تقال ، وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القاهرة القادرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة . . .فتدور دورتها المدوية المجلجلة . ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾** ﴾ [القمر: ١١، ١٢] .

لقد بدأ الانتقام . . فار التنور[١] . . . وفتحت السماء أبوابها والأرض عيونها فالتقى الماء على أمر قد قُدر .

حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : ﴿**فَفَتَحْنَا**﴾ فيحس القارئ يد الجبار تفتح ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ**﴾ بهذا اللفظ وبهذا الجمع . ﴿ **بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ**﴾ غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها: ﴿**وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا**﴾ وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها . . . والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض ﴿ **عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾** ﴾ التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفانًا يطم ويعم ، ويغمر وجه الأرض ويطوي الدنس الذي

---

(١) التنور : هو ما يخبز فيه ، قاله مجاهد وعطية والحسن رحمهم الله تعالى ، وقال ابن عباس : التنور: وجه الأرض .

يغشى هذا الوجه .

وقد يئس الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره في علاجه . امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته ، فتحرك لها الكون كله . امتدت هذه اليد بالنجاة وبالتكريم ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٣ : ١٤] .

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر - مسامير - توصف ولا تذكر لفخامتها ، وقيمتها وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ وجحد وازدجر ، وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء ، ويصور مدى القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله . ومن يبذل طاقته . ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر ! إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته . والله من ورائها بجبروته وقدرته صعد نوح عليه السلام والمؤمنون إلى السفينة[1] ومعه من كل زوجين اثنين . وقال لهم نوح عليه السلام : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : ٤١] .

وأوحى الله تعالى إليه : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨، ٢٩] .

ويصور القرآن العظيم مشهد السفينة على ظهر الماء.

فيقول : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢] .

الغرق :

انتصر طوفان الإيمان على طغيان الكفر ، وارتفعت السفينة فوق الماء ، وعلا

---

(١) قال تعالى : ﴿وما آمن معه إلا قليل ﴾ [هود : ٤٠] .

الموج ، وغطى الأرض وغـرقت امـرأة نوح ، لم تركب مع المؤمنين في السـفـينة ظنت أن بيتها يمنـعها من الماء ويحميها من هديره ، ولكـن لا عاصم اليوم من أمر الله .

أما نوح عليه السلام فحين ركب السفينة ، وأدخل فيها المؤمنين وأهله كما أُمرَ، رأى ابنه - كنعان - في جهة خارج السفينة وبمقربة منها حيث يسمع النداء[1] ولم يَر امرأته فيئس من سلامتها . وظن أنها هي المستثناة وحدها . وأنها هي التي سبق عليها القول من الله تعالى بختم الـكفر والعذاب فقط وطمع نوح عليه السلام في إيمان ولده ونجاته ، فنادى عليه وهو يقاوم الأمواج ﴿ **يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين** ﴾ فرد عليه : ﴿ **قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**﴾. فرد نوح عليه السلام : ﴿ **قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ﴾ . وحال بينهما الموج .

فهاجت عاطفة الأبوة . . . وتحرك الحنان في قلب نوح عليه السلام : ﴿**وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود: ٤٥-٤٦] .

وهنا بادر نوح عليه السلام فـ ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [هود: ٤٧] .

وغرق الابن العـاق . . . الذي غلبه شيطانه ، وأرداه عناده . . . وحـقت عليه كلمة العذاب ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٧] .

قلت : ومن هذا يتبين لنا أن الأنساب بغير الإيمان لا تنفع . بدليل قوله تعالى: ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ .

---

(١) وكان قد اعتزل أباه ورغب عن دينه والتحق بأمه .

قال الإمام الفخر الرازي : فبين أن قرابة النسب لا تفيد ، إذا لم تحصل قرابة الدين » .

وفي الحديث : « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم وغيره .

وفي الحديث أيضًا : « إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا»[1] .

كما يتبين لنا أن عاقبة الكبر وعقوق الوالدين والاعتصام بغير الله الخسران والهلاك . ولما أغرق الله الكافرين ، ونجَّى أهل الإيمان واليقين ، وقضى الأمر أصدر الله الأمر الكريم : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] .

لقد انتهت مهمة الماء . . . وعلى جبل « الجودي »[2] استقرت السفينة ، وها هو سيدنا نوح عليه السلام يتهيأ للنزول قائلاً :

﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون :٢٩] .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود:٤٨] .

وظل نوح عليه السلام بعد الطوفان زمنًا يعلم المؤمنين أمور دينهم ، ويزكي نفوسهم بما أوحاه الله إليه من المواعظ والعبر ، حتى لقي ربه عز وجل ، وقد مات المؤمنون الذين كانوا معه في السفينة واحدًا بعد الآخر .

ولم يتركوا من بعدهم ذرية تخلفهم في الأرض إلا أولاد نوح عليه السلام وهم

---

(١) صحيح : رواه أحمد في المسند وانظر صحيح الجامع (٢/ ٢٠) .

(٢) جبل بأرض الجزيرة مشهور ، أما ما يروي أن سفينة نوح طافت بالبيت ، وصلت خلف المقام ركعتين، ولما رست على الجودي وكان يوم عاشوراء صام نوح وأمر جميع من معه من الوحوش والدواب فصاموا شكرًا لله ، فباطل لا يصح . فاحذر منها أيها القارئ ، وألق بها دبر أذنيك ، وكن عن الحق منافحًا وللباطل مزيفًا .

« سام » و «حام»، و « يافث»[1] ، فإنهم قد تركوا من خلفهم ذرية ، تفرقوا في الأرض وعمروها ، فكان جميع أفراد البشر من نسلهم ، فسام أبو العرب والعبريين ، وحام أبو السودان والحبشة ، وغيرهم من الأفارقة ، ويافث أبو الترك وغيرهم من العجم ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ [الصافات : ٧٧] .

أخي :

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ، والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه القرآن إلى القلوب التي شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلمسة التعقيب لعلها تتأثر وتستجيب : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٥] .

هذه الواقعة بملابستها المعروفة ، تركناها آية للأجيال : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يتذكر ويعتبر .

وصيته لولده عليه السلام عند الموت :

وبعد هذا الجهاد الطويل ، والسفر المضني ، والعمر الطويل المبارك ، أدركته عليه السلام الوفاة . وآن له أن يترك الدنيا بآمالها وآلامها . . . نعم آن لشيخ الأنبياء والمرسلين أن يستريح من تعب الدنيا ولأوائها لينعم هناك ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وعلى فراش الموت يصدر آخر وصاياه لولده ، فبأي شيء أوصى ؟ عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج . فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس - أو قال : يريد أن يضع كل فارس بن فارس - ورفع كل راع بن راع » . قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « **ألا أرى عليك لباس من لا**

---

(١) في الحديث « سام أبوالعرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » رواه أحمد في المسند (٥/ ٨) وغيره ، وهو ضعيف : ضعيف الجامع الصغير رقم (٤/ ٣٢).

يعقل » ؟!

ثم قال : « **إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه:**[1] **إني قاص عليك وصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر** » .

قال : قلت : أو قيل : يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : « **لا** » . قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : « **لا** » . قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : « **لا** » . قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : « **لا** » . قلت : -أو قيل - : يا رسول الله ، فما الكبر ؟ قال : « **سفه الحق وغمط الناس** » . رواه أحمد ، وقال ابن كثير : إسناده صحيح ولم يخرجوه .

ثم انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، والله أعلم كم كان عمره عند وفاته ، والله أعلم أيضًا أين دفن ، لم يرد إلينا دليل صحيح يستند المسلم إليه ، ويعتمد الكاتب عليه ، فمرد ذلك إلى الله تعالى وحده . ويبقي هذا الثناء الخالد ما دامت السموات والأرض ، ﴿ **سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات: ٧٩-٨١] .

* * *

---

(١) أحد أولاده الذي آمنوا به ونجوا معه من الطوفان .

قصة هود عليه السلام

دارت أحداث هذه القصة في « جنوب الجزيرة العربية » حيث يقيم نسل عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح .

وهو عاد الأولى . . . ومساكنهم في أرض « **الأحقاف** »[١] في شمال حضرموت وعمان ، كان ملكهم من رمل عالج .. إلى شجر عمان . . . والأحقاف الآن رمال هشة شديدة النعومة . يقال إنها تبتلع كل ما يقع فوقها . . .ويسمونها منطقة الرمال المتحركة .. بالربع الخالي من المملكة العربية السعودية.

وقوم عاد كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثة : «**صمدا ، وصمودا ، وهرا** » فبعث الله أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى.

وهود عليه السلام هو :

هود بن شانح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، ويقال : إن هوداً هو عابر بن شانح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديث طويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: « **منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر** » .

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر الأنبياء بدأ بنفسه ، فقال : « **رحمة الله علينا ، وعلى هود وعلى صالح**»[٢] .

هذا ، ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام : العرب العاربة .

---

(١) الأحقاف : جمع حقف ، وهو رمل مستطيل مربع فيه انحناء .

(٢) إسناده صحيح : رواه أحمد في المسند (٥/ ١٢٢).

وهم قبائل كثيرة : منهم عاد وثمود وجرهم وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم .

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل .

من أشد منَّا قوة !!

كان قوم « عاد » من المترفين في الحياة الدنيا ﴿ **وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [المؤمنون: ٣٣] .

بوأهم الله أرضًا تدر عليهم الخيرات ومكن لهم في ديارهم يبنون . الآيات المعجزات . والقصور الشامخات ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ [الفجر: ٧، ٨] .

وأنعم الله تعالى عليهم بنعمة الصحة والقوة ، كما قال تعالى : ﴿ **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

وبدلاً من استخدام هذه النعم في خدمة المُنعم - سبحانه وتعالى - استخدموها في محاربته جل وعلا ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ **جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ [هود: ٥٩].

الدعوة إلى الله :

أرسل الله تعالى إليهم هودًا عليه السلام . . . فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام ، ودار بينه وبينهم هذا الحوار : قال تعالى : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

ولكن يا حسرة على الإنسان ، ويا أسفاه على أولاد آدم عليه السلام !!! إن أكثرهم لهم قلوب لا تفقه ، وعقول لا تتحرر ، وشهوات غالبة ، وأهواء مسيطرة، لذلك وجد فيهم الشيطان طلبته ، ونفذ فيهم رغبته ، لقد أوقفهم أذلة

راكعين أمام حجر منصوب ،وصنم مصنوع ، وقال لهم : هذه آلهتكم فاعبدوها، واتركوا عبادة الله ، أو اجعلوها شريكة له في العبادة ، واسمعوا لسدنتها ، وأطيعوا ، ولا تُبرموا أمرًا دونها، وحاربوا كل من يصدكم عنها ، ولا تسمعوا للناصحين ، ولو قالوا إنهم رسل الله . درج على ذلك الآباء ، وقلدهم من بعدهم الأبناء ، وصار ذلك عندهم دينًا ، يدافعون عنه بأموالهم وأولادهم وأرواحهم ، ولو كانوا يؤمنون بدين الله الحق ما دافعوا عنه كما دافعوا دفاعًا مستميتًا عن أصنامهم وكفرهم وضلالهم ، وإنها الطبيعة البشرية الصالحة للشيء وضده .

فمن البشر رسل وأنبياء هم قمة السمو الإنساني ، ومنهم مردة حمقى أغبياء هم سُبَّة في جبين البشرية ، وصورة للانحطاط الشيطاني .

فما كان جوابهم ؟

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف:٦٦] .

فرد عليهم هود عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٩].

وفي سورة هود كان هذا الحوار :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٠-٥٢] .

فكان ردُّهم : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي حجة واضحة .

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إصرارًا منهم على الكفر .

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ أي أصابك .

﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أي بجنون لسبِّك إياها .

فرد عليهم :

﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥] .

وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ .

ثم قال عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٦، ٥٧] .

وفي سورة الشعراء دار هذا الحوار :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥] .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ . الريع : المرتفع من الأرض ، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانًا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة .

يعبثون ببنيانه ويلعبون بالمارة ويسخرون منهم . وقوله تعالى : ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال مجاهد وغيره : هي الحصون المشيدة ، ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ راجين أن تخلدوا .

قلت : وكم من قصور وبيوت تقام في عصرنا قد تحولت إلى بؤر للفساد ، وثكنات للفواحش ، يطوف حولها كل داعر ، ويدخلها كل فاحش ، وصار للرذيلة أماكن مخصصة ، ترفع لها أعلام وينشر لها إعلان !!

الانتقام :

ولما وصل سيدنا هود - عليه السلام - في دعوتهم إلى طريق مسدود وقالوا له كما ذكر القرآن : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨] .

وفي سورة الأحقاف قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢] . إنه سوء الظن وعدم الفهم ،والتحدي للنذير،واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ،والاستهزاء والتكذيب ،وإصرار على الباطل واعتزاز !

وفي سورة الأعراف قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

فرد عليهم : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف:٧١] .

وبدأ انتقام الله تعالى منهم فأحل عليهم بأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

يقول الإمام **محمد بن إسحاق** رحمه الله تعالى ما مختصره : « فلما أبوا إلا الكفر أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى أجهدهم ذلك فدعو الله أن ينزل

المطر ، فأنشأ الله سحابة سوداء ، فلما رأوها استبشروا وظنوا أن فيها مطرًا .

وقالوا : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ والعارض هنا : السحاب . فيقول الله تعالى: ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك ، قال : واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس، وأنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة. اهـ .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦-٨] .

قوله تعالى : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ الريح الصرصر هي شديدة البرد وقيل : هي شديدة الصوت . وقوله : ﴿ عاتية ﴾ العاتية التي عتت عن الطاعة فكأنها عتت على خزانها فلم تطعهم ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها ، أو عتت على عاد ، فلم يقدروا على ردها ، بل أهلكتهم . وقوله تعالى :﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي : كوامل متتابعات . وقوله : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» متفق عليه .

قال الإمام ابن حجر : الصبا يقال لها القبول لأنها تقابل الكعبة لأن مهبها من مشرق الشمس ، والدبور ضد الصبا .

قلت : ولذلك كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح يتغير لونه .

عن عائشة قالت : كان - أي النبي ﷺ - إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : « **يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قومًا بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا** » رواه مسلم وأحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « **اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به** » رواه مسلم .

كن فيكون :

وهكذا أدت الريح ما أُمرت به ، فدمرت كل شيء ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يُرى إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة لا ديار فيها ولا نافخ نار ﴿ **كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾ سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين .

وتأمل معي أخي القارئ قوله تعالى عنهم : ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ في كلمتين اثنتين ينتهي الأمر ، ويطوي قوم عاد الجبارون ، وتطوى مصانعهم التي يتخذون، ويطوى ماكانوا فيه من نعيم من أنعام وبنين وجنات وعيون !

وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن الله كلما تقدمت في الحضارة ، وتحسب أن الإنسان قد أصبح في غنية عن الله ! وهي تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ما تحسبه واقيًا لها من أعدائها ، ثم تصبح وتُمسي فإذا العذاب يصب عليها من فوقها ومن تحتها عن أي طريق . ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم ماذا ؟

قال الله تـعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ ﴾ [هود: ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠] .

يقول الأستاذ / عبد السلام بدوي : والأحقاف الآن رمال هشة ، شديدة النعومة . يقال : إنها تبتلع كل ما يقع فوقها . ويسمونها منطقة الرمال المتحركة بالربع الخالي من المملكة العربية السعودية .

ويقول حفظه الله : وقد ذكر لي بعض من اشترك في حرب اليمن عام ١٩٦٣م أنه شاهد بنفسه بعض المظليين المصريين يهبط في هذا الربع الخالي ، فابتلعته أمواج الرمال ، كما تبتلع الغريق مياه المحيط . اهـ .

من يشتري تركة عاد بدرهمين !!

وقف أبو الدرداء رضي الله عنه على منبر دمشق لما رأى ما أحدث المسلمون في « الغوطة » من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تبلغون ، قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ، ويبنون فيوثقون ، فأصبح جمعهم بورًا ، وأملهم غرورًا، وبيوتهم قبورًا ، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالاً وأولادًا ، فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين ؟!

كأنه رضي الله عنه ينادي في سمع الزمان : يا من أخلدتم إلى الأرض ، وعبدتم الطين ، وكنزتم الأموال ، وتطاولتم على الكبير المتعال ، ونسيتم العقاب

والمآل ، لم تسمعوا لصوت ناصح ولم تنتفعوا بموعظة واعظ ، وأفسدتم في الأرض ، اعلموا أن ربكم لكم بالمرصاد ، ولسان الدهر من قبلكم يناديكم : أين أصحاب القصور الشاهقة؟ أين أصحاب البيوت الفارهة ؟ ما هو مصيرهم ؟ وأين هي بيوتهم ؟ هل من معتبر ؟

ألا يا ساكن القصر المعلى ستدفن عما قليل في التراب

عليه ملك ينادي كل يوم لدوا للدُّود وابنوا للخراب

وفاته عليه السلام :

سكن « هود » عليه السلام بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ، ولم يرد إلينا دليل ثابت عن موضع قبره ، فالسكوت أسلم ، والله أعلم .

* * *

قصة صالح عليه السلام

وقعت أحداث هذه القصة في مكان يسمى « الحجر» الذي بين الحجاز وتبوك ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠] .

وكانت قبيلة « ثمود » تسكن في هذا المكان « الحجر » وكانوا من أطول الناس أجسادًا وأعمارًا حتى قيل : كان الواحد منهم يبني بيتًا محكمًا فيهدم البيت قبل أن يموت الذي بناه !! فلما رأوا ذلك عمدوا إلى الجبال فنحتوا منها بيوتًا وقصورًا قال تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩] .وأنعم الله تعالى عليهم بكل أنواع النعم ، وأعطاهم الأرض الخصبة والماء الغزير والحدائق والنخيل المتميز بثمره ، وكعادة أكثر البشر ، عبدوا النعمة وكفروا بالمنعم الأعظم ، سبحانه وتعالى عبدوا الأصنام من دون الله تعالى فأرسل الله لهم سيدنا صالح عليه السلام .

وسيدنا صالح هو :

صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرام بن نوح.

فدعاهم إلي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئًا فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر وكان قد دار هذا الحوار بين سيدنا صالح وقومه .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ

بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦١-٦٣] .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] أي قد كنا نرجوا أن يكون عقلك كاملاً كما كان قبل هذه المقالة ،وهي دعوتك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] .

وفي مقام آخر قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٣] .

عدد نعم الله تعالى عليهم ، ودعاهم إلى أداء شكرها ، وحذرهم من القيادات الضالة ومن المفسدين ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ وازداد الهجوم على سيدنا صالح . لتشويه سمعته ، فاتهموه بالكذب والتبجح وتعجبوا كيف يتبعون إنسانًا ليس على مال أو جاه ، إنه في نظرهم الضلال بعينه . ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥] .

وذكرالمفسرون أن ثمودًا اجتمعوا يومًا في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام ، فدعاهم إلى الله وذكرهم بأيام الله ، وحذرهم من سيف انتقامه

فقالوا له : يا صالح ، إن دعوت ربك فأخرج لنا من هذه الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة اختاروها ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء أي : « مضى لحملها عشرة أشهر » فقال لهم صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به ، وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا وعلى الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا .

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه .

الأول : أنه تعالى خلقها من الصخرة .

الثاني : أنه تعالى خلقها من جوف الجبل ثم شق عنها الجبل[1] .

فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ،ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء:٥٩] أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها .

قال لهم سيدنا صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [هود:٦٤] . أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤] .

وفي مقام آخر قال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾

---

(١) فائدة : «لما كان قوم صالح يتعاملون مع الصخر فقد أراد الله أن يخرج لهم من الصخر شيئًا حيًا فكانت الناقة » .

وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦] فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يومًا بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ويقال إنهم كانوا يشربون لبنها كفياتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨].

قلت : أي تشرب الناقة ماء البئر في يوم وتتركه لهم في يوم ، وتحيل الماء الذي شربته إلى لبن يكفي جميع قوم صالح !!

المؤامرة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ [القمر: ٢٧] والمعنى: أي اختبارًا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون . ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ [القمر: ٢٧] والمعنى : أي انتظر ما يكون من أمرهم واصطبر على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية . فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، واستحبوا العمي على الهدى ، واستعجلوا العذاب .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

ذكر ابن جرير والطبري والألوسي وغير واحد من علماء المفسرين أن امرأتين من « ثمود » اسم إحداهما « صدوق » وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له « مصرع بن مهرج » وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى « عنيزة » وكانت عجوزًا كافرة ،لها بنات

من زوجها « ذؤاب بن عمرو » أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على «قدار ابن سالف»[1] إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء ، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهما سبعة آخرون فصاروا تسعة[2] وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل:٤٨] . وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك .

فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت كمن لها « مصرع » فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاء النساء يذمرن ترغيبًا لهم في ذلك فأسرع مصرع وقِدار وبعض السفهاء من القوم إلى الناقة للإجهاز عليها فكان أسرعهم « قدار بن سالف » فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض . ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها[3] ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق فصيلها فصعد جبلاً منيعًا ورغا ثلاثًا .

وروي عبد الرزاق ، عن معمر ، عمن سمع الحسن أنه قال : يا رب ، أين أمي ؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعقروه أيضًا .قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٢٩ ، ٣٠] . وقال الله تعالى : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٢ ، ١٣] . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس:١٤ ، ١٥].

وعن عمار بن ياسر قال :قال رسول الله ﷺ لعلي - أي ابن أبي طالب - «ألا

---

(١) قدار بن سالف : كان يقال أنه ولد زانية ،ولد على فراش سالف .

(٢) وقيل : كانت المدينة بها تسع جماعات تتسلط علي العباد ، وتروج للفساد .

(٣) يفهم من هذا أن الله تعالى أخرجها من الصخرة عشراء فولدت فصيلها وهي بينهم .

أحدثك بأشقى الناس ؟ قال : بلى ، قال : «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني : قرنه - حتى تبتل هذه - يعني لحيته - » (١) .

سمع سيدنا صالح رغاء الفصيل(٢) ثلاث مرات فعلم أن الناقة عُقرت فقال: ﴿**تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾ [هود: ٦٥] أي انتظروا العذاب بعد ثلاثة أيام بعدد رغاء الفصيل ، وأعطاهم ثلاث علامات:

اليوم الأول : تصبح وجوههم مصفرة .

واليوم الثاني : تصبح وجوههم محمرة .

واليوم الثالث : تصبح وجوههم مسودة !!

وعد غير مكذوب :

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « إن الله تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان ، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح - عليه السلام - بنزول العذاب » . ولكنهم تمادوا في غيهم ، ولَجُّوا في طغيانهم ، ودبروا مؤامرة لقتل صالح عليه السلام وأهله وتعاهدوا على ذلك ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ [النمل: ٤٩].

قوله : ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ**﴾ أي قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله . ﴿**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ**﴾ أي لنأتينه بغتة في وقت البيات ، فنقتله وأهله . ﴿ **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ** ﴾ المراد بولي صالح : رهطه . ﴿**مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**﴾ أي ما حضرنا قتلهم ولا ندري من قتله وقتل أهله ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أي فيما قلناه .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وانظر صحيح الجامع برقم (٢٥٨٩).

(٢) الفصيل : ولد الناقة .

ولما انطلقوا لتنفيذ المؤامرة أرسل الله عليهم حجارة فأبادتهم وأهلكتهم .

قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢] . وأصبحت ثمود في اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح ، وفي اليوم الثاني وجوههم محمرة ، وفي اليوم الثالث وجوههم مسودة ،فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل .

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ،وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وجثثًا بلا أرواح منها ولا حراك بها .

قال تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء : ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٨] . وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] . وبعد أن أبادهم الله تعالى ، وأخذهم أخذ القرى وهي ظالمة . مر عليهم سيدنا صالح ، فلما رأى ما أصابهم، قال كما قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] .

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر[١] وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « **يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ،**

---

(١) كانت فيه جثث زعماء المشركين الذي قتلوا في بدر .

فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا » وقال لهم فيما قال : « **بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم »** . فقال له عمر : يا رسول الله ،تخاطب قومًا قد جيفوا ؟ فقال : « **والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون** » رواه البخاري ومسلم.

صالح عليه السلام يحج إلى البيت الحرام :

ولما أهلك الله الظالمين ، وأباد الكافرين ، ونجى صالحًا والذين آمنوا معه ، شد الرحال إلى بيت الله الحرام حاجًا وملبيًا .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما مر النبي ﷺ بوادي عُسفان[1] حين حج قال :«**يا أبا بكر أي واد هذا ؟** » قال : وادي عسفان . قال : « **لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار يلبون ويحجون البيت العتيق**»[2] .

قال ابن كثير :ويقال إن صالحًا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات . اهـ .

قيل إنه عليه السلام بقي ومن معه من المؤمنين في رملة فلسطين إلى أن مات بها. فالله أعلم .

الرسول ﷺ يمر على ديارهم :

عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل منهم «الحجر» عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا

---

(١) عسفان :موضع على مرحلتين من مكة .

(٢) قال المنذري : رواه أحمد والبيهقي كلاهما من رواية زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، ولا بأس بحديثهما في المتابعات ،وقد احتج بهما ابن خزيمة وغيره (الترغيب برقم١٧٢١) وقال ابن كثير :إسناد حسن ، قصص الأنبياء ص ٩٨ والبكرات : الفتية من الإبل ،والنمرات : كساء مخطط .

منها ونصبوا القدور ، **فأمرهم** رسول الله **فأهرقوا القدور** ، **وعلفوا العجين الإبل،** ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال : « **إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم** » رواه أحمد وإسناده صحيح .

وفي رواية : « **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم** » رواه أحمد وإسناده صحيح . إنه سوط العذاب الذي ألهب ظهورهم في حياتهم ، وألهب أجسامهم بعد مماتهم ﴿ **فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد** ﴾ نعم يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ، ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء ﴿ **فهل من مدكر** ﴾ .

* * *

قصة إبراهيم عليه السلام

من هو ؟

هو : إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن خالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . قالوا : ولما كان عمر « تارخ »[١] خمساً وسبعين سنة ولد له « إبراهيم » و « ناحور» و « هاران » ، وولد لهاران « لوط » وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض « الكلدانيين » يعنون أرض « بابل » .

مولده :

ولد إبراهيم عليه السلام في أرض « بابل » بالعراق . وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر .

وكان عليه السلام أقرب شبهًا برسولنا محمد ﷺ .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **عرض علي الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيتُ به شبهًا عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم** - يعني نفسه - **ورأيت جبريل عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دحية**»[٢] .

وفي رواية : « **ونظرت إلى إبراهيم ، فلا أنظر إلى إرب**[٣] **من آرابه إلا نظرت إليه مني ، كأنه صاحبكم** ». رواه البخاري ومسلم .

---

(١) تارخ هو آزر في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ وقيل : أن آزر عمه . والصحيح الأول .

(٢) صحيح : رواه مسلم (١٦٧)واللفظ له .ودحية : هو دحية الكلبي كان من أصحاب النبي ﷺ وكان من أجمل الناس صورة ، راجع ترجمته في كتابنا « رجال ونساء حول الرسول » ط دار الفجر للتراث .

(٣) الأرب : العضو أو الجزء .

من خصائصه عليه السلام :

١- قول الله تعالى عنه : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٢] .

٢- وقول الله تعالى فيه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم:٣٧] . قال سعيد ابن جبير رحمه الله : « وفَّى » أي عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه . وهذا معنى حسن .

٣- ومنها قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات :١٠٨-١١٣] .

٤- ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] .

واختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال أحدها : شرائع الإسلام ، وقال بعضهم : بالأمر والنهي ، وقال بعضهم : بذبح ولده ، وقال بعضهم : بأداء الرسالة . والمعني متقارب .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ، في الرأس: قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وفي الجسد :تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط ، والبول بالماء » . رواه الحاكم وابن أبي حاتم ، وصححه الشيخ أحمد شاكر ، موقوفًا على ابن عباس .

٥- ومنها قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء : ١٢٥] .

٦- ومنهـا قـوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧].

٧- ومن خصائصه عليه السلام أن الله تعالى اصطفاه لبناء بيته : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة :١٢٧] .

٨- ومنها أنه أول من يكسى يوم القيامة . قال ﷺ : « إنكم محشورون حفاة عراة غُرلا ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم » رواه البخاري ومسلم .

٩- ومن فضـائله عليه السلام مـا رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قـال جاء رجل إلى رسول الـله ﷺ فقال : يا خـير البـرية فقـال رسول الله ﷺ : « ذاك إبراهيم » رواه مسلم .

١٠- ومنها أن الله تعالى أوجب علينا اتباع ملته ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣] .

نشأته عليه السلام :

قلنا إنه ولد في أرض « بابل » على الراجح . وكان يحكمها ملك ظالم وهو « النمرود بن كـنعان » . أخرج عـبد الرزاق وابن جرير وابن المـنذر وابن أبي حاتم وأبو الشـيخ في « العظمة » عن زيد بن أسلـم قال : « إن أول جبـار في الأرض نمرود » . وقال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنـيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعـة مؤمنان وكـافران ، فالمؤمنان ، ذو القـرنين وسليمـان . والكافران : النمرود وبُـخْتُنَصَّر . وكـان يعبـد الأصنام هو وقومـه . وفي أرض « حران »[1] كانوا يعبدون « الكواكب » فنشأ إبراهيم وسط فـريقين ضالين ،فريق كانوا يعبدون

---

(١) كانت حران مجاورة لأرض بابل .

الأصنام ، وفريق كانوا يعبدون الكواكب . وعصمه الله تعالى من ضلال الفريقين، فلم تلوث فطرته بشرك ولم تدنس جبهته بسجود لغير الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٥١] .

دعوته لأبيه :

بدأ إبراهيم دعوته إلى الله تعالى بدعوة أبيه « آزر » أو « تارخ » أولاً لأنه أقرب الناس إليه وهذا منهاج دعوى قائم في حياة الأنبياء والمرسلين ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] . وقال لأبيه كما حكى القرآن ، ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٧٤] .

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم .تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة ، فالإله الذي يعبد ، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء، والذي خلق الناس والأحياء هذا الإله في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنمًا من حجر ، أو وثنًا من خشب ، وإذا لم تكن هذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب وهذا ظاهر من حالها للعيان ، فما هي بالتي تستحق أن تعبد ، وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد ، وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى . وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها ثم هي النموذج الكامل للفطرة التي تواجه الضلال البين ، فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة ﴿ **أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾.

كلمة يقولها إبراهيم - عليه السلام - لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضى الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه في القرآن الكريم ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعرالحلم والسماحة .

وفي مقام آخر يقول القرآن :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٧] .

فذكر تعـالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجـادلة ، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عـبارة وأحـسن إشارة ، فلـما عـرض هذا الرشد عليـه وأهدى هذه النصيحة إليه ، لم يقبلهـا منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده ، قال : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم: ٤٦] . قيل : بالمقال ، وقيل : بالفـعال . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي واقطعنـي وأطل هجراني فعندها قـال له إبراهيم ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم: ٤٧] . أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي ، وزاده خيرًا فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] قال ابن عباس : أي لطيفًـا ، وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

إبراهيم عليه السلام يلقى أباه يوم القيامة :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيـامـة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيـقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصـيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخـزني يوم يبعثون فأي خزي أخـزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حـرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه**

فيلقى في النار » رواه البخاري .

دعوته لأبيه وقومه :

وبعد أن عرض إبراهيم عليه السلام على أبيه دعوة الحق . فأعرض أبوه ونأى بجانبه عرض إبراهيم الدعوة على قومه ومعهم أبوه على مرأى ومسمع من الجميع ، ولقد سجل القرآن هذا الحوار : قال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٧] .

وفي حوار آخر قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)** ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٧] .

إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام :

هددهم إبراهيم عليه السلام بالكيد للأصنام ﴿ **وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٥٧] . ولكنهم ما توقعوا أن يحطمها ، ولما خرجوا لعيد لهم ولم يبق إلا هو وقد ادعى أنه سقيم ، والسقيم في اللغة الطعين ، وربما كان السقم نفسيًا . ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] . ولما تركوه أتى الأصنام وهي رابضة في المعبد وقدم لها الطعام وقال: ﴿ **أَلا تَأْكُلُونَ (٩١)** ﴾ ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢)** ﴾ كأنما يلزمها الحجة ثم أفرغ شحنة الغضب وهوى عليها مستخدمًا يده اليمنى محطمها ﴿ **فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ** ﴾

[الصافات: ٩٣] وحـولها إلى قطع صغيرة وأبقى علـي الصنم الأكبر ، وعلق الآلة في عنقه ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء :٥٨] .

ورجعوا من لهوهم ومروا بالمعبد فإذا هم بالآلهة محطمة وبدل أن ينبذوها لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسهـا استنكروا هذا الاعتداء وصاحوا ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٩] .

وارتفعت الأصوات تتـذكر إبراهيم وتعلن أنه هو الذي كان يحتقـرها ويتوعدها وجيء به على رءوس الأشهاد ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٠، ٦١] .

وكلمة فتى إمـا المقصود أن إبراهيم كان في صـباه وإما أنه بالنسبـة للكبار فتى وهو الأرجح وسألوه أأنت الفاعل ؟ وتهكم بهم إبراهيم وحولـهم إلى كبير الآلهة الذي لم يتحطم وبرقـبته الآلة إذ هو المتهم وطلب منهم أن يسـألوا الآلهة المحطمة من الذي فعل بهـا ذلك لعلها تجيب واسـتنكروا ذلك وعادوا إلى أنفـسهم لحظة ، ولاموها ثم عادوا كـالقطيع الشارد يعجبـون كيف تتكلم الآلهة ،وهنا صـاح فيهم صيحة التوحيد وسفه عقولهم وعاب آلهتهم ، وكأنه يقول لهم أفيقوا :

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] .

المحاكمة :

انتهـز إبراهيم عليه السلام انقطاع حُجـتهم واستمـر يسفه الآلهة التي نحـتوها والأصنام التي صنعـوها فها هو يـقول لهم : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ

خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات : ٩٥ ، ٩٦] . فماذا قالوا : ﴿ قالوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الصافات :٩٧، ٩٨] .

عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم ، وذلك لما أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًا .

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًامن جميع ما يمكنهم من الأماكن فمثكوا مدة يجمعون له حتي أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم !! ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت وعلاها شرر لم ير مثله قط ، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل يقال له : « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه في النار ، قال : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : «**حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قيل له « إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما جُمع لإبراهيم ما جُمع ، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : « **يا نار كوني بردًا وسلامًا** » فلم يبق في الأرض نار إلا طفئت . و«كوني » هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس ، ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون** ﴾ فلا نسأل كيف لم

تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية . فالذي قال للنار : كوني حارقة ، هو الذي قال لها : كوني بردًا وسلامًا .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : « لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه . وقال الضحاك : يُروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال ، نعم الرب ربك يا إبراهيم » . وخرج إبراهيم عليه السلام من وسط النار لم تمس النار منه شعرة وأبطل الله كيد الكائدين ﴿ **فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين؟[1] .

لقاؤه مع عُبَّاد الكواكب :

وبعد أن اصطدم إبراهيم عليه السلام مع عباد الأصنام اصطدم مع عباد الكواكب ، من أهل « حران » .

قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾** ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩] .

---

(١) قال ﷺ :« إن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه» متفق عليه . والوزغ: حشرة يقال لكبارها سام أبرص أمر الرسول بقتلها .

وهذا المقام مقام مناظرته قومه بأسلوب استدراجي حكيم ، يدل على عظمة الخليل وسعة أفقه كما قال الله تعالى فيه : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام:٨٣] فبين لهم أن هذه الأجرام السماوية المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مُدبرة مسخرة تطلع تارة ، وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم فلا تديره ولا تعلم ما فيه ، والرب تعالى لا يغيب عن العالم ، ولا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ، ولارب سواه .

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لأن يكون إلهًا ، ثم ترقى إلى القمر الذي هو أضوأ ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبيَّن أنها مُسخَّرة مُسيَّرة مقدرة مربوبة .

واهتز الصنم :

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به فكانت بينهما هذه المناظرة . قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ قال الفراء : بمعنى هل رأيت،أي : هل رأيت الذي حاج إبراهيم وهو « النمرود بن كوش بن كنعان » .

وقوله: ﴿ **الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ** ﴾ يعني الذي خاصم وقوله :﴿ **أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** ﴾ أي لأن آتاه الله ، أو من أجل أن آتاه الله الملك ، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو ، فحاج لذلك . وقوله : ﴿ **إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ**

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ ﴾ يعني بذلك ربي الذي بيده الحياة والموت يحيي من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء .

قال النمرود : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي قال : أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت ، وأستحيي من أردت قتله فلا أقتله ، فيكون ذلك مني إحياء له ، وأقتل آخر ، فيكون ذلك مني إماتة له !!

أراد إبراهيم عليه السلام أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد ، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء ، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، فكان هذا جوابًا أحمق لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم عليه السلام ، لأنه أراد غير ما أراد الكافر ، فلو قال له : ربه الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على ذلك ؟ لبهت الذي كفر بادئ ذي بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسًا لخناقه ، وإرسالاً لعنان المناظرة ،قال ابن جريج : كان قد أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر ، فقال : أنا أحيي وأميت .

قال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج منها بمخرج مكابرة ومشاغبة . ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ فالتحدي قائم والأمر ظاهر ، ولا سبيل لسوء الفهم ، أو الجدال والمراء . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر ، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر ،فيبهت ويبلس ويتحير ، ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب في الحق ، ولم يلتزم القصد والعدل. ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

نهاية الطاغية :

قال القرطبي -رحمه الله تعالى- : وكان إهلاكه أي النمرود ، لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه بابًا من البعوض فستروا عين الشمس وأكلوا

عسكره ، ولم يتركـوا إلا العظام ، ودخلت واحدة منها في دماغـه فأكلته، فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقـة عتيدة لذلك ، وقيل : بالنعال فبقي في البلاء أربعين يومًا . ثم أهلكه الله تعالى وأخذه .

أخي :

أرأيت إلهًـا يُضرب بالنعـال؟! صـدق الله العظيم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ** ﴾ [المجادلة : ٢٠] .

قصة إحياء الطير :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

إنه التـشوف إلى ملابسـة سر الصنعـة الإلهيـة وحين يجيء هذا التـشوف من إبراهيم الأواه الحليم ، فـإنه يكشف عما يخـتلج أحيانًا من الشـوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين ، إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكـماله واستـقراره ، وليس طلبًا للبـرهان أو تقوية للإيمان[1] . إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخـر ، إنه أمر الشوق الروحي ، إلى ملابسـة السر الإلهى ، في أثناء وقوعـه العملي ، أراد أن يرى يد القـدرة ،وهي تعمل . ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ لقد كان ينشـد اطمئنان الأنس إلي رؤية يد الله تعـمل ولقد كان الله يعلم إيمان عـبده وخليله ، ولكنه سؤال الكـشف والبيان ولقد اسـتجاب الله لهـذا الشوق في قلب

---

(١) فائدة : أمـا قول النبـي ﷺ في الحديث الذي رواه البـخاري ومسـلم « نحق أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه أنه لو كان شاكًا لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك ،فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم ، انظر الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٧٢) .

إبراهيم ومنحه التجربة الذاتية المباشرة . ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهم جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيْا ، واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ لقد أمره الله أن يختار أربعة من الطير ، فيقربهن منه ويميلهن إليه ، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التي لا يخطئ معها معرفتهن[١] ،وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ، ثم يدعوهن ، فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى وترتد إليهن الحياة ، ويعدن إليه ساعيات ، وقد كان طبعًا ورأى إبراهيم السر الإلهي يقع بين يديه ، وهو السر الذي يقع في كل لحظة ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه ، إنه سر هبة الحياة ، رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه طيور فارقتها الحياة ، وتفرقت في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى،تعود إليه سعيًا[٢] كيف ؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه إنه الشأن الخاص للخالق الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين.

هجرته عليه السلام إلى بلاد الشام :

قال الله تعالى : ﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [العنكبوت:٢٦، ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء:٧١-٧٣] .

---

(١) قيل : هي الديك والطاوس والحمام والغراب . فالله أعلم .

(٢) قال ابن عباس : وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ،حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها . تفسير ابن كثير(١/ ٤٧١).

وذلك أنه لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت امرأته سارة عاقرًا لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحدًا ، بل معه ابن أخيه لوط الذي آمن معه وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى واحد من ذريته خلعة من الله وكرامة له .

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام ،وهي التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ **إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٧١] قاله أُبي بن كعب ، وأبو العالية وقتادة وغيرهم ، وكانت هجرته من أرض بابل بعد نجاته من نار أهلها ، وبعد مجادلته الملك النمرود وإفحامه بالحجة كما سبق .

هجرته عليه السلام إلى أرض مصر :

ذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه « إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك » فابتنى إبراهيم « مذبحًا » لله شكرًا على هذه النعمة ، وضرب قبته شرقي بيت المقدس ، وأنه كان جوع «أي قحط وشدة وغلاء ،فارتحلوا إلى مصر » وذكروا قصة سارة مع ملكها ، وأن إبراهيم قال لها : قولي أنا أخته ، وذكروا إخدام الملك إياها « هاجر » ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد اليمن - يعني أرض بيت المقدس - وما والاها ، ومعه دواب وعبيد وأموال . عن أبي الزناد : « لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات»[(١)] قوله : حين دُعيَ إلى آلهتهم فقال : ﴿ **إني سقيم** ﴾ وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله لسارة: « إنها أختي » . قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، وهو ملك مصر[(٢)] فقيل له : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك؟ قال: أختي ،

---

(١) ليس الكذب هنا على الحقيقة بل هو من نوع استعمال المعاريض كما قيل : « وفي المعاريض مندوحة عن الكذب » .

(٢) قيل : يسمى « سنان بن علوان » .

قال: فـأرسل بها ، قال : فـأرس بها إليه ، وقـال : لا تُكذبي قولي ، فـإني قد أخبرته أنك أختي (أي في الدين) إنه ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت تتوضأ وتصلي ، وتقول : « **اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلِّط عليَّ الكافر** » .

قال : فغـط « ضغط بشدة » حتى ركض « ضـرب » برجله . قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة . إنها قالت : « اللهم إن يمت يُقَل: هي قتلته » .قال : فـأرسل ، قال: ثم قام إليها ، قال : فـقامت تتوضأ وتصلي وتقول : « **اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عـليَّ الكافر** » . قال فغط حـتى ركض برجله ،قال أبو الزناد : وقال أبو سلمـة عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم أن يمت يقل هي قتـلته » . قال فأرسل قال: فقال في الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إليَّ إلا شيطانًا ، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجـر ، قال : فرجعـت فقالت لإبراهيم : أشـعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة ؟ »[1] .

وفي رواية : فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيـده فأخذ ، فقال : ادع الله لي ولا أضرك ، فدعت الله ، فأطلق ، ثم تناولها الثانية ، أو أشد فأخذ فقال : ادع الله لي ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثالثة ففعل به ، فدعا بعض حجبته، فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما آتيـتموني بشيطان ، فأخدمها «هاجر» وكانت أميرة فأتته أي إبراهيم ، وهو قائم يصـلي فأومأ بيده « مهيم » كلمة بمعنى ما الخبر ؟ فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر » قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء » . متفق عليه .

قال ابن كثير : ورأيت في بعض الآثار : أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم وبينهـا ، فكان مشاهدًا لهـا وهي عند الملك وكيف عـصمهـا الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حبًا شديدًا » .

---

(١) قال ابن كثير : تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

قلت : ولا يستبعد مثل هذا، والله على كل شيء قدير ، ولقد كشف الله تعالى للنبي محمد ﷺ معالم طريق الإسراء كأنه ينظر إليه عندما طلب المشركون منه أن يصف لهم الطريق ليصدقوه [١] .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة ، التي كان فيها ، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

ثم إن لوطًا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك ، إلى أرض الغور ، المعروف « بغور زغر » فنزل بمدينة « سدوم » وهي مدينة قديمة في « فلسطين » على شاطئ البحر الميت ، وهي قرية قوم لوط ، وجاء عن أهل الكتاب أن الله أمطرها مع مدينة عامورة نارًا قصاصًا على خطايا أهلها وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان ، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا ، ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله ، واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخبر إبراهيم عليه السلام سار إليهم في ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطًا عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيرًا وهزمهم وسار في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس ، معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

مولد إسماعيل عليه السلام:

استقر إبراهيم عليه السلام ببلاد بيت المقدس ، وسأل الله تعالى ذرية طيبة وكانت سارة قد فرحت بهاجر فرحًا شديدًا . وتقدم أنها كانت عاقرًا لا تلد ، فقالت لإبراهيم عليه السلام : « إن الرب قد حرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقك منها ولدًا » فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام . فولدت

---

(١) يقول ﷺ : « لما كذبتني قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجه البخاري (٣٨٨٦) .

له إسماعيل عليه السلام .

الهجرة إلى مكة :

أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركها هناك ليعمر بهما هذا الوادي المبارك ، فامتثل إبراهيم عليه السلام أمر ربه عز وجل وخرج بهما إلى هناك ، حيث لا ماء ولا زرع . ولا أنيس ولا جليس ووضع عندهما جرابًا من تمر وسقاء فيه ماء ،وهم بالانصراف فقالت هاجر : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا ؟ وجعل لا يلتفت إليها . فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا .نعم يا أم إسماعيل « إذن لا يضيعنا » وهل يُضيع ربنا من توكل عليه وأسلم أمره إليه ؟ كلا حاشاه ذلك أليس هو القائل : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾.

إذن : فكفى بالله حسيبًا . رجعت هاجر ،ويمم إبراهيم عليه السلام وجهه شطر البيت الحرام وعند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا : ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾ [إبراهيم:٣٧] ما هو الهدف من اختيار هذا المكان ؟ ﴿ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴿٣٧﴾ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴾ . ثم قفل راجعًا عليه السلام إلى الشام.

بئر زمزم :

رجعت أم إسماعيل إلى ولدها الصغير ، وسرعان ما نفد التمر والماء وأصابها وولدها جوع شديد ، وكأنها تقول لابنها كما قال النبي ﷺ لأبي بكر : ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ وكان عليها أن تأخذ بأسباب البحث عن الماء والغذاء ، فأخذت تسعى بين الصفاء والمروة ،ذهابًا وإيابًا ، وكانت على يقين أن الله لا يضيع أهله .

وجاء الفرج :

عن ابن عباس قـال : قال النبي ﷺ: « **فلما أشرفت - ارتفعت - على المروة سمعت صوتًا ، فقالت : صه - بمعنى أنصت - تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضًا ، فـقالت : قد أسـمعت**[1] **إن كان عندك غواث فـإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ،فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا وجـعلت تغـرف من المـاء في سـقائهـا وهي تفور بعـدمـا تـغـرف** » . رواه البخاري .

وفي حديث آخر : « **إن جبـريل لما ركض زمزم بعـقبه ، جـعلت أمُّ إسمـاعيل تجمعُ البطحاء ، رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينًا معينًا** » . رواه أحمد ، وانظر صحيح الجامع (٢٠٥٥) .

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « **يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا** » . فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك ، لا تخافي الضيـعة ، فإن هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ،وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقة من جُرهم ، أو أهل بيت من جُرهم مـقبلين من طـريق كُداء ، فنزلـوا في أسفل مـكة ، فرأوا طائرًا عـائفًـا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهـدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا «رسولاً » أو جَرِيَّين فإذا هم بالماء . فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم إسـمـاعـيل عند الماء ، فقـالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قـالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا ، قالوا : نـعم ، قال عبد الله بن عـباس : قال النبي ﷺ : « **فـألفى ذلك أم إسـمـاعـيل وهي تحب الأنس ، فـنزلوا وأرسلوا إلى أهليـهم ، فنزلوا مـعهم حـتى إذا كـان بها أهل أبيـات منهم ، وشب الغـلام وتعلم**

---

(١) معني قد أسمعت : أي بلغ قولك سمعي .

العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم » .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ،وهو ابن أربع عشرة سنة** » رواه الطبراني ، وانظر صحيح الجامع (٢٥٨١) .

هل كانت سارة السبب ؟

أشارت بعض الروايات إلى أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها ، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ، ويقال : إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا .

فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : فإذًا لا يضيعنا .

وهذه الرواية ليست صحيحة لعدة أسباب منها :

١- أن آخرها ينقض أولها ، فأولها يقول : إن سارة هي التي أمرت إبراهيم عليه السلام ، أن يغيب وجه هاجر عنها فذهب بها وبولدها إلى مكة ، وآخرها يقول : إن الذي أمر إبراهيم بالهجرة إلى مكة هو الله تعالى . آلله أمرك بهذا ؟ . قال :نعم ، إذن هو أمر الله تعالى .

٢- هل يصدق عاقل أن إبراهيم عليه السلام يسمع لكلام سارة وينفذ أمرها على ما فيه من الظلم البين لهاجر وولدها الرضيع ؟

٣- هل ترضى سارة وهي التقية المؤمنة ،الهلاك لهاجر وولدها بدون ذنب ، أو جريرة ؟ الحق أن الرواية ليست صحيحة وأن سارة رضي الله عنها بريئة والحمد لله

رب العالمين .

قصة الذبيح :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات :٩٩-١١٣] .

يذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا فبشره الله بغلام حليم ، وهو إسماعيل عليه السلام ، لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل ،وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصافات:١٠٢] أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه .

فلما كان هذا ،رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعًا « **رؤيا الأنبياء وحي** » وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر ، وقد طعن في السن ، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع ، فامتثل أمر الله في ذلك ، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه ، فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان ،

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الذي ليس له عنده ، أجاب ربه ، وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته ، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه ، وأهون عليه ، من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢] (١) فقال الابن البار الحليم : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

يا لله ! يا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم .

هذا إبراهيم الشيخ ، المقطوع من الأهل والقرابة ،المهاجر من الأرض والوطن هاهو يرزق في كبرته وهرمه بغلام طالما تطلع إليه ، فلما جاءه جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه حليم ، وهاهو ذا ما يكاد يأنس به ، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة حتى يرى في المنام أنه يذبحه ، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية فماذا؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم ، نعم إنها إشارة ، وليست وحيًا صريحًا ، ولا أمرًا مباشرًا ، ولكنها إشارة من ربه ، وهذا يكفي ، هذا يكفي ليستجيب ، دون اعتراض ، ولكنه لا يلبى في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب ، كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ .

فهي كلمات المالك لأعصابه ،المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه ،والأمر شاق ، ما في ذلك شك ، فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده ، يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب

---

(١) قال محمد بن كعب : كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله أيقاظًا ورقودًا ، فإن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم .

إليه أن يرى فيه رأيه ، إنه لا يأخذ ابنه علي غرة لينفذ إشارة ربه وينتهي. إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها ، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأفنى ليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم.

فماذا يكون من أمر الغلام ؟ إنه يرتقي إلي الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه: ﴿ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات : ١٠٢]. إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضى كذلك وفي يقين . ﴿**يَا أَبَتِ**﴾ : في مودة وقربى ، فشبح الذبح لا يزعجه ، ولا يفزعه ، ولا يفقده رشده ، بل لايفقده أدبه ومودته . « افعل ما تؤمر » فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه ، يحس أن الرؤيا إشارة ، وأن الإشارة أمر ، وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب . ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية .

﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ ولم يأخذها بطوله ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجمًا ولا وزنًا إنما أرجع الفضل كله لله ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، يا للأدب مع الله ! ويا لروعة الإيمان ويا لعظمة التسليم !

﴿ **فلما أسلما وتله للجبين**﴾ فلما أسلما أي انقادا لأمر الله، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعلي رضوان الله عليهم :﴿ **فلما أسلما** ﴾ أي فوضا أمرهما إلى الله ﴿ **وتله للجبين** ﴾ كبه على وجهه للذبح. وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا ، كانا قد أسلما ،ولم يكن باقيًا إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه ، وتزهق روحه ، إذن قد جاوزا الامتحان بنجاح .

قال بعض أهل الإشارة : إن إبراهيم ادعى محبة الله ، ثم نظر إلى الولد بالمحبة ، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة ، فقيل له : يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي ، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده ، ثم قال : اللهم تقبله مني في

مرضـاتك ، فأوحى الله إليـه يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا ، فلمـا رددت قلبك بكليتـه إلينا رددنا ولدك إليك» . ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٧] .

قوله : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله له من العوض عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن .

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام:

يدل على ذلك ظواهر الآيات القرآنية والآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم وأئمة العلم والحديث منهم الصحابة النجباء ، والسادة العلماء.

قال ابن القيم في « زاد المعاد » : وأما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجهًا وسمعت شيخ الإسلام : ابن تيمية يقول :هذا القول متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه «إن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه بكره » ، ولا يشك أهل الكتـاب مع المسلمين أن إسـماعـيل هو بكر أولاده، ولكن اليـهـود حسـدت بني إسماعيل على هذه الشرف ، وأحبوا أن يـسوقوه إليهم وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ؟ والله تعالى قد بشر أم إسحاق به ، وبابنه يعقوب ، قال تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] .

فـمحـال أن يبشرها بأن يكون لـها ولد ، وللولد ولد ، ثـم يأمر بذبحـه !! وأيضًا: فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ومعلوم أن إسـماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه » .

مولد إسحاق عليه السلام :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ

خيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود :٦٩-٧٣] .

وقال تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر:٥١-٥٦].

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا :كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل لما وردوا على إبراهيم الخليل حسبهم أولاً أضيافًا فعاملهم معاملة الضيوف وشوى لهم عجلاً سمينًا من خيار بقره(١) ، فلما قربه إليهم وعرض عليه لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك أن الملائكةليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ، فنكرهم إبراهيم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٠] .أي لندمرها عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشارًا بذلك(٢) قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١] أي بشرتها الملائكةبذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات :٢٩] أي في صرخة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات :٢٩] أي كما يفعل النساء عند التعجب ، وقالت : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ [هود:٧٢] . أي كيف يلد مثلي وأنا كبير وعقيم أيضًا . وهذا بعلي أي

---

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كان أول من أضاف الضيف إبراهيم وهو أول من اختتن على رأس ثمانين سنة ، واختتن بالقدوم » . إسناده حسن رواه الطبراني في الأوائل برقم (١٠) ورجاله كلهم ثقات معروفون .

(٢) قال بعضهم : « ضحكت » أي حاضت : والجمهور على أنه الضحك المعروف .

زوجي شيخًا[١] تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢ ، ٧٣] وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٣].

أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه فبشرهما ﴿ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] وهو إسحاق أخو إسماعيل ، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال في الآية الأخرى ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

بناء البيت العتيق :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٦ ، ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

---

(١) كان إبراهيم عليه السلام قد قارب المائة عام أو تخطاها .

وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٩].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام ،أنه بنى البيت العتيق الذي هو أو مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه ،وبوأه الله مكانه أي أرشده ودل عليه . قال تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

وعن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : «**المسجد الحرام** » قلت : ثم أي ؟ قال : « **المسجد الأقصى** » قلت :كم بينهما ؟ قال : « **أربعون سنة** » قلت : ثم أي : قال : « **ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد**» رواه البخاري ومسلم .

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ [آل عمران :٩٦] أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرفه قال مجاهد أثر قدميه عليه السلام في المقام آية بينة . ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي الحجر الذي كان يقف عليه قائمًا لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ، ليرتفع عليه لما تعالى البناء كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقًا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان ، إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخره عن البيت قليلاً ، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في

هذا ، فإنه قد وافقه ربه في أشياء ، منها قوله لرسول الله ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال الشيخ الشعراوي : هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله تعالى السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور . قرأ وهيب بن الورد رحمه الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ثم بكى وقال: « يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك » .

والمقصود أن إبراهيم الخليل بني أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع ، ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه ، وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرمًا محرمًا آمنًا فاستجاب الله ، وله الحمد ، له مسألته ، ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧] وسأل الله أن يبعث رسولاً منهم ، أي من جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية ، سعادة الأولى والآخرة ، وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسولاً أختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدًا قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار ، والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه في نفسه

وكمال ما أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته ، وكمال شفقته على أمته ، ولطفه ورحمته ، وطيب مصدره ومورده ، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض ، أن يكون منصبه ومحله وموضعه ،في منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور[1] ، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور ،الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور .

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم . وفي « الصحيحين » عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « **ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم** » فقلت : يا رسول الله ، ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « **لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت** » .

وفي رواية : « **لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر** » رواه البخاري ومسلم .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة ، أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي . وسدوا الغربي بالكلية ، كما هو مشاهد إلى اليوم ، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا ،

---

(١) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي فقال: يا محمد ،أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» رواه الترمذي وقال :حديث حسن .

وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك، ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له : إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعني كلما جاء ملك على الصفة التي يريد فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم .

وفاته عليه السلام :

وبعد حياة حافلة بالعطاء ، مليئة بالجهاد المتواصل ، عاش خلالها الخليل آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ،وأقام خلالها الحجة على عباد الكواكب والأوثان معتمدًا على الله تعالى ، ومرتكزًا على يقين أثبت من الجبال الرواسي أدركته الوفاة، فلبى نداء الله ، وانتقل إلى جوار مولاه ودفن على الراجح بـ «مدينة الخليل » كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

* * *

قصة إسماعيل عليه السلام

هو :

إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ، وأمه « هاجر » وهو البكر من أولاد إبراهيم الذي أمر إبراهيم بذبحه في المنام كما تقدم معنا ، وهو جد الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ .

فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ،واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم** » . رواه مسلم .

وعن سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، قال : مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون ، فقال النبي ﷺ : « **ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا ؟ ارموا وأنا مع بني فلان** » قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ : « **ما لكم لا ترمون ؟** » قالوا : كيف نرمي وأنتم معهم ؟ فقال النبي ﷺ : « **ارموا فأنا معكم كلكم** » . رواه البخاري وأحمد .

وهو : أول من فتق لسانه بالعربية المبينة ، كما قال النبي ﷺ . ولقد أثنى القرآن عليه فقال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى : ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٥- ٨٦] . وقال تعالى : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ** ﴾ [الصافات :١٠١] .

وقد تقدم معنا ترجمة يسيرة لحياته عليه السلام في حياة أبيه . وبقي أن نعلم

أنه عليه السلام عاش بمكة مع أمه هاجر ،ونشأ نشأة كريمة في ظل أمه هاجر وقبيلة جُرهم ، ولما بلغ تزوج منهم ، وماتت « هاجر » رضي الله عنها ، وجاء إبراهيم عليه السلام بعدما تزوج إسماعيل عليه السلام فلم يجده .

فسأل امرأته، فقالت : خرج يبتغي لنا رزقًا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم،فقالت : نحن بشر في ضيق وشدة ، وشكت إليه ، فقال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاء شيخ صفته كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أننا في جهد وشدة ، قال: فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأمرني أن أفارقك ، فالحقي بأهلك ، فطلقها وتزوج من جُرهم أخرى .

ولبث عنهم إبراهيم عليه السلام ، ما شاء الله ثم أتاهم بعد ، فلم يجده فدخل علي امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا رزقًا ، قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت :نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله،فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : ما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال :اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم وهو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأمرني أن أمسكك[1] .ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم ، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد ، والوالدُ بالولد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك

---

(١) قيل : إنه أنجب من زوجته هذه اثني عشر ولدًا ذكرًا .

به ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ والقصة في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفاته عليه السلام :

وبعد عمر مبارك ، قيل : يزيد المائة والثلاثين أدركته المنية فلبى نداء مولاه ورجعت روحه إلى ربها راضية مرضية . لتستقر هناك ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٥١ ، ٥٢] . وقيل : دفن مع أمه هاجر بالحجر ، ولكنها رواية ليس لها إسناد صحيح .

قال الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى : إنه لم يثبت في حديث مرفوع أن إسماعيل عليه السلام أو غيره من الأنبياء الكرام دفنوا في المسجد الحرام ، ولم يرد شيء من ذلك في كتاب من كتب السنة المعتمدة كالكتب الستة ومسند أحمد ومعاجم الطبراني الثلاثة وغيرها من الدواوين المعروفة ، وذلك من أعظم علامات كون الحديث ضعيفًا بل موضوعًا عند بعض المحققين ،وغاية ما روي في ذلك آثار معضلات بأسانيد واهيات موقوفات أخرجها الأزرقي في أخبار مكة (٣٩-٢١٩-٢٢٠) فلا يلتفت إليها وإن ساقها بعض المبتدعة مساق المسلّمات . ونحو ذلك ما أورده السيوطي في « الجامع » من رواية الحاكم في الكنى عن عائشة مرفوعًا بلفظ « إن قبر إسماعيل في الحجر ». اهـ . ثم لو كان ثابتًا وجود قبر إسماعيل في «الحجر » أو قبر غيره في المسجد الحرام لنهانا النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد ، فكيف وقد استحب الصلاة فيه ؟

كذلك لما جاز لنا أن نطأ مواضع قبورهم لأن النبي ﷺ نهانا عن وطئ القبور والقعود عليها .

قصة إسحاق عليه السلام

ولد إسحاق عليه السلام ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة . وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة .

قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢ ، ١١٣].

وذكر أهل الكتاب :

أن إسحاق لما تزوج (رفقا بنت بتوائيل) في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقرًا ، فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه « عيصو » وهو الذي تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم .

والثاني : « يعقوب » وهو « إسرائيل » الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب « العيصو » أكثر من « يعقوب » لأنه بكره وكانت أمهما (رفقا) تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر .

قالوا : فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له ، وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجلد ، ويعقوب ليس كذلك ، فلما جاء به وقربه إليه قال : من أنت ؟ قال: ولدك فضمه إليه وجسه وجعل يقول :

أما الصوت فصوت يعقوب . وأما الجس والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا

له أن يكون أكبر أخوته قدرًا وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له : ما هذا يا بني ؟ قال : هذا الطعام الذي اشتهيته ، فقال : أما جئتني به قبل ساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد « أي غضب » في نفسه عليه وجدًا كثيرًا .

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم ، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذي بأرض حران ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه ، وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأي في نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين في هذا الموضع معبدًا لله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به سمي ذلك الموضع « بيت إيل » أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي.

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله في أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى «ليا » واسم الصغرى «راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما فطلب يعقوب منه أن يزوجه راحيل فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه [1] سبع سنين ، فلما

---

(١) وفي الحديث « ما بعث الله نبيًا إلا ورعى الغنم » .

مضت المدة على خاله « لابان » صنع طعامًا وجمع الناس عليه وزفَّ ليلاً ابنته الكبرى « ليا» وكانت صفيفة العينين قبيحة المنظر ،فلما أصبح يعقوب إذا هي «ليا» فقال لخاله لم غدرت بي ؟ وأنا إنما خطبت إليك « راحيل » . فقال : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين أخرى وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغًا في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة(١) .

ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب « لليا» جارية اسمها «زلفى » ووهب « لراحيل » جارية اسمها « بلهى » . وجبر الله تعالى صفف «ليا» بأن وهب لها أولادًا فكان أول من ولدت ليعقوب « روبيل » ثم « شمعون » ثم « لاوي » ثم« يهوذا» فغارت عند ذلك ، « راحيل » وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت وولدت له غلامًا سمته« دان » ثم حملت وولدت غلامًا آخر سمته « نيفتالي » فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » من يعقوب عليه السلام فولدت له « جاد » و « أشير » غلامين ذكرين ، ثم حملت « ليا » أيضًا فولدت غلامًا خامسًا ، وسمته « إيساخر » ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته « زبلون » ثم حملت وولدت بنتًا سمتها «دينا» فصار لها سبعة من يعقوب أما راحيل فقد دعت الله تعالى وسألته أن يهب لها سبعة من يعقوب فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته « يوسف » كل هذا وهم مقيمون بأرض حران ، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين(٢) ست سنين أخرى فصارت مدة مقامه عشرين سنة ، فطلب يعقوب من

---

(١) تنبيه مهم : في تاريخ الطبري (٣١٧/١) :ثم توفيت ليا بنت لبان فخلف يعقوب على أختها راحيل بنت لبان فولدت له يوسف .وهذا أقرب للصواب مع أن هذه القصة أيضًا من الإسرائيليات ولا يوجد دليل ثابت على أن يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، فالجمع بين الأختين كان من أمر الجاهلية ، وعدم الجمع بينهما هو شريعة الإسلام التي كان عليها يعقوب : ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

(٢) انظر التعليق السابق .

خاله « لابان » أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله : إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت ، فقال : تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد ، وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز، فقال : نعم . فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم قالوا فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ، ولب فكان يقشرها « بلقا » وينصبها في مساقي الغنم من المياه لتنظر الغنم إليه فتفزع وتتحرك أولادها في بطنها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا « ضاقوا » منه وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحمل بأهله وماله وسرقت « راحيل » أصنام أبيها فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم ، لحقهم « لابان » وقومه فلما اجتمع « لابان » بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ، ولم أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند يعقوب علم عن أصنامه فأنكر أن يكون أخذوا له أصنامًا فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا وكانت « راحيل » قد جعلتهن في بردعة الجمل وهي تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن ، فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها « جلعاد » على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر ،لا « لابان » ولا يعقوب وعملا طعامًا وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم، فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البُرُد « الرسل » إلى أخيه « العيصو» يترفق له ويتواضع له. فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليه في أربعمائة راجل فخشي يعقوب من

ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذي وعده به ، وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص ، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي مائتا شاة وعشرون تيسًا ،ومائتا نعجة ، وعشرون كبشًا ، وثلاثون لقحة « الناقة الحلوب » وأربعون بقرة ،وعشرة من الثيران ، وعشرون أتانًا ، وعشرة من الحُمُر ، وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم « العيص » فقال للأول لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدي « العيص » وليقل الذي بعده كذلك ، وكذلك الذي بعده، وكذا الذي بعده ، ويقول كل منهم وهو جاء بعدنا .

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر ، بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا ، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية ، تبدى له ملك من الملائكة في صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب ، فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال :يعقوب . قال : لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل ، فقال له يعقوب : ومن أنت ؟ وما اسمك؟ فذهب عنه ، فعلم أنه ملك من الملائكة[١] ،وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله ، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه العيص قد أقبل في أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله ، فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكان هذه تحيتهم في ذلك الزمان ، وكان مشروعًا لهم ، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه كما سيأتي[٢] .

فلما رآه « العيص » تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ،

---

(١) ذهب اليهود إلى أن الذي صارع يعقوب هو الله !! فقبحهم الله ما أعظم إفكهم.

(٢) راجع «قصة آدم عليه السلام » تحت عنوان سجود الملائكة لآدم .

ونظر إلى النساء والصبيان ، فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال: هؤلاء الذي وهب الله لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له ودنت « راحيل » وابنها يوسف فخرًا سجدًا له .

وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ، ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال « ساعير » فلما مر « بساحور» ابتنى له بيتًا ، ثم مر على أورشليم « قرية شخيم » فنزل قبل القرية واشترى مزرعة » سخيم بن جمور » بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابتنى ثَمَّ مذبحًا فسماه « إيل » إله إسرائيل ، وأمر الله ببنائه ليستعلن له فيه ، وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام ،وهو مكان الصخرة التي علمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً .

ثم حملت « راحيل » فولدت غلامًا هو « بنيامين » إلا أنها جهدت في طلقها به جهدًا شديدًا وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب في « أفراث » وهي بيت لحم[(١)] وصنع يعقوب الذكور اثنا عشر رجلاً فمن « ليا» روبيل وشمعون ولاوي ، ويهوذا، وإيساخر ، وزابلون .ومن « راحيل » : يوسف وبنيامين .ومن أمة راحيل دان ونفتالي . ومن أمة « ليا » جاد ، وأشير .

وجاء يعقوب إلي أبيه إسحاق ، فأقام عنده بقرية حبرون ، التي في أرض كنعان ، حيث كان يسكن إبراهيم الخليل عليه السلام .

وفاته عليه السلام :

ثم مرض إسحاق عليه السلام ومات عن مائة وثمانين سنة وقيل :دفنه ابناه العيص ، ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا .

---

(١) الراجح أنها لم تمت في هذه الولادة بدليل قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش﴾.

تنبيهان :

الأول : وردت هذه الأخبار عن يعقوب وأخيه في العهد القديم ولم تتعرض المصادر الإسلامية لها .

الثاني : القول بأن إسحاق عليه السلام دُفن مع أبيه إبراهيم في « المغارة » لا دليل عليه من القرآن والسنة الثابتة .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : الذي اتفق عليه العلماء هو قبر النبي محمد ﷺ فإن قبره منقول بالتواتر ، وكذلك قبر صحابيه وأما قبر الخليل فأكثر الناس على أن هذا المكان المعروف هو قبره وأنكر ذلك طائفة ، لكن الصحيح الذي عليه الجمهور أنه قبره .

وليس في معرفة قبور الأنبياء بأعيانها فائدة شرعية ، وليس حفظ ذلك من الدين ولو كان من الدين لحفظه الله كما حفظ سائر الدين.

* * *

قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عمه وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل «سدوم» ، وأعمالها التي أهلكهم الله بها ودمرها عليهم ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهي مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال بيت المقدس بالشام ، وهي مكان البحر الميت الآن .

قال ابن كثير هو لوط بن هاران بن تارح ، وهو آزر ، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل ،فإبراهيم وهاران وناحور إخوة .وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة « **سدوم** » من أرض غور زغر ، وكان أم تلك المحلة ولها أرض وقرى مضافة إليها ، ولها أهل : « من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ،وأردئهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ،ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني ادم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ،وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .

قال الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا ، فهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ».

أرسل الله تعالى إليهم لوطًا عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش والمنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يُرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مُثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألبّاء من العالمين ،ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في كتابه

المبين قال تعالى : ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤] وفي سورة النمل : ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥] .

وفي سورة الشعراء : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ** ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٧] .

قلت : والواضح أن الفساد والانحلال والضلال تغلب على سلوكهم وأحوالهم رجالهم وشبابهم ، شيوخهم وأطفالهم ونساءهم . فالقاعدة عندهم إنما هي الفساد وأن من الشذوذ أن تجد للخير فيهم أثرًا بدليل قول الله تعالى : ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ .

يُروى عن ابن عباس قال: عشر خصال من أعمال قوم لوط : تصفيف الشعر[1]، وحل الإزار ، ورمي البندق ،والخذف بالحصى ،واللعب بالحمام الطيارة، والصفير بالأصابع ، وفرقعة الأكعب وإسبال الإزار ، وحل أزر الأقبية ، وإدمان شرب الخمر ، وإتيان الذكور ،وستزيد عليها هذه الأمة مساحقة النساء للنساء . ويُروى أيضًا أن قوم لوط فيهم عشر خصال : أهلكوا بها : كانوا

---

(١) المقصود به هنا التشبه بالنساء ، وليس إكرام الشعر ،فإن إكرام الشعر سنة نبوية كما هو مقرر .

يتغـوطون في الطرقات ،وتحت الأشجار المثمرة ،وفي شطوط الأنهار ،ويرفـعون ثيابهم قـبل أن يتغوطوا ،وإخـراج الريح بينهم ،واللطم على الرقاب ،ويخـذفون الناس بالحـصى ويظهـرون المنكر في مـجالسـهم ،ويأتون بالطامـة الكبـري وهو اللواط».

وروي أن من أعـمال قوم لـوط اللعب بالنرد « الطاولة » والسابـقة بالحمام ، والمهارشـة بين الكلاب ، والمناطحة بـين الكباش ، والمناقرة بـن الديوك ، ودخول الحمام بلا مئزر ، ونقص الكيل والميزان ويل لمن فعلها .

وقال بعض العلماء :

وقد توجـد هذه الأمور في بعض عصاة أمـة محمـد ﷺ ولهذا وجب التناهي عنها . قال ﷺ : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » رواه أحمد وإسناده حسن .

نهاية الخبثاء :

قال الإمام ابن القـيم رحمه الله تعالى : « قد حكم الله سبـحانه وتعالي أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم ، فأرسل إليهـم رسوله الكريم يحـذرهم من سوء صنيـعهم وينذرهم عـذابه الأليم ، على رؤوس الملأ منهم والأشهـاد ، وصاح بها بين أظهرهم في كل حـاضر وباد ،وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين ﴿ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ثم أعاد لهم القول نصـحًا وتحذيرًا وهم في سكرة عشـقهم لا يعقلون ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف: ٨١]. فأجاب العشـاق جواب من أركس في هواه وغيه ، و ﴿ **قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل: ٥٦] . فلما أن حـان الوقت المعلوم وجاء مـيقـات نفوذ القدر المحـتوم ،أرسل الرحـمن تبارك وتعـالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوط ملائكة في صورة البشر ، وأجمل ما يكون من الصور ،

وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذي الصدر الرحيب ، ولكنه كما قال القرآن ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود:٧٧][١] .

وجاء الصريخ إلي قوم لوط أن لوطًا قد نزل به شباب لم ينظر إلى مثل حسنهم وجمالهم الناظرون ، ولا رأى مثلهم الراؤون ، فنادى قوم لوط بعضهم بعضًا أن هلموا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات ، ونيل أكبر اللذات ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود:٧٨] فلما دخلوا عليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم والكرب ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود:٧٨] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحًا ولا نكاحًا ، إنما قال : هؤلاء نساؤكم ، لأن النبي إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم .

قلت : وبدليل قوله تعالى : ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ فلما سمع قومه كلامه أجابوه جواب الفاجر المجاهر. ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩][٢] . فقال لهم لوط عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود: ٨٠] . يقول النبي ﷺ : «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد** » متفق عليه .

فلما رأت رسل الله ما يقاسي نبيه من قومه كشفوا له عن حقيقة الحال ، وقالوا: هون عليك ، ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود :٨١] فسر نبي الله سرور المحب حيث وافاه الفرج بغتة على يد الحبيب ، وقيل له: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ

---

(١) يوم عصيب قال ابن عباس : أي شديد ، وإنما قال عليه السلام ذلك خوفًا عليهم من قومه . ولم يكن يعلم أنهم رسل الله تعالى .

(٢) يقولون -عليهم لعائن الله - لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا .

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١][١] . ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه ولم يرعوا حق الضيف ضرب جبريل بجناحه على وجوههم فطمس منهم الأعين وأعمى الأبصار ، فخرجوا من عنده عميانًا يتحسسون ويقولون : ستعلم غدًا ما يحل بك أيها المجنون .

فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند رب الأرباب أن اخسف بهم وأذقهم أليم العذاب ، فاقتلع القوي الأمين جبريل مدائنهم على ريشة من جناحه ورفعها في الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، وأتبعوا بحجارة من سجيل - وهو الطين المستمر الشديد - وخوف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد فقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣][٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ أي كما أنزل العذاب بساحة قوم لوط ينزل بغيرهم ممن عمل بعملهم . قال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء ، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل** - ثم تلا رسول الله ﷺ - ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ » .

موعظة بليغة للإمام ابن القيم :

قالوا : وكم أكبت فتنة الفسق رؤوسًا على مناخرها في الجحيم ، وأسلمتهم

---

(١) قوله تعالى : إلا امرأتك » قال السهيلي : اسم امرأة لوط «والهة» واسم امرأة نوح « والغة» وضرب الله بهما المثل في الخيانة أي خيانة العقيدة .

(٢) قوله تعالى : ﴿ مسومة ﴾ أي على كل حجر اسم الفاجر الذي ستهلكه .

إلى مقاساة العذاب الأليم ، وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم ،وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين ،كخروج الشعرة من العجين ، وكم أزالت من نعمة ، وأحلت من نقمة ، وكم أنزلت من معقل عزه عزيزًا فإذا هو من الأذلين ، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين ، وكم كشفت من عورة ، وأحدثت من روعة ، وأعقبت من ألم ، وأحلت من ندم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد ، وأذهبت قدرًا كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد ، وكم جلبت من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، فقل أن يفارقها زوال نعمة ، أو فجاءة نقمة ، أو تحويل عافية ، أو طروق بلية ، أو حدوث رزية ، فلو سألت النعم ما الذي أزالك؟ والنقم ما الذي أدلك ؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك ؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك ؟ والستر ما الذي كشفك ؟ وشمس الإيمان ما الذي كوّرك ؟ والوجه ما الذي أذهب نورك وكشفك ؟ والحياة ما الذي كدرك ؟ وعزة النفس ما الذي أذلك ؟ وبالهوان بعد الإكرام بدلك ؟ لأجابتك بلسان الحال اعتبارًا ، إن لم تجب بالمقال حوارًا ، هذه والله بعض جنايات العشق علي أصحابه لو كانوا يعقلون : ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [النمل: ٥٢] .

قلت : والله إنها لموعظة تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب بل وتكتب بماء العيون فما أجلها من موعظة،وما أحلاه من كلام ، وما أبلغها من نصيحة ، لو أن بالقلوب حياة .

عظة المكان :

شاءت إرادة الله تعالى ، وحكمته ، أن يترك لنا مكان قرى لوط إلى يومنا هذا، وهو المكان المسمى « **بالبحر الميت**» عظة لنا ،فافتضحوا بذلك فضيحة لا يغطيها ذليل ولا يسترها ليل ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر: ٧٥] .

أي :لعلامات للمتفكرين الناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين أي عظة لمن يأتي من

بعدهم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر : ٧٦].

يعني قرى قوم لوط ، على طريق ثابت ، وهو الطريق من المدينة إلى الشام فإن السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر : ٧٧] .

أي هذه القرى وآثارها يعتبر بها أهل الإيمان فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار ، فثبت بذلك أن الله تعالى أبقى أماكنهم للعظة والاعتبار ، موعظة للمتقين ، وإنذارًا للمجرمين ، وأثبت الطب الحديث أن عمل قوم لوط يصيب الإنسان بالأمراض الفتاكة المستعصية كالإيدز وغيره .

وصدق النبي ﷺ : « **لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذي مضوا** »[1] .

حكم الإسلام فيمن يعمل عمل قوم لوط :

لما كان اللواط أكثر إثمًا وأقبح ذنبًا ، كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

قال ابن القيم رحمه الله : لم يبتل الله سبحانه وتعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقبها أحدًا غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم ، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض أن تميد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصبهم معهم ، وتضرع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن مكانها » . اهـ .

---

(١) حديث حسن : رواه ابن ماجه . وحسنه الألباني .

عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه : أنه وجد رجلاً في بعض نواحي المدينة ينكح كما تنكح المرأة فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال علي : إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم أري أن يحرقه بالنار فأجمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ »[١] أي على ذلك .

ونقل عن أبي عبد الله بن الحاج رحمه الله قال : وعقوبة اللائط عندنا حدًا كالزنى مائة جلدة إن كان غير محصن والرجم إن كان محصنًا ، وقيل عقوبة اللائط أن يلقي من شاهق وترمي عليه الحجارة كما عذب الله قوم لوط وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

قلت : والذي نص على رجم اللائط من الأئمة : الشافعي وأحمد وطائفة قالوا: بأن اللائط يرجم سواء كان محصنًا أو لا ، واحتجوا بحديث : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » روه أبو داود ، وهو حديث حسن في المتابعات .

وذهب أبو حنيفة إلى أن الذي يعمل عمل قوم لوط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط ، ولقوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ .

أقول : ومن أجل ذلك سد الإسلام المنافذ ، وأغلق الأبواب التي قد تؤدي إلى ارتكاب مثل هذه الفاحشة النكراء فمن ذلك :

(١) عن أبي ريحانة - رضي الله عنه - قال : نهى رسول الله ﷺ عن مكامعة الرجلُ الرجلَ بغير شعار ، ومكامعة المرأةُ المرأة بغير شعار » رواه أحمد وغيره .

وفي رواية: « مكاعمة » بدلاً من : « مكامعة » أي بتقدم العين على الميم . والمكامعة [بتقديم الميم على العين] أي المضاجعة ، يقال لزوج المرأة : هو

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي (٨/ ١٣٢) وقال عقبة : هذا مرسل ،وروي من وجه آخر في غير هذه القصة قال: « يرجم ويحرق بالنار » .

كميعها. أي : ضجيعها ، وأما « **المكاعمة** » بتقديم العين على الميم ، فهو من قبيل فم الغير ، أخذ من كعام البعير ، وهو أن يشد فمه إذا هاج حتى لا يعض ، قوله « بغير شعار » أي : بلا حاجب من ثوب .

قلت : ومن هذا الحديث يتبين لنا أن الإسلام نهى الرجال أن يُقبِّل أحدُهما الآخر في فمه ، وهو ما يحدث كثيرًا في عصرنا ، وكذلك نهى النساء أن تقبل إحداهن الأخرى في فمها ، كما لا يجوز للمرأتين أن يتجردا تحت ثوب واحد إن كانت إحداهن بجوار الأخرى على فراش واحد ، وكذلك الرجال .

(٢) وفي الحديث الشريف : « **لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد ، ولا المرأة إلى المرأة في الثواب الواحد** » رواه مسلم وأحمد .

أحاديث وآثار تحذر من اللواط :

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :« **سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين ويدخلهم النار - في أول الداخلين - إلا أن يتوبوا ، ومن تاب تاب الله عليهم : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنه الناس ، والناكح حليلة جاره**»[1] .

(٢) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : أقبل رسول الله ﷺ فقال : «**يا معشر المهاجرين ، خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسِّنين وشدَّة المئونة وجور السلطان .**

---

(١) رواه أبو الشيخ ، والديلمي ، والفريابي وحسنه الشيخ الغماري في الاستقصاء ص٣٦.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القَطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم .

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » رواه ابن ماجه وحسنه الألباني .

(٣) وفي الحديث الشريف : « **لا ينظر الله - عز وجل - إلى رجل أتى رجلاً ، أو امرأة في دبرها** » . رواه الترمذي ، وصححه ابن حبان .

(٤) وعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أخوف ما أخاف على أمتي ، عمل قوم لوط** » رواه أحمد وصححه الألباني .

قلت : وما خاف منه النبي ﷺ وقع في أمته ، نسأل الله تعالى النجاة والسلامة. ففي البلاد التي تدين بغير الإسلام تتم عقود زواج بين رجال ورجال!!! ويعلن ذلك في وكالات الأنباء العالمية وتنشر الصور في الصحف عن أول زواج يتم بين رجل ورجل !! والأعجب والأغرب من ذلك أن بعض الدول التي تنتسب إلى الإسلام تعلو فيها صيحات تنادي بما يسمونه **(حق الجنس الثالث)** بينما الرسول ﷺ يقول : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[1] . و﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة :١٥٦] .

(٥) وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: « **ملعون من سبَّ أباه ، ملعون من سبَّ أمه ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من غير تخوم الأرض ، ملعون من كمّه أعمى عن طريق ، ملعون من وقع على بهيمة ، ملعون من عمل بعمل قوم لوط** » رواه أحمد ، وانظر : صحيح الجامع (٥٨٩١).

---

(١) حديث صحيح : رواه أحمد في المسند (١/ ٣٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : صحيح.

(٦) « يروى » عن مجاهد - رحمـه الله تعالى - أنه قال: « **لو أن الذي عمل عـمـل قـوم لوط اغتـسـل بكـل قطرةمن الأرض وبكـل قطرة من السمـاء لم يزل نجسًا** » .

(٧) وقال سعـيد بن المسيب- رحمـه الله - : « إذا رأيتم الرجل يلح في النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه » .

(٨) (ويروى) أنه إذا ركب الذكرُ الذكر اهتز عـرش الرحمن خوفًا من غضب الله تعالى ، وتكاد السموات أن تقع على الأرض فتمسك الملائكة بأطرافها وتقرأ: ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ إلى آخرها حتى يسكن غضب الله عز وجل .

هذا ، ولقد أباح عبـد الله بن المبارك - رحمه الله تعـالى - للغلام إذا أُريدت منه الفاحشة فلا يخلصه إلا القتل أن يَقتل من يراوده .

وهذا هو الذي تقتضـيه السُّنَّة لأنه إذا جاز له المقاتلة دون درهـم من ماله وقتل من كابده عليه فقتله فَمَن كابده على نفسه أولى وإن أفضى إلى قتله .

قال بعض السلف : إذا سـقط العبد من عين الله تعالى ابتـلاه بمحبة المردان ، وهذه المحبة التي جلبت على قوم لوط - عليه السلام - ما جلبت ، ولا أوتوا إلا من هذا العشق .

قال تعالى : ﴿ **إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الحجر :٧٢] .

أخي القارىء :

وهكذا تطوى صفـحة سوداء في حيـاة أُمَّة مردت على النجـاسة . . وأطلقت لنفسها العنان . . فشردت عن سبـيل الرحمن . . فأوردت نفسها دار الهوان . . . وجعلها الله تعالى عظة لبني الإنسان .

قال ابن كثير :

« وجعل اللـه مكان تلك البلاد بحـيرة منتنة لا ينتـفع بمائها ولا بما حـولها من

الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة ، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمـته وعزَّته في انتقامه ممَّن خـالف أمره وكذَّب رسله ، واتَّبع هواه وعصى مولاه » .

* * *

قصة شُعيب عليه السلام

سكن قوم شُعيب بأرض « **مدين** » بالشام قرب قرى لوط .

وكانوا يعبدون « **الأيكة** »[١] من دون الله . قال تعالى : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ .

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد ، وهو الولي الحميد .

وشعيب عليه السلام هو : شعيب بن ميكيل بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق ... وقيل غير ذلك . والله أعلم .

وتقدم حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي رواه ابن حبان في « صحيحه » .

أن النبي ﷺ قال : « **أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر** » .

وكان بعض السلف يسمى شعيبًا « **خطيب الأنبياء** » . يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته .

وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله إذا ذكر شعيبًا قال : « **ذاك خطيب الأنبياء** » .

---

(١) الأيكة : هي شجرة من « الأيك » حولها غيصة ملتفة بها ، وهي شجرة كبيرة ملتفة الأغصان ، كثيرة الفروع .

الدعوة إلى الله تعالى :

دعا سيدنا شعيب قومه إلى التوحيد ، وترك ما يفعلونه من المنكرات ، وسجل القرآن الحوار الذي دار بينه وبين قومه :

ففي سورة « الأعراف » قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٩٠] .

نهاهم عن القعود بالطرق والصد عن الطريق الذي يؤدي إلى طاعة الله ، وكانوا يتوعدون العذاب من آمن .

قال ابن عباس وغيره : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ وهذا ظاهر الآية .

وقال أبو هريرة : هذا نهي عن قطع الطريق ، وأخذ السلب وكان ذلك من فعلهم .

وفي سورة « هود » دار هذا الحوار بين شعيب - عليه السلام - وبين قومه قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٨٤ - ٩٣] .

قوله : ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ أي : بثروة وسعة في الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها .

وقوله : ﴿ **بقيت الله خيرلكم** ﴾ أى : ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خير وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض .

وفي سورة « الشعراء » دار هذا الحوار : قال تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٨٨] .

العذاب :

وظل سيدنا شعيب عليه السلام - يدعوهم إلى توحيد الله ، وينهاهم عن مخالفته ، ويذكرهم بنعمة الله وآلائه ، ويحذرهم من شدة بأسه وقوة سطوته ، وهم ينأون عنه وينهون عنه ، ويسخرون منه ، واستعجلوا العذاب !! قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠].

وفي مقام آخر : ﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٦ -١٨٧].

وقبل هذا قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء :١٣٦ - ١٣٧] .

فماذا حدث ؟

حبس الله تعالى عنهم الهواء سبعة أيام فهربوا من بيوتهم وخرجوا إلى إلههم[1] «الأيكة » فاستظلوا بظلها وطلبوا منها النصرة ورفع العذاب !! فأرسل الله عليهم سحابة أظلتهم ، فظنوا أن فيها خيرًا ، ودنت منهم فظنوا بأن الخير قريب ، فإذا بصيحة من السماء ، ورجفة من الأرض ، وأمطرت السحابة عليهم نارًا وشررًا

كما قال تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ١٨٩] .

وفي سورة « الأعراف » : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [الأعراف :٩١] .

وفي سورة « هود » : ﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [هود :٩٤] .

وفي سورة « الحجر » : ﴿ **وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ** (٧٨) **فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر : ٧٩-٨٠] .

قوله تعالى : ﴿ **جَاثِمِينَ** ﴾ أي ماتوا من الفزع والحرق وهم جلوس على ركبهم.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى :

« وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات ، وصنوفًا من المثلات ، وأشكالاً من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات » .

أقول : وفي هذا إنذار لكل غشاش باع ضميره بعد أن باع دينه ، وسوف نذكر في نهاية قصة هؤلاء كيف يفعل الغش بأهله .. لعلنا نعود إلى رحاب الله .. ونوقن بأن الله تعالى لكل منحرف بالمرصاد .

ثم ماذا ؟

وبعد أن أهلك الله تعالى القوم ... يصور القرآن العظيم هذا المشهد الأليم : ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود :٩٥] .

وقوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يعيشوا فيها قبل ذلك .

وبعد أن أصابهم ما أصابهم .. مَرَّ عليهم سيدنا شعيب عليه السلام ، فلما رأى حالهم وما أحَل بهم ... خمدت الحركات .. وسكنت الأصوات : قال : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف :٩٣] .

أي أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به .

التحذير من الغش والترغيب في القناعة والرضا :

(١) قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ يعني : الذين ينقصون الناس ويبخسون حقوقهم في الكيل والميزان[1] .

﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ يعني : يستوفون حقوقهم منها .

﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي : ينقصون في الكيل والوزن .

﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ قال الزجاج : المعنى لو ظنوا أنهم مبعوثون ما نقصوا في الكيل والميزان .

﴿ ليوم عظيم ﴾ أي : يوم القيامة .

﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي : من قبورهم للحساب .

(٢) وعن نافع - أي مولى ابن عمر - قال : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول : اتق الله وأوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون حتى إن العرق ليُلجمهم إلى أنصاف آذانهم ، وكذا التاجر إذا شدَّ يده في الذراع وقت البيع وأرخى وقت

---

(١) وفي الحديث : « ويل : واد في جهنم، يهوي الكافر فيه أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره » رواه أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبي .

الشراء.

(٣) وكان بعض السلف يقول :

ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السموات والأرض ،وويح لمن يشتري الويل بحبة يأخذها زائدة .

قلت : وشدد بعضهم في هذا الأمر ، فلقد حكى ابن عبد السلام أن غصب الحبة وسرقتها كبيرة بالإجماع .. ولا تنظر إلى صغر الحبة وقلة وزنها وتفاهة سعرها ، ولكن انظر إلى القلب الفاسد الذي حرك صاحبه لسرقتها .

قال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عَصَيت،وفي الحديث : « **من غشنا فليس منا** » .

(٤) عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ: « **أفلح من هُدِى للإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع به** » رواه الطبراني وصححه الألباني .

هذا ، وسف الرماد خير من أكل الحرام .. بل إن أكل الحلال أفضل من صيام وصلاة التطوع .

قال إبراهيم بن أدهم : « أطب مطعمك ولا حَرَج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار » .

ونظر الفضيل بن عياض إلى ابنه وهو يغسل بضاعة قبل وزنها حتى لا يزيد وزنها على المشتري ۔ فقال له : [فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة]. وذلك لأن الدين المعاملة .

(٥) عن مالك بن دينار قال : دخلت على جارٍ لي وقد نزل به الموت ، وهو يقول : جبلين من نارٍ جبلين من نار . قلتُ : ما تقول ؟ قال : يا أبا يحيى كان لي مكيالان ، كنتُ أكِيل بأحدهما وأكتال بالآخر . قال مالك بن دينار : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، فقال :يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما

بالآخر ازداد الأمر عظمًا وشدةً ، فمات في مرضه » .

(٦) وقال بعض السلف : « أشهد على كل كيال أو وزَّان بالنار ، لأنه لا يكاد يسلم إلا من عصم الله » .

(٧) وقال بعضهم : دخلت على مريض وقد نزل به الموت فجعلت ألقنه الشهادة ، ولسانه لا ينطق بها !! فلما أفاق قلت له : يا أخي ما لي ألقنك الشهادة ولسانك لا ينطق بها ؟

قال : يا أخي : « لسان الميزان على لساني يمنعني من النطق بها » فقلت له : بالله أكنت تزن ناقصًا ؟ قال : لا والله ، ولكن ما كنت أقف مُدَّة لأختبر ميزاني ، فهذا حال من لا يعتبر صحة ميزانه ، فكيف حال من يزن ناقصًا ؟!!

* * *

قصة يوسف عليه السلام

« بين يدي القصة » :

نزلت سورة يوسف بعد سورة هود ، في تلك الفترة الحرجة بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سندي رسول الله ﷺ وبين العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجًا ومخرجًا بالهجرة إلى المدينة . . وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول ﷺ - والعصبة المسلمة معه في مكة .

والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحًا في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها .

بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . . ففي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعاني معه الجماعة المسلمة الشدة ، كان الله - سبحانه وتعالى - يقصّ على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعاني صنوفًا من المحن والابتلاءات :

محنة كيد الإخوة .

ومحنة الجب والترويع فيه .

ومحنة الرق وهو يتنقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية من أبويه ولا من أهله .

ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! .

ومحنة السجن بعد رغد العيش في قصر العزيز .

ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق بين يديه ، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم ، وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم !

ومحنة المشاعر البشرية ، وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب ، وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن ، والابتلاءات كلها . . .

هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج منها كلها متجردًا خالصًا ؛ آخر توجهاته ، وآخر اهتماماته ، في لحظة الانتصار على المحن جميعًا ، وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها : ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** ﴾ آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه ، منخلعًا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم :

﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف :٩٩ - ١٠١] .

وهكذا كان طلبته الأخيرة . . . بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولمة الشمل . . . أن يتوفاه ربه مسلمًا ، وأن يلحقه بالصالحين . . . وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير . . .

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن

التعقيبات عليها بعد ذلك ، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة معه في مكة ، في هذه الفترة بالذات ، تسلية وتسرية ، وتطمينًا كذلك وتثبيتًا للمطاردين المغتربين الموحشين .

لا بل إن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراهًا تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٢١] .

وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقًا خاصًا - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! ذلك التعقيب الذي أعقب القصة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف :١٠٩ - ١١١].

إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل - كما استيأس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! .. الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة ، وهي في مثل هذه الفترة تعيش ، وفي جوها تتنفس ، فتتذوق وتستشرف وتلمح . من بعيد ...

والسورة ذات طابع متفرد في احتوائها عن قصة يوسف كاملة . فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة

حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرًا مجملاً .أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة ، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعًا هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ؛ ويؤديها أداء كاملاً . . وذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف - عليه السلام - وتنتهي بتأويلها بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى .

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه ، فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة ، والتعقيبات التي تلتها .

ولا عجب كذلك أن تكون هذه القصة من أحسن القصص كما قال تعالى ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ** ﴾ [يوسف :٣].

من فضائل يوسف عليه السلام :

(١) عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قيل : يا رسول الله ! من أكرم الناس ؟ قال : « **أتقاهم** » ، فقالوا ليس عن هذا نسألك . قال : « **فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله** » متفق عليه .

(٢) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **الكريم ابن الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام** » رواه البخاري .

حُبُّ الصحابة للقصص :

عن مصعب بن سعد - أي ابن أبي وقاص - عن أبيه قال : أُنزل القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، فتلا عليهم زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله : ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴿١﴾ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف :١ - ٣] .

فتلاها عليهم رسول الله زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ [الزمر : ٢٣] الآية . كل ذلك يؤمرون بالقرآن » . قال خلاد : وزاد فيه حين قالوا : يا رسول الله ذكرنا فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد :١٦][1] .

أحسن القصص :

قال تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف :٣].

قوله : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ قال الإمام أبي جعفر النحاس : أي عن الغافلين عن قصة يوسف عليه السلام ، لأنه لم يقرأ كتابًا قبل ذلك ، وإنما علمها بالوحي .

رؤيا يوسف عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف :٤] .

قال قتادة : الأحد عشر كوكبًا : إخوته ، والشمس والقمر ، أبوه وأمه .

وقدمنا أن يعقوب - عليه السلام - كان له من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا وسميانهم وإليهم تُنسب أسباط بني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩ . ٦٢) وقال الأرنؤوط : إسناده قوي .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبيٌّ غيره وباقي إخوته لم يوح إليهم .

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول ومن استدل على نبوتهم بقوله : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ [آل عمران ٨٤] .

وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى ؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء .. والله أعلم.

قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا .

وقوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ ... ﴾ فكأنه رآها أولاً ، ثم رآها ثانية وهي تسجد له ذلك لأنك إذا قلت : هذا الشيء سجد لي ، فلا بد أن ترى هذا الشيء قبل أن يسجد ثم تراه ساجدًا ، لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين فقد يكون هذا وصفهم ، وليس هناك سجود ولكنه لابد أنه رآهم بدون سجود ثم رآهم يسجدون .

قال النيسابوري : وأعاد « رأيتهم » لأنها رؤية سجودهم له ، والأولى رؤيته إياهم.

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف :٥] .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكبًا « وهم إشارة إلى بقية إخوته .. ، والشمس والقمر « وهي عبارة عن أبويه » قد سجدوا له ، فهاله ذلك . فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية رفيعة عظيمة في الدنيا والأخرة بحيث يخضع له أبوه وإخوته

فيها . فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته ، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر .

وفي الآية دليل على أن مباحًا أن يُحَذِّر المسلم أخاه المسلم فمن يخافه عليه ، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة ، لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا .

وفيها أيضًا : ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدًا وكيدًا . . قال النبي ﷺ : « **استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمات فإن كل ذي نعمة محسود** »[1] .

وفيها أيضًا : دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ، ولم يبال بذلك من نفسه ، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرًا منه ، والأخ لا يودّ ذلك لأخيه غالبًا .

ومنها أيضًا : أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن تأويلها .

روى أبو رزين العقيلي أن النبي ﷺ قال : « **الرؤيا جزء من أربعين جزءًا من النبوة** » و « **الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يُحدِّث بها صاحبها فإذا حَدَّث بها وقعت فلا تحدِّثوا بها إلا عاقلاً أو مُحبًا أو ناصحًا** » صحيح سنن الترمذي (١٨٥٨) .

ثم قال يعقوب عليه السلام :

﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٦] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٨٣) ، بلفظ : « استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان » عن معاذ ابن جبل . وذكره الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣) .

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده أنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك » ، ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ أي : يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث .

قال مجاهد : يعني الرؤيا ؛﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك. ولهذا قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

قال النحاس : وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي أتاه الله تعالى ؛ من التمكين في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث[1] .

يوسف عليه السلام وكيد إخوته :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف :٧ - ٩].

ينبه الله تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات .

وكان أولاد يعقوب كما قدمنا اثنا عشر رجلاً .

فمن زوجته « ليا » روبيل ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وإيساخر ، وزابلون.

ومن زوجته « راحيل » يوسف وبنيامين » . ومن أمة راحيل دان، ونفتالي.

---

(١) تأويل الأحاديث : أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة.

(٢) ليس هناك مصدر إسلامي بأسماء أولاد يعقوب عليه السلام ، إنما اتفق الجميع على عددهم ، واختلفوا في ذكر أسماءهم .

ومن أمة « ليا » جاد ، وأشير[١] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف :٨] .

العصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين .

« وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين ، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة ، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به ، حيث آثر اثنين على عشرة ، مع أن العشرة أكثر نفعًا له ، وأقدر على القيام بشؤونه ، وتدبير أموره[١] .

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين :

أحدهما : الضلال في الدين ، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم وسلامه . وهذا أشهر معانيه في القرآن .

ومنه بهذا المعنى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس :٦٢] .

الثاني : إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ [السجدة : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف :٥٣] .

ثم يغلى الحقد في قلوبهم ، ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم في حسِّهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام ، تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح . روح غلام بريء لا يملك دفعًا عن نفسه ، وهو لهم أخ. وهم أبناء نبيّ . . وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب ، حتى توازى القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله .

---

(١) قيل للحسن : ايحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب ؟ .

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف :٩] .

فأضمروا التوبة قبل الذنب ، هكذا ينزغ الشيطان . . اقتلوا . . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التي تعد سلفًا قبل إرتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة ، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان !!

وقوله : ﴿ أو اطرحوه أرضا ﴾ أي : إمّا بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضى تستريحوا منه .

وتبدأ في حياة يوسف عليه السلام رحلةُ الإبتلاء بالمحن ، كلما انتهت رحلة بدأت الأخرى .

المحنة الأولى : يوسف عليه السلام في الجُبّ ! :

قال تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠ - ١٥] .

وكاد إجماع الإخوة ينعقد على قتل يوسف أو طرحه في مكان بعيد !!

ولكن ضميرًا واحدًا فيهم ، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه ، فيقترح حلاً يريحهم من يوسف ، ويخلي لهم وجه أبيهم ، ولكنه لا يقتل يوسف ، ولا يلقيه

في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك ، إنما يلقيه في « **الجب** » على طريق القوافل، حيث يرجّح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيدًا :

﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠] .

قال ابن كثير : « غيابة الجب هو أسفله » .

وقال قتادة : « وهو بئر ببيت المقدس » .

ونحس من قوله : « **إن كنتم فاعلين** » روح التشكيك والتثبيط . . وهو أسلوب واضح في عدم الارتياح للتنفيذ .

وبعد الإجماع علي هذا الرأى . . توجهوا إلى أبيهم و: ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ [يوسف :١١] .

وما داموا قالوا : لا تأمنا على يوسف ، فكأن هناك محاولات سابقة منهم أن يأخذوا يوسف ولكن أباهم رفض ﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [يوسف : ١٢] .

قال ابن عباس : يسعى وينشط . ﴿ **إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك ، والمراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليه السلام قولهم .

وردًا على العتاب الاستنكاري ﴿ **مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ جعل يعقوب عليه السلام ينفي - بطريق غير مباشر - أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب :

﴿ **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ [**يوسف** :١٣] أي مشتغلون بالرَّعى .

﴿ **قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾ [يوسف :١٤]

أي: لها لكون عاجزون .

واستسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج .. ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته سبحانه .

والآن لقد ذهبوا به ، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه وتعالى يلقى في روع الغلام أنها محنة وتنتهي ، وأنه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف :١٥] .

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿أَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له ، وبسطًا وشرحًا لصدره .

فيقال : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمّه إليه وقبّله ودعا له .

قال السُّدِّي : إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ؛ ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ؛ فكان إذا الجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ؛ وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا الحبل من نصف المسافة ، فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه .. فقام فوقها .

دعاء يوسف عليه السلام وهو في البئر :

قال وهب[1] : « فلما قام - يوسف عليه السلام - على الصخرة قال : يا

---

(١) هو : وهب بن منبه الصنعاني اليمنى ، وهو من خيار التابعين ، وثقه الجمهور ، وخالف الفلاس ، فقال : كان ضعيفًا ، وكان يحدث كثيرًا عن أهل الكتاب ، وما ذكرناه عنهم .

إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيَّتي ، قالوا : وما هي ؟

قال إذا اجتمعتم كلّكم فآنس بعضكم بعضًا فاذكروا وحشتي ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي ، وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا رأيتم غريبًا فاذكروا غربتي ، وإذا رأيتم شابًا فاذكروا شبابي ، فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشتغل بالدعاء . فإن الدعاء عند الله بمكان ؛ ثم علّمه فقال : قل : « **اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويا صاحب كل وحيد ، ويا ملجأ كل خائف ، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل شكوى ، ويا حاضر كل ملإٍ ، يا حيّ يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لى همّ ، ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا ، إنك على كل شيء قدير** » فقالت الملائكة: إلهنا ! نسمع صوتًا ودعاءً ، الصوت صوت صبىٍّ ، والدعاء دعاء نبىٍّ.

وأوحى الله عز وجل إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ .

قال ابن عباس : ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك ، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو في الجبّ علي حجر مرتفع عن الماء .

وقال الكَلبىّ : ألقى في الجب وهو ابن ثمانى عشر سنة ؛ فما كان صغيراً ، ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه .

قلت : وسياق الآيات يدل على أنه كان صغيراً عن هذا العمر المذكور .

كذب مفضوح :

وندع يوسف في محنته ففي غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه ويطمئنه ، حتى يأذن الله بالفرج ، ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف :١٦ -١٨] .

لقد ألهاهم الحقد الغائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابًا ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها ، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاءؤا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب . . .

فعلوا هذا . . .

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٦ - ١٧] [1] .

ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذوني ، فيقولون : **﴿وَمَا**

---

(١) قال القرطبي : قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل علي صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعًا » .

أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

أي وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولـو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

وأدرك يعقـوب عليه السلام من دلائل الحـال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مـكيدة مـا ، وأنهم يلفقـون له قصـة لم تقع ، ويصفون حـالاً لم تكن فواجههم بأن نفـوسهم قد حسنت لهم أمـرًا منكرًا وذللته ويسرت لهم ارتكابـه ؛ وأنه سيصبـر متحـملاً ومتـجملاً لا يجـزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينًا بالله على مـا يلفقونه من حيل وأكاذيب : ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف :١٨] .

قال الإمام القرطبي – رحمه الله تعالى – :

« قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضـها ، وهي سلامة القميص من التَّنييب ؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليـوسف وهو لابس القميص ويسلم القمـيص من التخريق ، ولمّا تأمل يعقوب عـليه السلام القميص فلم يجـد فيه خرقًـا ولا أثرًا استدل بذلك على كـذبهم وقال لهم : مـتى كـان هذا الذئب حكيـمًا يأكل يوسف ولا يخـرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره .

﴿ **فصبر جميل** ﴾ والصبر الجميل : هو الذي لا شكوى معه .

هل كان إخوة يوسف أنبياء ؟

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى– :

« واعلم أنه لم يقم دليل علـي نبوة إخـوة يوسف ، وظاهر هذا السيـاق – أي سيـاق الآيات – يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهـم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحـتاج مدّعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكـروا سوى

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب » . اهـ .

ووقع في كتاب « الطبري » لابن زيد ، أنهم كانوا أنبياء ، وهذا يرده القطع بعظمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي ، وعن عقوق الآباء ، وتعريض مؤمن للهلاك ، أو التآمر على قتله ، ولا التفات لقول من قال : إنهم كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلة نبي ؛ إلا أن هذه الزّلة قد جمعت أنواعًا من الكبائر ، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها ، وإنما اختلفوا في الصغائر » .

ثم لنعد سريعًا إلى يوسف في الجب لنواصل مع المشوار : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ١٩ ، ٢٠] .

لقد كان الجب على طريق القوافل ، التي تبحث عن الماء في مظانه ، في الآبار، وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه المطر ويبقى فترة ، ويكون في بعض الأحيان جافًا كذلك :

﴿ **وجاءت سيارة** ﴾ أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة . .

﴿ **فأرسلوا واردهم** ﴾ أي من يرد لهم الماء ويكون خبيرًا بمواقعه .

﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ لينظر الماء أو ليملأ الدلو - ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظًا بالمفاجأة القصصية للقارىء والسامع - : ﴿ **قال يا بشرى هذا غلام** ﴾ .

ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة ، ليتحدث عن مصيره مع القافلة : ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾ .

أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقًا ، ولما لم يكن رقيقًا فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل .. ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه ..

وكانت هذه « **نهاية المحنة الأولى** » في حياة النبي الكريم .

يوسف عليه السلام في بيت العزيز :

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذي اشْتَرَاهُ من مّصْرَ لامْرَأَته أَكْرِمي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا وَكَذَلكَ مَكَّنَّا ليُوسُفَ في الأَرْضِ وَلنُعَلّمَهُ من تَأْوِيلِ الأَحَاديث وَاللَّهُ غَالبٌ عَلَىٰ أَمْرِه وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعلْمًا وَكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنِينَ** ﴾ [يوسف :٢١ -٢٢] .

قال كعب الأحبار[1] : « كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر » ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية » . وقال ﷺ في حديث الإسراء : « **فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أُعطِيَ شطر الحسن** » رواه مسلم .

ويخبرنا الله تعالى بألطافه بيوسف عليه لسلام أنه قيض له - عزيز مصر - الذي اشتراه فأعتنى به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿ **أَكْرِمي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا** ﴾ [يوسف :٢١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال

---

(١) هو : كعب بن ماتع الحميري ، وكان إسلامه في خلافة سيدنا عمر ، وتحول إلى الشام في عهد سيدنا عثمان ، ومات بحمص ، ذكروه لأبي الدرداء فقال : إن عند ابن الحميرية لعلمًا كثيرًا ، وقال فيه الحافظ ابن حجر في الفتح ، (١٣/ ٢٨٥) كان من أخيار الأحبار .

لامرأته : « أكرمي مثواه » والمرأة التي قالت لأبيها « يا أبت استأجره » الآية ؛ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

وها هو يوسف أراد له إخوته أمرًا ، وأراد له الله أمرًا ، ولما كان الله غالبًا على أمره ومسيطرًا فقد نفد أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويمضي السياق ليقرر أن ما شاء الله ليوسف ، وقال عنه :

﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ قد تحقق حين بلغ أشده .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

فقد أوتي صحة الحكم على الأمور ، وأوتي علمًا بمصائر الأحاديث ، أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم . . . فاللفظ عام ويشمل الكثير ، وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

المحنة الثانية : « الحب المجنون » .

وتجيء المحنة الثانية في حياته ، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى ، تجيئه وقد أوتي صحة الحكم وأوتي العلم - رحمة من الله - ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه .

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴿٢٣﴾ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴿٢٤﴾ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴿٢٥﴾ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴿٢٦﴾ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴿٢٧﴾ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴿٢٨﴾ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [يوسف :٢٣ - ٢٩] .

إن السياق لم يذكر كم كانت سنها وكم كانت سنه ، فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير .

لقد كان يوسف غلامًا عند التقطته السيارة وباعته في مصر ، أي إنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يُسمَّى فتى فشابًا فرجلاً .. وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب عليه السلام : ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب** ﴾ .. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولادًا كما يبدو من قوله : ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ ... فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة ... وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين .

ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها .

نبحث هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول : إن التجربة التي مر بها يوسف عليه السلام - أو المحنة - لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق . إنما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو

هذا القصر ، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام هذه الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] . وكفى . . . !

والتي تصرِّح المرأة · فيها - بقولها : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف :٣٢] .

فهذه البيئة التي تسمح بهذا . . . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة . . هي المحنة الطويلة التي مرَّ بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة ، ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة ، والصمود لها هذا الأمد الطويل .

والآن نواجه النصوص :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ هذه الدعوة السافرة الجاهرة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما كانت هي الدعوة الأخيرة وقد لا تكون أبدًا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارًا . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج . فلا بد من إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

وقوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ : أي تهيأت لك . وقال القرطبي : أي هَلُمَّ ، وأقبِل وتعال .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه .

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف :٢٣] .

﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعني زوجها ، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وغيره .

وقال الزجاج : أي إن الله ربي تولاّني بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه .

﴿ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ الذين يتجاوزن حدود الله ، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ [يوسف :٢٤] . جمهور المفسرين على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك .

فالهم همان : هم إصرار وعزيمة ، وهمّ خطرات ، فكان نصيبه الخطرات ، وكان نصيبها الإصرار .

قال الإمام أحمد بن حنبل : « الهم همان : هم خطرات ، وهم إصرار ، وهم الخطرات لا يؤاخذ الله به ، وهم الإصرار يؤاخذ به » .

والأدلة على ذلك متواترة في الكتاب والسنة نذكر منها : أن النبي ﷺ قال : « **إن الله كتاب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة** » . ورجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رأي جمهور المفسرين .

رأي الشيخ محمد أبو شهبة - رحمه الله تعالى - :

قال رحمه الله تحت عنوان « التفسير الصحيح لقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ : الكلام من قبيل التقديم والتأخير.

والتقدير : ولولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها ، فقوله تعالى : ﴿ **وَهَمَّ بِهَا** ﴾ جواب لولا مقدم عليها ومعروف في العربية : أن لولا حرف امتناع لوجود ، أي

امتناع الجواب لوجود الشرط ، فيكون الهم ممتنعًا لوجود البرهان الذي ركّزه الله في فطرته ، والمقدم إما الجواب ، أو دليله على الخلاف في هذا بين النحويين .

والمراد بالبرهان : هو حجة الله الباهرة الدالة على قبح الزنا وهي شيء مركوز في فطر الأنبياء . . وهو ما نعبر عنه بالعصمة . ويرحم الله الإمام : جعفر بن محمد الصادق حيث قال : البرهان : النبوة التي أودعها الله في صدره ، حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل .وهذا هو القول الجزل الذي يوافق ما دل عليه العقل من عصمة الأنبياء ، ويدعو إليه السابق واللاحق . . » اهـ .

وقيل : هم بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفّه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها .

افتراءات :

من الإسرائيليات المكذوبة التي لا توافق عقلاً ولا نقلاً في تفسير قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ .

(١) ما يُروى - كذبًا - عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن هَمِّ يوسف عليه السلام ما بلغ ؟ قال : حل الهميان - يعني السراويل - وجلس منها مجلس الخائن ، فصح به : يا يوسف : لا تكن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش !!!

(٢) ما يُروى في البرهان الذي رآه ، ولولاه لوقع في الفاحشة بأنه نودى : أنت مكتوب في الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء !!!

(٣) وما يُروى أنه رأى صورة أبيه يعقوب في الحائط ،وقيل : في سقف الحجرة وأنه رآه عاضًا على إبهامه ، وإنه لم يتعظ بالنداء ، حتى رأى أباه على هذه الحال ، بل أسرف واضعوا هذه الإسرائيليات الباطلة، فزعموا : أنه لما لم يرعوا من رؤية صورة أبيه عاضًا على أصابعه ، ضربه أبوه يعقوب ، فخرجت شهوته من أنامله !!!

(٤) ما رُوى عن ابن عباس : أنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله :

قوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا علكيم شهودا إذا تفيضون فيه** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾ .

وقيل : رأى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ .

ومن البديهى أن هذه الآيات بهذا اللفظ العربي لم تنزل على أحد قبل نبينا محمد ﷺ.

(٥) قيل في « البرهان » إنه رأى تمثال الملك ، وهو العزيز ، وقيل خياله إلى آخر هذا الهذيان والغثيان .

وكيف يتفق ما حيك حول نبي الله يوسف - عليه السلام - وقول الحق : ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤].

فهل يستحق هذا الثناء من حلّ التلة ، وخلع السروال ، وجلس بين رجليها ؟! ولا أدري أنصدق الله تبارك وتعالى ، أم نصدق المخرفين ؟!

براءة يوسف عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٥ - ٢٩].

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ فهو آثر التخلص بعد أن استفاق[(١)] . وهي عَدَت خلفه لتمسك به ، وهي ما تزال في هياجها الحيواني ، فأدركته قبل أن يخرج .

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي من خلفه ؛ نتيجة جذبها له لترده عن الباب.

وتقع المفاجأة :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ : أي وجدا العزيز عند الباب ، وعُنِيَ بالسيد الزوج .. وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضرًا على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنىً .

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يحبس أو يضرب ضربًا شديدًا .

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل :﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾

وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦ - ٢٧].

وقد اختلف في هذا الشاهد فقيل : إنه طفل في المهد تكلم ؛ قال السهيلي : وهو الصحيح لحديث : « **تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم** »[(٢)] .

وقيل: إنه رجل ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره .. وقال السُّدِّي : كان ابن عمها . قال القرطبي : وهو الصحيح في الباب ، والله أعلم .

---

(١) ورأى برهان ربه .

(٢) أخرجه الحاكم في « التفسير » (٣٨٣٥) تفسير سورة التحريم ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال في « التلخيص » : صحيح . قلت : وضعفه ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٥٣) .

والمهم أنه كان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبدار والجلَبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يُدرى أيكما كان قُدَّام صاحبه ؛ فإن كان شقّ القميص من قدَّامه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف .

وقال الإمام النحاس : والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلاً عاقلاً حكيمًا شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة ، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف تغني عن أن يأتي بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ، وليس هذا بمخالف للحديث : « **تكلم أربعة وهم صغار** » منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صغيرًا ليس بشيخ .

﴿ **فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف :٢٨] .

هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ، والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كُلِّه ، فيما يشبه الثناء . . وهنا تبدو لنا صورة من الطبقة « الراقية » في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هي اليوم شاخصة . رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله . . وها هو « العزيز » يظهر بصورة باردة الدم ، مائعة القيم ! ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف :٢٩] .

قال الإمام القرطبي : « قيل : إن القائل ليوسف أعرض عن هذا ولها استغفري لذنبك زوجها الملك ؛ وفيه قولان :

أحدهما : أنه لم يكن غيورًا ؛ فلذلك كان ساكنًا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود .

الثاني : أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا

عنها .

إشاعة الخبر :

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٠ -٣٢] .

لم يَحُلْ « السيد » بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور في طريقها .. ولكن للقصور جدرانًا ،وفيها خدم وحشم .. وما يجرى لا يمكن أن يظل مستورًا . فليس للنساء من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات :

﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يوسف : ٣٠].

هذه السيدة الكبيرة ، تفتتن بفتاها العبراني المشترى ﴿ **قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ أي قد وصل حُبُّه إلى شغاف قلبها وهو غلافه .

قال ابن عباس : الشغف : الحب القاتل ، والشغف دون ذلك ، والشغاف حجاب القلب : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ . ﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً** ﴾ .

أقامت زوجة العزيز لهن مأدبة في قصرها .. ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . وآتت كل واحدة منهن سكينًا تستعملها في الطعام - ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأوًا بعيدًا .. فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه

الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية، وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف . ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ بهتن لطلعته ، ودهشن ، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه .

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة قال مجاهد : حزًّا بالسكين .

قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعًا تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحز، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده .

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيرًا عن الدهشة بصنع الله .

﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال الإمام القشيري : ذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو في صورة مَلَك .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يُحبَ لجماله وكماله .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي فامتنع ، ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن في تبجح .

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف :٣٢] فهو الإصرار والتبجح ، والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد .

اللجوء إلى الله

ويسمع يوسف عليه السلام هذا القول . . . فيناجى ربّه :

﴿ قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه ﴾ أي من الفاحشة .

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرًا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك ، أنت المستعان وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي .

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذي لا يغتر بعصمته .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ وهكذا اجتاز يوسف عليه السلام محنته الثانية بلطف الله ورعايته .

المحنة الثالثة : يوسف عليه السلام في السجن !! :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

يقول الله تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين[1] ، أي إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات ، وهي الدالة على صدقه في عفته ونزاهته ، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لَمَّا طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك . خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . ثم قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ

---

(١) أي : إلى مدة غير معلومة ، وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة .

مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٦ - ٣٨] .

يختصر سياق الآيات ما كان من أمر يوسف في السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ، وجعله موضع ثقة المساجين ، ودخل معه السجن فتيان . **قال قتادة** : كان أحدهما ساقي الملك ، والآخر خبازه .

قال السُّدِّي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سُمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة . صلوات الله عليه وسلامه . ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًا شديدًا وقالا له : والله لقد أحببناك حبًا زائدًا . قال : بارك الله فيكما ، إنه ما أحبني أحد ، إلا دخل عليّ من محبته ضرر . . فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك ، ثم أنهما رأيا منامًا فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا يعني عنبًا ، وقل الآخر وهو الخباز : ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ الآية .

التوحيد أولاً :

وينتهز يوسف عليه السلام هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجينًا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة .

ويبدأ يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن من موضعهما الذي يشغل بالهما، فيطمئنهما ابتداءًا إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علمًا خاصًا، جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء هو وآباؤه من قبله . . وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه :

﴿ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا** ﴾ .

فقالا له : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف عليه السلام . وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملَّة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك .

ومعنى الكلام عندي : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف :٣٩ - ٤٠] .

مدخل لطيف .. وخطوة خطوة في حذر ولين .. ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحا كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما .

﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً .. إن الفطرة تعرف لها إلهًا واحدًا ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم .. إن الذي يستحق أن يكون ربًا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار .

﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً** ﴾ بين عجز الأصنام وضعفها . فقال : ﴿ **ما تعبدون من دونه** ﴾ أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها .

﴿ **سَمَّيْتُمُوهَا** ﴾ من تلقاء أنفكسم .

﴿ **أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ أي من حُجّة .

﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ الذي هو خالق الكل .

﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٤٠] . لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات كل معالم هذا الدين .

تأويل الرؤيا :

وبعد هذا الدرس البليغ . . يبدأ يوسف عليه السلام في تأويل الرؤيا : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف :٤١] .

قوله تعالى : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي قال للساقي : إنك تُرَدّ على عملك الذي كنت عليه من سقى الملك ، وقال للآخر : وأما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئًا[1] قال : رأيت أو لم ترَ ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

وانتهى فهو كائن كما قضاه الله .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ . [يوسف :٤٢] .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج قال له : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك ، فنسى ذلك الموصي أن يذكّر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي . فلبث في السجن بضع سنين .

رؤيا الملك :

قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ

---

(١) أخرجه الحاكم في « التفسير » (٣٣٢٤) .

وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف :٤٣] .

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن ، معززًا مكرمًا . . فلقد رأى الملك الأكبر « الريان بن الوليد » في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان ، في أثرهن سبع عجاف - أي مهازيل - وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن فأكلنهن ، إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات ، فأكلنهن حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات ، وكذلك البقر كنّ عجافًا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السِّمان ، فهالته الرؤيا ، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم ، وأشراف قومه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ ﴾ فقصّ عليهم . فقال القوم : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ .

قال ابن جريج قال لي عطاء : إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا، وقال الهروي : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ أي أخلاط أحلام .

عند ذلك تذكر الذي نجا وهو الساقي . . وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمة ، أي مُدَّة فقال للملك والذين جمعهم لذلك : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي بتأويل هذا المنام ، ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٤٦].

ذكر الساقي في المنام الذي رآه الملك ليوسف عليه السلام . . فذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصّاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال :

﴿ تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ﴿٤٧﴾ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴿٤٨﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ [٤٧ -٤٩] .

قوله : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ أي : .. متوالية متتابعة . وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان .

﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾

أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية .

﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ فجردوه من سنابله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾

لا زرع فيهن .

﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ .

وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها !

﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾

أي : إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها !

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾

أي : ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاب المجدية ، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب ، تنقضي ويعقبها عام رخاء ، يغاث الناس فيه بالزرع والماء ، وتنموا كرومهم فيعصرونها خمرًا ، وسمسمهم وزيتونهم فيعصرونه زيتًا ..

حمل الساقي تأويل الرؤيا إلى الملك .. فلما قصّ عليه ما قاله يوسف عليه

السلام قال الملك : ﴿ **ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴿٥٠﴾ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [يوسف : ٥٠ - ٥١].

يقول الله تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعِلمه وحُسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه ، فقال : ﴿ **ائْتُونِي بِهِ** ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عِرضه مما نُسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلمًا وعدوانًا ، فقال: ﴿**ارجع إلى ربك**﴾ الآية ؛ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه .

ففي المسند و « الصحيحين » عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذا قال :﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾**[1] **الآية، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي** » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أُرسل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أفعل حتي أخرج ، وعجبت لصبره وكرمه والله يغفر له أُتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرتُ الباب ، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغى الفرج من عند غير الله عز وجل** »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **قال ما خطبكن إذا راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ إخبار عن

---

(١) تقدم معنى « نحن أحق بالشك من إبراهيم » في ترجمة إبراهيم عليه السلام » .

الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ؛ فقال مخاطبًا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعني يوم الضيافة .

﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ أي قالت النسوة جوابًا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهمًا ،والله ما علمنا عليه من سوء فعند ذلك قالت امرأة العزيز ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ تبين وظهر ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي في قوله ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ [يوسف : ٥٢ - ٥٣] . تقول المرأة ولست أبرئ نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنى .

ولهذا راودته لأن ﴿ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف :٥٣] أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وهكذا انتصر الحق ، وظهر أمر الله . . . وخرج يوسف عليه السلام من السجن ونور الإيمان يتلألأ على محيّاه . . وبين القرآن الكريم براءته من الوقوع فيما لا ينبغي بشهادة الشهود ، وإليك أخي القارىء ذلك :

أولا : شهادة المرأة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف :٣٢].

ثانيًا : شهادة النسوة : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني . وقال الألباني : صحيح . صحيح الجامع (٣٩٨٥) .

ثالثًا : شهادة الشاهد من أهلها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦] .

رابعًا : شهادة زوج المرأة (العزيز) : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف :٢٩] .

خامسًا : شهادة إبليس : ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر :٣٩ - ٤٠] .

سادسًا : شهادة يوسف عليه السلام لنفسه : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف :٢٦] .

سابعًا : وهذه أعظم شهادة ، وهي شهادة رب العالمين : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف :٢٤].

من السجن إلى المُلك !! :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف :٥٤ - ٥٥] .

يقول الله تعالى إخبارًا عن المَلك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عِرضه مما نُسب إليه ، قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي خاطبه الملك ، وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخُلق وكمال ، قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة . فقال يوسف عليه السلام : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي خازن أمين ، ﴿عَلِيمٌ﴾ذو علم وبصيرة بما يتولاه .

وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض ، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف :٥٦ - ٥٧] . « الله » !!

قال محمد بن إسحاق : لما قال يوسف للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قال الملك : قد فعلتُ ، فولاه فيما ذكروا عمل « إطفير » (أي عزيز مصر) وعزل إطفير عما كان عليه ، يقول الله عز وجل : ﴿ وكذلك مكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال : فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي » .

وقال الفضيل بن عياض : « وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مرَّ يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته ، والملوك عبيدًا بمعصيته » .

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوسًا على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة ... فآل به الصبر الجميلُ إلى المُلك

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

ولله درُّ القائل :

تَصبَّرْ إن عقبى الصبر خيرٌ ... ولا تجزع لنائبةٍ تنوب

فـإن اليـسـر بعـد العُـسـر يأتي ... وعنـد الضـيق تنفـرجُ الـكروبُ
وكم جـزعت نـفـوسٌ من أمـور ... أتى مـن دونهـا فـرجٌ قـريبُ

اللقاء الأول بين يوسف وإخوته :

قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [يوسف :٥٨ - ٦٢] .

قـال بعض المفسرين : إن السبـب الذي أقدم إخـوة يوسف بلاد مصـر ، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة ، ثم تلتها السبع السنين المجدبـة ، وعمَّ القحط بلاد مـصر بـكمالهـا ، ووصل إلى بلاد « كنعان» وهي التي فيهـا يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئـذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم ، وجمعهـا أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعـددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعـاملات ، يمتارون لأنفسـهم وعيالهم ، فكان لا يعطى الرجل أكـثر من حمل بعيـر في السنة، وكان عليه السـلام لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهمـا إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين ، وكان رحمة من الله على أهل مصر . والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك ، فـإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطـي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعـة يعتاضون بها طعامًا ، وركبوا عشـرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه « بـنيامين » شقيق يوسف عليه السـلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلـوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياستـه وسيادته ، عرفـهم حين نظر إليـهم ، وهم له منكرون أي لا يعرفـونه ، لأنهم فارقـوه وهو

صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ؛ فلهذا لم يعرفوه وأما هو فعرفهم .

قال السُّدِّى : إنه شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمُنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي؟

فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة[1] .

قال : فلعلكم عيون ؟ (أي جواسيس) ؟

قالوا : معاذ الله .

قال : فمن أين أنتم ؟

قالوا : من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبي الله .

قال : وله أولاد غيركم ؟

قالوا : نعم كنا اثنى عشر ، فذهب أصغرنا ، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ،وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه .

فأمر يوسف عليه السلام بإنزالهم وإكرامهم ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أوفى لهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم . قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ؟ يرغبهم في الرجوع إليه ؛ ثم رهبهم فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ الآية ، أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ، ولا نبقى مجهودًا لتعلم صدقنا فيما قلناه .

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ

---

(١) الميرة : الزاد .

يَرْجِعُونَ﴾ بها ، قيل : خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن الطعام . وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا ، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم .

وندع يوسف عليه السلام في مصر . لنشهد يعقوب وبنيه في أرض « كنعان »: لنسمع الحوار الذي دار بين يعقوب عليه السلام وبنيه بعد عودتهم من أرض مصر:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف :٦٣ - ٦٧].

يذكر الله تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له : ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا « بنيامين » ، فإن أرسلته معنا لم يُمنع منا .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم ، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾. قال قتادة : أي ما نبغي وراء هذا ، إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة - الزاد - إلى أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك لأن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي

إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا .

واستسلم سيدنا يعقوب على كره ؛ ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطًا : ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ، ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة - الزاد - لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . **قيل** : أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين[١] ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصورًا بديعة .

وقيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدوا خبرًا ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . والأول أظهر .

ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وتحرك الركب إلى مصر مرة ثانية ، ومعه هذه المرة « بنيامين » .

اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي من أبواب شتى .

---

(١) قال ﷺ : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر ، سبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » رواه مسلم (٢١٨٨) .

﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم .

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبه ، وهو وصيته أن يتفرقوا ؟ قال مجاهد : خشية العين ، وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا ؛ اختاره النحاس .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه ﴾ يعني يعقوب عليه السلام . ﴿ لذو علم لما علمناه ﴾ أي بأمر دينه[1] . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وها هو الركب يتقدم نحو يوسف عليه السلام ومعهم « بنيامين » .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف :٦٩] .

لقد أدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان ، واختلى بأخيه « بنيامين » فأطلعه على شأنه وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس ، أي لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا .

فماذا فعل يوسف عليه السلام ؟ قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ

---

(١) قال سفيان الثوري : لذو عمل بعلمه .

بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿٧٦﴾ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴿٧٧﴾ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴿٧٨﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾ [يوسف : ٧٠ - ٧٩] .

مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجـآت . . . فمن وراء الستار يدس يوسف عليـه السلام كـأس الملك - وهي عـادة من الذهب - وقيل : إنهـا كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح . . . يدسهـا في الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذًا لتدبيـر خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل .

ثم ينادي منادٍ بصـوت مرتفع : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ويرتاع إخوة يوسف لهـذا النداء الذي يتهـمهم بـالسرقـة - وهم أبناء يعقـوب بن إسحـاق بن إبراهيم - فيعودون يتبينون الأمر المريب : ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ ؟

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال : ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ .

وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره مـتطوعًا . وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف : ﴿ولمن جاء به حمل بعير ﴾ من القمح ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي كفيل.

ولكن القوم مستيـقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ [يوسف :٧٣] .

قال العلماء أو الحراس : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ؟

وهنا ينكشف طرف التـدبير الذي ألهمـه الله يوسف . فقد كـان المتبع في دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرًا أو رقيقًا في مقابل ما يسرق .

ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق ، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه : ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [يوسف :٧٥] . أي يُستعبد ويُسترق.

كل هذا الحوار كان على مرأى ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش ، وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه ، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش. ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف :٧٦] أي : استخرج الصواع أو السقاية من رحل أخيه بنيامين . . فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم وظنّوا الظنون كلها .

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق ، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ فلو حكّم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقته ، دون أن يستولى علي أخيه . . ثم يبين الله تعالى فضله على عبده يوسف عليه السلام فيقول : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[١] .

ثم نعود إلى إخوة يوسف . .

وقد حرك الحرج كوامن حقدهم على أخي يوسف ،وعلى يوسف من قبله : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ! يعنون يوسف عليه السلام ! قيل : كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره . .وقيل غيرذلك وكلها روايات لاتصح وليس لها إسناد ثابت . . . والواضح أنهم كذبوا على يوسف كما كذبوا على أبيه من قبل .

وَفَطِن يوسف إلى طعنهم الخفي فساءه وقال في سِرِّه : أنتم أسوأ منزلة وأقل

---

(١) قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله .

قدرًا بافترائكم الكذب ، والله أعلم بكذب ما تدعون : ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ٧٧] .

ولجأوا إلى إثارة العاطفة في نفس يوسف ليرد إليهم بنيامين : ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾

﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ العادلين الرحماء . . فقال يوسف : ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ أي إذا أخذنا البريء وتركنا من وجدنا متاعنا عنده . وعندئذ فقدوا الأمل في استرجاع بنيامين .

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٠ – ٨٢].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين ، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه ، ولما عاهدوه على ذلك ، فلما امتنع عليهم ذلك ﴿ **خَلَصُوا** ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ **نَجِيًّا** ﴾ يتناجون فيما بينهم ، وأخذوا يتشاورون في موقفهم مع أبيهم فانتهى الرأي إلى أخيهم الأكبر الذي قال : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [يوسف : ٨٠] لتردونه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذّر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف منه ففجعتم أباكم في أعزّ أولاده عليه ، أمام هذا الأمر المخجل فإني سأبقى في « مصر » ولن أفارقها إلا إذا فهم أبي الوضع على حقيقته وسمح لي بالرجوع إليه ، أو قضى الله لي بالرجوع الكريم ، وهو أعدل الحاكمين قال : ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٨٠] .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذرًا لهم عنده ،

ويتنصلوا إليه ، ويبدأوا مما وقع بقولهم قال : ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف : ٨١] . أي : لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يسرق فلا نأخذه . وقال مجاهد : ما كنا نعلم أن ابنك يُسترق ويصير أمرنا إلى هذا ، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف :٨٢] . أي : واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث ، واسأل أيضًا القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿ لَصَادِقُونَ ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره .

الشكوى إلى الله :

رجع بقية أبناء يعقوب إلى إبيه وأخبروه ما حدث فهيج الخبر أحزانه وأشجانه ، وضاعف آلامه لفقد ابنه الثاني ، ولم يصدقهم لأن من عهد منه الكذب لا يصدق ولو تكلم بالصدق ، وهو المفجوع بما صنعوا من قبل في يوسف ، فقال:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف :٨٣] .

قال بعض أهل العلم : لما كان صنيعهم هنا مرتبًا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه وصح له قوله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

والصبر الجميل : هو الذي لا شكوى معه .

قال الحسن : ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء ، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو.

ثم قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[يوسف :٨٣] ، يعني :

يوسف وبنيامين والأخ الثالث الذي أقام بديار مصر فينظر أمر الله فيه . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أعرض يعقوب عن أولاده وقد غمره الحزن والأسى : ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

ذكرّه حزنه الجديد بالحزن القديم ، حَرَّك ما كان كامنًا .

وقوله : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾

قال القرطبي : قيل : لم يبصر بهما ، وأنه عمى، وقيل : قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب .

قال ابن عباس : ذهبت عيناه من الحزن ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ . قال : فهو مكروب كَمِد ، يقول : يعلم أن يوسف حي ، وأنه لا يدري أين هو ، فهو كمد من ذلك، والكمِد ، الحزن المكتوم .

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قَالُوا ﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف :٨٥] . يقولون : لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٨٦] .

يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكوه إلى الله وحده ، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا ، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ، ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه ، أن يبحثوا عن أمرهما : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا

تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف :٨٧][1] .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى الله
والله ما لك غير الله من أحدٍ	فحسبك الله في كلٍ لك الله

اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته « لقاء التعارف » .

استجاب الإخوة لطلب أبيهم في البحث عن يوسف وأخيه فعادوا إلى مصر للبحث عنهما وللحصول على القوت الذي هم بحاجة إليه .. وقيل : إن يعقوب عليه السلام أرسل معهم رسالة لعزيز مصر « يوسف عليه السلام » ! وطلب منه الإفراج عن ولده الحبيب بنيامين ، وهذا نصها :

« نص رسالة يعقوب إلى يوسف عليهما السلام »[2] .

« من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - خليل الله - إلى عزيز مصر . . .

أما بعد :

فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جَدِّي فشُدَّت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق ، فنجاه الله وجعلت النار عليه بردًا وسلامًا ، وأمَّا أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ ، فذهب به إخوته إلى البرِّية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: أكله الذئب ! ، فذهبت عيناي من بكائي عليه ، ثم كان لي ابن

---

(١) قال القرطبي : وفي هذه الآية دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس .

(٢) جاءت هذه الرسالة في كتب السابقين من أهل الكتاب : وهي من الروايات التي لا تصدق ولا تكذب ، ويجوز لنا حكايتها راجع المقدمة .

وكان أخاه من أمه ، وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا : إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لا نسرق ، ولا نلد سارقًا فإن رددته عليَّ وإلا دعوتُ عليك دعوة تبلغ السابع من ولدك والسلام » .

انطلق إخوة يوسف ومعهم رسالة أبيهم للعزيز : ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ [يوسف :٨٨] .

يخبر الله تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليهم وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدق عليهم بردِّ أخيهم بنيامين إليهم : ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ** ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا ، قيل : كانت دراهم رديئة ، وقيل : قليلة . ﴿ **فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ .

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، وما يروى أنه قرأ رسالة أبيه ، فاقشعر جلده وبكى ، تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه : ﴿ **هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ [يوسف :٨٩] أي : هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم .. فعند ذلك قالوا : ﴿ **أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ** ﴾ [يوسف :٩٠].

قال ابن عباس : إن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة ، فلما قال لهم : ﴿ **هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ** ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه . ﴿ **قَالَ أَنَا يُوسُفُ** ﴾ [يوسف : ٩٠] أي أنا المظلوم ﴿ **وهذا أخي** ﴾ الشقيق . ﴿ **قد منَّ الله علينا** ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته

علينا ، وإيوائه لنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم إلينا ، وطاعتنا وبرِّنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] . أي : لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم .

ما كاد يوسف يتم كلامه حتى تحققوا أنه بنفسه أخوهم المفقود ، فأسقط في أيديهم ، وقد علت وجوههم صفرة الوجل ، وعلامات الخجل ، ثم أرادوا أن ينتحلوا عذرًا يبرئيون به ساحتهم فلم يجدوا ما يعتذرون به إلا الاعتراف الصحيح فقالوا له: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف :٩١] .

﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فضلك بالنبوة والملك .

﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أي : فيما أسدينا إليك ، وها نحن بين يديك ، فقال عليه السلام : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي : لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

نعم يا سيدي : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ هذه هي أخلاق الأنبياء .. وفقناالله لاتباعهم وجعلنا الله من أتباعهم .

معجزة القميص :

علم يوسف عليه السلام بذهاب بصر أبيه .. فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسده ، فيضعوه على عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب ، بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات ، وأكبر المعجزات. ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

فانصاعوا لإشارته ، وركبوا دوابهم وساروا ميممين وجوههم شطر أبيهم في أرض كنعان « فلسطين » وهم يحملون « قميص يوسف » وحين تجاوزت قافلتهم أرض مصر شعر يعقوب عليه السلام شعورًا خفيًا بقرب اجتماعه بيوسف فقال :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٩٤] أي : أشم ريح يوسف .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « هاجت الريح فحملت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال » .

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف : ٩٤] . أي تقولون ! إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبر السن . وقال ابن عباس : ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ تسفهون .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] .

قال ابن عباس : لفي خطئك الماضي من حُبّ يوسف لا تنساه .

وقال الحسن : وهذا عقوق . وقيل : إن الذي قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارًا ؛ فالله أعلم .

استمر يعقوب عليه السلام على هذا الشعور الطيب الممزوج بالأمل والترقب للقاء ابنه إلى أن أتاه من يحمل القميص ويبشره بسلامة يوسف ، فحين طرح القميص علي وجهه غمرته الفرحة ودبت في روحه حياة جديدة، فعاد إليه بصره بإذن الله ، ثم أخبره البشير عن أحوال يوسف وأنه يطلب منه الارتحال مع أهله وأحفاده إلى مصر ، عندئذٍ اتجه يعقوب إلى من حوله يذكرهم بصدق نبوءته وحقيقة شعوره من أنه يدرك من رحمة الله وفضله ما لا يدركون قال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٤ - ٩٦] .

وهنا أقبل الأولاد على أبيهم معتذرين ، راجين من الله المغفرة .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ، ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قال ابن عباس : أخرّ دعاءه إلى السَّحر .

وعن محارب بن دثار عن عَمِّه قال : كنت أتى المسجد في السَّحر فأَمُرُّ بدار ابن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سَحَرٌ فاغفر لي ، فلقيت ابن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهنَّ في السَّحر؟ فقال : إن يعقوب أخرَّ بنيه إلى السَّحر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ .

لقاء الأحبة

قيل : بعث يوسف عليه السلام مع البشير مائتي راحلة وجهازًا ، وسأل يعقوب عليه السلام أن يأتيه بأهله وولده جميعًا . . وتحرك الوفد المبارك من بلاد الشام قاصدين أرض مصر . . فرأوا يوسف عليه السلام في انتظارهم . . ويقف القلم عاجزًا عن تصوير هذا المشهد المبارك ، واللقاء المرتقب الميمون . . بعد غياب طويل . . . وشوق لا يوصف . . . وأحداث عظام . . وكأني أشاهد صورة النبيين وقد تقدم كل منهما تجاه الآخر . .

« ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد الألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الظامىء الشديد.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع !

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة، ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة ، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف :٩٩] .

ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له - وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه - كما رأى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

ثم يذكر نعمة الله عليه :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾

يحقق مشيئـته بطلف ودقة خفيَّة لا يحسهـا الناس ولا يشعرون بها : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليـه رؤياه في مطلع القصة : ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات .

إلى الرفيق الأعلى

وحين تكاملت النعم على يوسف عليـه السلام ، وجمع له الشمل اشـتاق إلى لقاء الله . . إلى حـيث النعيم المقـيم . . إلى حيث ينعم الإنسان ، فـلا ييأس ، ويخلد لا يموت . . لا يفنى شبابه . . ولا تبلى ثيابه .

ومن أقوال الصالحين : نعم الموت ! جِسر يوصل الحبيب إلى الحبيب .

اتجه يوسف عليه السلام إلى ربِّه في تسبيح الذاكر الشاكر ! كل دعوته وهو في أبهة السلـطان ، وفي فرحة تحـقيق الأحـلام - أن يتوفاه ربه مـسلمًا وأن يلحـقه بالصالحين .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف :١٠١].

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان ، ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير .

ثم ماذا ؟

ثم دفن عليه السلام بأرض مصر وظل مدفونًا بها إلى أن نقله موسى عليه السلام إلى مدافن آبائه بالشام ، وذلك عند خروجه من أرض مصر ... كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

مسك الختام :

بات ميمون بن مهران رحمه الله تعالى عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ليلة .. فرآه كثير البكاء والمسألة للموت . فقال له : صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا .. أحييت سننًا ... وأمت بدعًا .. وفي حياتك خير وراحة للمسلمين .. فلماذا تطلب الموت ؟ قال : أفلا أكون كالعبد الصالح - يوسف - لمّا أقر الله عينه .. وجمع له أمره .. قال : ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ ؟

* * *

قصة أيوب عليه السلام

إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها ، وترادفت الضوائق وطال ليلها ، فالصبر هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط ، والهداية الواقية من القنوط . . قال ﷺ : « **والصبر ضياء** » رواه مسلم .

والله تعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو ،وسيفًا لا ينبو ، وجُندًا لا يُهزم ، وحِصنًا لا يُهدم . . والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها ، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها ، فلا إيمان لمن لا صبر له وسئل «**ذو النون**» عن الصبر فقال : « هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عن تجرع غصص البليات ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة » .

هذا ، وضيفنا على هذه الصفحات . . . نبي كريم . . ابتلاه الله تعالى . . بأنواع من البلاء . . فوقف أمام أمواجه كالصخرة العاتية . . وثبت أمام المحن كالطود العظيم . . فاستحق ثناء رب العالمين : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ٤٤] ، وأصبح مثلاً يحتذى للعابدين : ﴿ **رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٤]

فمن هذا النبي الكريم ؟

هو : أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم .

قال الحافظ في « الفتح » : « ويقال : هو أيوب بن ساري بن رغوال بن عيصو ابن إسحاق بن إبراهيم » . اهـ .

وحكى ابن عساكر : أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وأن أباه كان ممن آمن بإبراهيم ، وعلى هذا فكان قبل موسى عليه السلام .

قال ابن كثير : « فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق ، وامرأته قيل :

اسمها « ليا بنت يعقوب » ، وقيل « رحمة بنت أفراثيم » وقيل : « ليا بنت منسا ابن يعقوب» . وهذا أشهر » . اهـ .

ذكر عليه السلام في عدة مواطن في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤] . وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] .

قال الرواة : إن أيوب عليه السلام كان عظيم التقوى ، رحيمًا بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ، وكان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده .

وكان عليه السلام كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض « **البثنية** » من أرض « **حوران** » وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ، وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله في ليله ونهاره ، وصباحه ومسائه .

إمام الصابرين :

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أيوب نبي الله كان في بلائه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه ، كانا من أخصّ إخوانه ، كان يغدوان إليه ، ويروحان إليه ، فقال أحدهما لصاحبه : أتعلم ، والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد ، قال صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشر سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ؟! فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما يقول ، غير أن الله يعلم أني كنت أمُرّ علي الرجلين يتنازعان فيذكران الله ؛ فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما**

كراهية أن يذكر الله إلا في حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلماكان ذات يوم أبطا عليها ، وأوحى إلى أيوب في مكان أن ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص :٤٢] فاستبطأته فلقيته ينتظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ ووالله على ذلك ما رأيت أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا . قال : فإني أنا هو . وكان له أندران : أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق(١) حتى فاض » رواه الحاكم وقال : صحيح ،وصححه الذهبي وابن حبان والارناؤوط.

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

وفي سورة « ص » ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص :٤١] .وإنما قال ذلك عليه السلام لما طال بلاؤه واشتد .

قال الإمام القرطبي : اختلف في قول أيوب : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ على خمسة عشر قولاً

الأول : أنه وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض ، فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ إخبارًا عن حاله ، لا شكوى لبلائه ، رواه أنس مرفوعًا.

الثاني : أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافيًا للصبر .

الثالث : أنه سبحانه أجراه على لسانه ؛ ليكون حجة لأهل البلاء بعده ، في الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع : أنه أجراه على لسانه ؛ إلزامًا له في صفة الآدمي في الضعف عن تحمل

(١) الورق : الفضة.

البلاء .

الخامس : أنه انقطع الوحي عنه أربعين يومًا ؛ فخاف هجران ربه فقال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ . وهذا قول جعفر بن محمد .

السادس : أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه ، لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه ، محوا ما كتبوا عنه ، وقالوا : ما لهذا عند الله قدر ؛ فاشتكي الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس ، وهذا مما لم يصح سنده ، والله أعلم . قاله ابن العربي .

السابع : أن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردَّها في موضعها ، فعقرته فصاح ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فقيل : أعلينا تتصبر .

قال ابن العربي : وهذا بعيد جدًا مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح ، ولا سبيل إلى وجوده .

الثامن : أن الدود كان يتناول بدنه ، فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه، فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربي : وما أحسن هذا لو كان له سند ، ولم تكن دعوى عريضة .

التاسع : أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له ، هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ؟ فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ أي ضرّ الإشكال في جهة أخذ البلاء .

قال ابن العربي : وهذا غلو لا يحتاج إليه .

العاشر : أنه قيل له : سل الله العافية .

فقال : أقمت في النعيم سبعين سنة ، وأقيم في البلاء سبع سنين ، وحينئذ أسأله فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ . قال ابن العربي : وهذا ممكن ، ولكنه لم يصح في إقامته مدة خبر . ولا في هذه القصة.

الحادي عشر : أنه ضره قول إبليس لزوجه : اسجدي لي ، فخاف ذهاب الإيمان عنها، فتهلك ويبقى بغير كافل.

الثاني عشر : لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره ، فليخرج عنا ، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد ، فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعد من القرية ، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضرّه إلينا . فأرادوا قطعها عنه ؛ فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾.

الثالث عشر : قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان ، فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه ؛ من نتن ريحه فقال أحدهما : لو علم الله في أيوب خيراً ما ابتلاه هذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئًا أشد عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ . ثم قال : « اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت شبعان قط ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقني » فنادى مناد من السماء: « أن صدق عبدي » وهما يسمعان ، فخرّا ساجدين.

الرابع عشر : أن معنى : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ من شماتة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشدّ عليك في بلائك ؟ قال : شماتة الأعداء.

قال ابن العربي : وهذا ممكن ، فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك ، فقال : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠].

الخامس عشر : أن امرأته كانت ذات ذوائب « ضفائر » فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه ما تعود به عليه ، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتًا ، وجاءت به إليه ، وكان يستعين بذوائبها في تصرفه وتنقله !! فلما عدمها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر ، قال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ . وقيل : إنها لما اشترت القوت بذوائبها ، جاءه إبليس لعنه الله في صفة رجل ، وقال له : إن أهلك

بغت، فأخذت وحلق شعرها . فحلف أيوب أن يجلدها ؛ فكان المحنة على قلب المرأة ، أشد من المحنة على قلب أيوب » اهـ .

الحق في هذه القصة :

وقد دلّ عليه كتاب الله الصادق ، على لسان نبيه الصادق على أن الله - تبارك وتعالى - ابتلى نبيَّه : أيوب - عليه الصلاة والسلام - في جسده ، وأهله ، وماله، وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال في ذلك ، وقد أثنى الله عليه هذا الثناء المستطاب ، قال عز شأنه : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ فالبلاء مما لا يجوز أن يشك فيه أبدًا .

والذي يجب أنه نعتقده : أنه - عليه السلام - أبتلى ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب ، من أنه أصيب بالجذام ، وأن جسمه أصبح قرحة ، وأنه ألقى على كناسة بني إسرائيل ، يرعى في جسده الدود ، وتعبث به دواب بني إسرائيل ، أو أنه أصيب بمرض الجدري .

وأيوب- عليه صلوات الله وسلامه - أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة ، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ، ويقززهم منه ، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحالة المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله ؟

والحق : أن ما أصيب به أيوب من المرض إنما كان من النوع غير المنفر ،والمقزز وأنه من الأمراض التي لا يظهر أثرها على البشرة ، كالروماتيزم ، وأمراض المفاصل ، والعظام ونحوها ، ويؤيد ذلك : أن الله لما أمره أن يضرب الأرض بقدمه ، فنبعت عين ، فاغتسل منها ، وشرب ، فبرأ بإذن الله . والمقصود : أنه عليه السلام قال: ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ** ﴾ لما طال بلاؤه ، فقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾ .

وسُئل « **الجنيد** » عن هذه الآية فقال : عرّفه فاقه السؤال ليمُنَّ عليه بكرم النوال .

﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء .

وفي سورة « ص » ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴿٤١﴾ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : ٤١ - ٤٢] ، الركض : الدفع بالرجل ، والمعنى : اضرب يا أيوب برجلك الأرض ، فامتثل لما أمره به فأنبع الله عينًا باردة من الماء ، وأمره أن يغتسل فيها ، ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ماكان يجده من الألم والمرض الذي كان في جسده ظاهرًا وباطنًا .

قال الإمام القرطبي : أي فاركض فنبعت عين ماء فاغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه .

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾

قال الإمام ابن الجوزي : في قوله تعالى : ﴿ ومثلهم معهم ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم ، وآتاه مثلهم معهم في الدنيا ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة .

والثاني : أنهم كانوا قد غيبوا عنه ولم يموتوا ، فآتاهم في الدنيا ، ومثلهم معهم في الآخرة ، رواه هشام عن الحسن .

والثالث : آتاه الله أجور أهله في الآخرة ، وآتاه مثلهم في الدنيا ، قاله نوف ومجاهد .

والرابع : آتاه أهله ومثلهم معهم في الآخرة ، حكاه الزجاج » .

والصحيح : أن الله تعالى متعه بصحته وبماله وقوّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك .

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانًا ، خرّ عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربه : يا أيوب ، ألم أكن

أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك »[١] .

وعن ابن عباس قال: « ردَّ الله على امرأته شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدًا ذكرًا » .

﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته .

﴿ وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ أي لذوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة . وفي سورة الأنبياء : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرّج الله عنه .

تذييل يتعلق بالقصة :

ذكرت سورة « ص » إضافة أخرى تتعلق بالقصة وهي قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

ذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته . قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ماكان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأمره الله عز وجل أن يأخذ « ضغثًا »[٢] أي حزمة من الحشيش بها مائة عود فيضربها ضربة واحدة وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفّى بنذره .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٣٩١) ومعنى رجل جراد : أي جماعة جراد .

(٢) قال العلماء : الضغث : قبضة حشيش مختلط الرطب باليابس .

« الله » !! وهل بعد هذا الثناء ثناء . . . سلام عليك ياسيدي في العالمين ، والحمد لله رب العالمين .

مسك الختام :

« سئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحدًا ؛ فقال في وصف أيوب : ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقال في وصف سليمان : ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

دروس من قصة أيوب عليه السلام

(١) الصبر على البلاء :

في قصة أيوب عليه السلام وما أصابه من البلاء درس للمؤمنين بأن يكون أيوب قدوة لهم فيما يصيبهم من بلاء وما يعتريهم من أسقام .

وفي الحديث : «**أشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرَّجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه** » .

(٢) أهمية الدعاء :

قال ابن القيم : « الدعاء إذا سلم من الموانع من أنفع الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، فهو من أنفع الأدوية . . وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، أو يخففه إذا نزل » .

وفي الحديث : « **الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء**»[١] .

ولقد ظهر أثره في قول أيوب عليه السلام : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

---

(١) حديث حسن : رواه أحمد وغيره ، وانظر ، صحيح الجامع (٣/١٥١) .

(٣) الحث على التداوي :

ويظهر ذلك في قوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص : ٤٢] .

وفي الحديث : « تداووا عباد الله » رواه أبو داود وإسناده صحيح .

(٤) الرفق بالزوجة :

يؤخذ هذا من قوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤].

قصة ذي الكفل عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ - ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص :٤٨] .

قال ابن كثير : « فالظاهر من ذكره في القرآن بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيّ ، عليه من ربه الصلاة والسلام . وهذا هو المشهور .. وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ففعل فَسُمِّيَ ذا الكفل » .

أما دعوته ورسالته والقوم الذين أرسل إليهم فلم يتعرض القرآن لشيء من ذلك لا بالإجمال ولا بالتفصيل .

قلت : ولقد وردت رواية عنه ذكرها ابن كثير - رحمه الله - في قصصه من طريق داود بن أبي هند ، عن مجاهد ... وهي رواية طويلة الذيل لا تصح بحال من الأحوال .

وأهل التاريخ يذكرون : أنه ابن أيوب عليه السلام ، واسمه في الأصل « بشر وقد بعثه الله بعد أيوب وسماه الله « ذا الكفل » .. وما ذكروه يحتاج لدليل ولا دليل .

* * *

قصة يُونس عليه السلام

إنها قصة عجيبة ، تدل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، ولطفه بعباده .. وإنها لتدل على شرف ذِكر الله عز وجل .. وعلمه المحيط بخلقه ... ورحمته بعبده الذي أيقن بوجوده وتعرف على فضله وجوده . كما أنها تدل على أن طاعة العبد لمولاه يظهر أثرها في البر والبحر .

وفي الحديث : « **حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير** » !!

إنها قصة النبي الصالح : « **يونس بن متى** » عليه السلام .

فضائله عليه السلام :

كان نبينا محمد ﷺ يحب أخيه يونس حُبّاً جمًا ، وكان كثير الثناء عليه ، وإليك أخي القارىء طرفًا من ذلك :

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « **ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه** » . أخرجه البخاري .

(٢) وعن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: « لا والذي اصطفى موسى على العالمين . قال البخاري في آخره : « **ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى** » . أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) لما عاد الرسول ﷺ من « الطائف » والتقى « بعداس » غلام ابنى ربيعة النصراني ... ووضع عداس قطفًا من عنب أمام رسول الله .. مد النبي يده إليه قائلاً : باسم الله .. ثم أكل ، فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أي البلاد أنت ؟ قال : أنا نصراني من « نينوى » فقال رسول الله : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك

ما يونس ؟ قال رسول الله : ذلك ، أخي ، كان نبيًا وأنا نبي ، فأكب عداس على يدي رسول الله ﷺ ورجليه يقبلهما .

رسالته :

بعث الله تعالى يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل ، وكانت عاصمة دولة أشور ، تلك الدولة التي بسطت سلطانها على معظم بلاد آسيا ، وكانت من أغنى وأعظم المدن الشرقية في ذلك الزمن ، وأدّت سعة الرزق بها وغناها الفاحش إلى ضلالها بارتكاب الموبقات والمعاصي ، بالإضافة إلي هذا فقد كان أهل نينوى يعبدون الأصنام ولا يؤمنون بالله تعالى . فدعاهم يونس عليه السلام إلى الله عز وجل ،فكذبوه وتمردوا عليه .. وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم .. فلما طال ذلك عليه من أمرهم .. ظن عليه السلام أنه قد أدى الرسالة وقام بالمهمة التي أمره الله بها ... فخرج من مدينتهم مغاضبًا .. ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث ... وظل سائرًا حتي أتى إلى ساحل البحر ، فوجد سفينة على أهبة السفر فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم السفينة ففعلوا .

يونس في بطن الحوت !

ركب عليه السلام السفينة فلجت بهم في البحر ، واضطربت وماجت بهم ، وجاءها الموج من كل مكان ، وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون فتشاور أهلها فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه ، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا ، فشمَّر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه ، فأبوا عليه ذلك ، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا ، لما يريده الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٢] .

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر ، فبعث الله تعالى حوتًا عظيمًا من البحر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس لك برزق ، فأخذه وابتلعه ولما استقر يونس عليه السلام في جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حي فخر لله ساجدًا ، وقال : « **يا رب اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يعبدك أحد في مثله** » وسمع عليه السلام تسبيح الحيتان للرحمن ، وتسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى ، فعند ذلك وهنالك، قال ماقال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ، الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٧].

﴿ **وَذَا النُّونِ** ﴾ النون : الحوت . والمعنى: وصاحب الحوت .

﴿ **إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا** ﴾ أي : مغاضبًا من أجل ربه والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم ، ولم يصبر على أذاهم . . ولذلك قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ [القلم :٤٨].

﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي : فظن أن لن نُضيّق عليه

قال الحسن : هو من قوله تعالى : ﴿ **وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ [الطلاق :٧] .

﴿ **فنادى في الظلمات** ﴾ قال ابن مسعود :« ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت» . رواه الحاكم في « التفسير » وإسناده صحيح

﴿ **أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾

قوله : ﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت .

﴿ سبحانك ﴾ تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز .

﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ فالمعنى ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير إذنك .

قال الإمام الحسن : ما نجّاه الله إلا بإقراره على نفسه بالظلم .

إن في قصة يونس- عليه السلام - لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات :

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدراً بالقوم ،وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً . . فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين ، ولولا أن ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق ، ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه .

وأصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها . . إن الداعية أداة في يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والهدى هدى الله .

إن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه ، وفي رجعته إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها . وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولمّا دعا يونس عليه السلام بهذا الدعاء الشامل الكامل . . استجاب له ربه فقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] . أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، دعوة أخي يونس بن متى** »

قال : قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال :« **هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها - ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط الله لمن دعاه بها** » .

وعن سعد بن أبي وقاص - أيضًا - قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يردَّ علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين : هل حدث في الإسلام شيء ؟ قال : لا . وما ذاك ؟ قلت : لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت قال سعد : قلت بلى ، حتى حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفًا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ماذكرتها قط إلا تغشّى بصري وقلبي غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئكم إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال : « **من هذا ؟ أبو إسحاق ؟** » قال : قلت : نعم يا رسول الله قال : « **مه** » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك . قال : « **نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فإنه لم يَدْعُ بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له** » رواه أحمد والترمذي .

نجاة يونس عليه السلام :

(يروى) أن النبي ﷺ قال : « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش فيه لحمًا ولا تكسر له عظمًا . فلما انتهى

به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًا ، فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت ! إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه . فقالوا : يا ربنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة ! قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبد الصالح ، الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ . هذا لفظ ابن جرير إسنادًا ومتنًا[1]

ألقاه الحوت على ساحل البحر ﴿ وهو سقيم ﴾ كما قال رب العزة سبحانه

أي : ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش

وأدركته عناية الله سبحانه : ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ [الصافات : ١٤٦]

قال عطاء وغيره : هو القرع .

قال بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حكم جمة، منها :

أن ورقه في غاية النعومة .

وكثير الظل

ولا يقربه ذباب

ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ، نيًا ومطبوخًا ، وبقشره وببزره أيضًا .

وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك .

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - : « وهيأ الله له أروية[2] وحشية تأكل من خشاش الأرض ، أو قال : هشاش الأرض ، قال : فتفسخ عليه فترويه من لبنها

---

(١) ورواه البزار ، ثم قال : لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . كذا قال :

(٢) أروية : دابة جبلية .

كل عشية وبكرة حتى نبت[1] . اهـ . والله على كل شيء قدير .

مصير قوم يونس :

قلنا بأن يونس عليه السلام خرج مغاضبًا لمّا تمردوا عليه وكذبوا ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

فماذا حدث ؟

قال ابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف :

فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكنوا وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات .

وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] .

ومعنى الآية : لو أن كل قرية من القرى تؤمن لنفعها إيمانها لكنها لم تؤمن إلا قوم يونس فإنهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا ومتعهم بمتع هذه الحياة إلى نهاية أعمارهم .

---

(١) قال ابن كثير : وهذا غريب ، فيه يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف ، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم ، كما يتقوى ذاك بهذا .

قال ابن كثير : « وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة ، فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين :

الأظهر من السياق : نعم . والله أعلم » . اهـ .

يونس يعود إلى قومه :

تقدم معنا أن يونس عليه السلام لما خرج من بطن الحوت . . خرج وهو سقيم فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين(١) . . . وقيض له « أروى » ترضعه صباحًا ومساءً .

ولما استرد عافيته ، وذهب روعه ، وسكنت نفسه ، أمره الله تعالى أن يعود إلى قومه الذين فارقهم وكانوا « مائة ألف أو يزيدون » .

قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [الصافات ١٤٣ - ١٤٨] .

قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ أي : لولا ماتقدم له من العمل في الرخاء . .

كما في الحديث : « **تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة** » .

قوله : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أويزيدون** ﴾ .

حكى بعضهم أن الله أرسل يونس عليه السلام إلى أمة أخري بعد إنقاذه من بطن الحوت !! وهذا بعيد . . ومال ابن كثير - رحمه الله - إلى خلافه فقال :

---

(١) ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء - القرع - ويتتبعه من حواشي الصفحة -الإناء- . رواه البخاري (٧/٩٨) .

« قلت : ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعـود إليهم بعد خروجه من الحوت فـصدقوه كلـهم وآمنوه به » . . . وعاش يونس عليـه السلام في وسط قومه . . وأدرّ الله عليهم من رزقه . . وأسبغ عليهم من فضله . . . وعاشوا تحت مظلة « الإيمان » آمنـين مطمـئنين . . . حـتى بلغ الكتـاب أجله . قـال تعـالى : ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات:١٤٨].

دروس من قصة يونس

(١) الصبر في مجال الدعوة إلى الله :

لابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويتحملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا . . . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] .

(٢) الإيمان طريق النجاة :

قال تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

(٣) فضل التسبيح :

قال تعـالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

(٤) اللجوء إلى الله تعالى عند الشدائد والمحن

كما لجأ يونس عليـه السلام وهو في بطن الحوت : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ .

* * *

قصة موسى عليه السلام

من هو ؟

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وهو من أولي العزم من الرسل ، ويلقب بـ « كليم الله » لأن الله تعالى كلمه بلا واسطة : **﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾** [الأعراف : ١٤٤] .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **موسى ابن عمران صفيُّ الله** » رواه الحاكم ، وصححه الشيخ الألباني .

وفي قصته عليه السلام من الأحداث ، والدروس ، والعظات ، والعبر ، والآداب ، والأحكام ، والفقه ما يحتاج إلى تأملات ووقفات .

ما هي البداية ؟

تقدم معنا في « قصة يوسف عليه السلام » كيف أنه استقدم أباه وأولاده وأحفاده من « بلاد الشام » للإقامة بمصر . . وكانت العلة في طلب يوسف ذلك :

أولاً : أن يكونوا بجواره .

ثانيًا : أنها - أي مصر - أرض مزارع وهم رعاة ماشية .

ودار الزمان . . وكثر بنوا إسرائيل - أولاد يعقوب عليه السلام - وتضاعف عددهم كلما مر عليهم الزمان . . وزاد نسلهم - فخاف فرعون مصر[1] - آنذاك - أن يكونوا عونًا لأعداء مصر ، فاستخدمهم في أشق الأعمال لإضعاف قوتهم ، وأمعن في تفريقهم شيعًا وأحزابًا .

---

(١) فرعون : لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر الأقدمين .

وقيل : إن الكهنة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني إسرائيل ، فأمر بقتل كل ذكر من أولادهم حتى لا يكثر عددهم ، وأسرع الموت في شيوخهم من جرّاء إرهاقهم في العمل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له : إن الموت وقع في الكبار من بني إسرائيل وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن يقع العمل علينا ولا يبقى أحد للخدمة غيرنا ، فأمر أن يقتل الغلمان سنة ويتركوا سنة حتى لا يهلك جميع أبناء إسرائيل[1] .

وفي السنة التي لا يقتل فيها أحد من الغلمان وُلِد « هارون » عليه السلام ، فترُك وشأنه وتربى في أحضان والديه ، وأما « موسى عليه السلام » فقد وافقت ولادته العام الذي يذبح فيه الأطفال ، فلما ولدته أمه خبأته عن العيون فلم يتسرّب خبره إلى فرعون . ويشير القرآن العظيم إلى هذه الأحداث بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] . ومعنى : ﴿ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي : يتركهم أحياء لاسترقاقهن .

قال ابن كثير : « الصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذرًا من وجود موسى » .

وألهم الله أم موسى أن تتخذ لابنها تابوتًا . . فاتخذته . . ووضعت فيه « موسى » وربطته في حبل ، وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ، فإذا خشيت عليه من أحد وضعته في ذلك التابوت ، فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

---

(١) إسرائيل : هو يعقوب عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ .

وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص :٧] .

قال الإمام ابن العربي : إن هذه الآية من أعظم آي القرآن فصاحةً ؛ إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان .

وهذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**.... ﴾ الآية [النحل :٦٨] . وليس هذا بوحي نبوة كما زعمه الإمام ابن حزم - رحمه الله - وغير واحد من المتكلمين ، بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

والمقصود : أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وأُلقى في خلدها وروعها ، أن لا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلاً ، يعلى كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به ، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط الحبل عندها ، فذهب مع النيل ، فمر على دار فرعون ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾ [القصص : ٨] قال الله تعالى : ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ .

وذكر المفسرون : أن الجواري التقطنه من النهر في تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسروا على فتحه ، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون « **آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد** » الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام .

وقامت « آسية » لتنظر ما في التابوت ، فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية . فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبًا شديدًا ، قال تعالى : ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي** ﴾ [طه : ٣٩] .

فلما جاء فرعون قال : ماهذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه ، **وقالت** : ﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ** ﴾ [القصص : ٩] .

فقال لها فرعون : أما لك فنعم ،وأما لي فلا . أي : لا حاجة لي به .

والبلاء موكل بالمنطق .

ثم قالت « آسية » رضي الله عنها : ﴿ **لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ القصص : ٩] .

وقولها : ﴿ **عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا** ﴾ قد أنالها الله تعالى ما رجت من النفع .

أمَّا في الدنيا : فهداها الله به . وأما في الآخرة : فأسكنها الله جنته بسببه .

﴿ **أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ [القصص : ٩] وذلك أنهما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهما ولد.

قال تعالى : ﴿ **وهم لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص : ٩] : لا يدرون ماذا يريد الله بهم، أن قيَّضهم لالتقاطه ، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده وهكذا أراد الله تعالى . . أن يُربِّى فرعون عدوه موسى في بيته وهو لا يشعر (ويد الله تعمل في الخفاء) .

وكأن القدر يقول : « يا أيها الملك الجبار ، المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه، واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يُمانع ، ولا تخالف أقداره ، أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعد ولا يحصى ، لايكون مربَّاه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك . وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سرٍّ معناه.

ثم يكون هلاكك على يديه ، لمخالفتك ما جاء به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة، والمشيئة التي لا مردّ لها » .

وهكذا منَّ الله تعالى على « موسى عليه السلام » . . وأحاطت به الرعاية

الإلهية من كل مكان : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٧ - ٣٩] .

قوله : ﴿ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ فكان لا يراه أحدٌ ، إلا أحبّه .

وقوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ أي : تطعم ، وتُرفه وتُغذّى بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس ، بمرأى منى ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري .

البحث عن موسى :

خرجت أم موسى من بيتها لترضع ولدها ، فلم تجده في مكانه ، فأرسلت نظرها في النيل .. فلم تجد أثرًا للتابوت .. يا ترى أين ذهب ؟ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] .

قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أي : من كل شيء من أمور الدنيا ، إلا من موسى .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي : لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة .

﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي : صبّرناها وثبتناها .

﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعادت أم موسى .. وقد ألقى الله سكينته عليها ﴿ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : ١١] أي : اتبعي أثره واطلبي « لي » خبره .

﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بُعد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص : ١١].

وذلك لأن موسى عليه السلام ، لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذُّوه برضاعة فلم يقبل ثديًا ولا أخذ طعامًا !! فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل . كما قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص : ١٢] فأرسلوه مع القوابل[1] والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته .

فبينما هم وقوف به ، والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر تعرفه بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص :١٢] .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ، ورجاء منفعته .

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها ، وأخذ يمصُّه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا . وذهب البشير إلى « آسية » ليخبرها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها ، أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا[2] وأولادًا ، ولست أقدر على هذا ، إلا أن ترسليه معي . فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوي ، والهبات[3] ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها .

قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٣] .

---

(١) القابلة : هي التي تتولى ولادة النساء .

(٢) البعل : الزوج .

(٣) فكانت ترضع ولدها وتاخذ أجرها .

موسى عليه السلام يقاوم الظلم :

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص : ١٤] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي بلغ الحُلُم .

﴿ وَاسْتَوَىٰ ﴾ قال ابن عباس : بلغ أربعين سنة .

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الحكم : الحكمة قبل النبوة . قيل : الفقه في الدين . والعلم : الفهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وكان لموسى عليه السلام بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبنّي فرعون له ، وتربيته في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أخواله ، أي : من الرضاعة .

ولما مَنَّ الله تعالى على موسى عليه السلام - وآتاه حكمًا وعلمًا - أظهر خلاف فرعون ، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام .

قال ابن زيد : « كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة ،وغاب عنها سنين ، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لآمره وبعد عهدهم به ، وكان ذلك يوم عيد » .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٥- ١٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن عباس وغيره: وذلك نصف النهار . وفي رواية : « بين العشاءين » .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ﴾ أي : يتضاربان .

﴿ هَذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي : من بني إسرائيل .

﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : من قوم فرعون .

﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي طلب نصره وغوثه . . قال قتادة : أراد القبطي - الذي هو من قوم فرعون - أي يُسخِّر الإسرائيلي ليحمل حطبًا لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . قال القرطبي : وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم ، وفرض في جميع الشرائع .

وهب موسى عليه السلام لنجدة المظلوم ، فضرب الظالم بمجمع كفه ، فوقع الرجل ميتًا !! ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ .

قال الإمام القرطبي : « والوكز واللكز واللَّهز ، واللَّهد بمعنى واحد ، وهو الضرب يُجمع الكفّ مجموعًا كعقد ثلاثة وسبعين » .

ولم يكن موسى عليه السلام يريد قتله ، ولكن أراد زجره وردعه .

فندم موسى و ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أى من إغوائه .

قال الإمام الحسن : لم يكن يحل قتل الكافر يؤمئذٍ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفٍّ عن القتال .

ثم لجأ إلى ربه في الحال و : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿١٦﴾ ﴾ .

قال قتادة : عـرف والله المخرج فاستغفر ؛ ثم لم يزل عـليه السلام يعدد ذلك على نفسـه ، مع علمه بأنه قد غفر لـه ، حتى أنه في القيامة يقـول : إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها . والحديث في « الصحيحين » .

﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** ﴾ أي : بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة .

﴿**فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا** ﴾أي معينًا . ﴿ **لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴿١٧﴾ ﴾ أي الكافرين بك . المخالفين لأمرك .

﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾ والخوف لا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه . . . ﴿ **يَتَرَقَّبُ** ﴾ يتلفت من الخـوف ، وقيل : يترقب الطلب ؛ ويـنتظر ما يتحـدث به الناس . . وبينما هو يسـير عليه السـلام على هذا الحال ﴿ **فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ** ﴾ أي فإذا صاحبـه الإسرائيلي الذي خلصه بالأمس يقاتل قبطيًا آخر أراد أن يُسخره !! ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ** ﴿١٨﴾ ﴾ أي : مضل بيِّن الضلالة؛ قتلت بسبـبك أمس رجلاً ، وتدعونى اليوم لآخر ! . ثم أراد موسى عليه السلام أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فيـردعه عنه ويخلصـه منه . فلما عـزم على ذلك ، وأقبل على القـبطي ، توهم الإسرائيلي أنه يريده ؛ لأنه أغلظ له في القول فقال : ﴿ **يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾[القصص : ١٩] . . وانتـشر خبر قـتل موسى للقبطي في مـصر ووصل النبأ لفـرعون . . ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴿٢٠﴾ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص : ٢٠ -٢١] .

﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ** ﴾ **قال أكثر المفسرين : هذا الرجل هو « حزقيل » مؤمن آل**

فرعون . وقيل غير ذلك . فالله أعلم .

﴿ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ ساعيًا إليه ، مشفقًا عليه .

فقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس .

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ أي : فيما أقوله لك .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢١].

موسى في أرض مدين :

خرج موسى عليه السلام من أرض مصر . . قاصدًا أرض مدين[١] .

وها هو عليه السلام . . يسير في صحراء مترامية . . يرتفع مع التلال كلما ارتفعت . . ويهبط إلى الوديان أينما انخفضت . . لا زاد معه ولا ماء .

ويصف القرآن حاله : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢] . أي : عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود ، وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود ، وأيّ مقصود .

وها هو عليه السلام يسرع الخطى نحو « مدين » التي يبتغيها . . وجهة النجاة التي يرتجيها . . حتى حفيت قدماه . . وكَلّت ساقاه . . وأصبحت ملابسه أسمالاً بالية . . من قسوة الصحراء وشظفها . . ولهيب الرمال وقيظها .

يقول سعيد بن جبير : خرج موسى إلى مدين ، وبين مصر وبينها مسيرة ثمان ليال . . لم يكن له طعام إلا ورق الشجر . . وأنه خرج حافيًا . . فما وصل إلى مدين . . حتى وقع خف قدمه . . أي سقطت الجلدة الملاصقة للأرض من رجله.

---

(١) أرض مدين : بلاد واقعة حول خليج العقبة ، من نهايته الشمالية ، جنوب فلسطين ، شمال الحجاز .

وأخيرًا وصل إلى « بئر مدين » .

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ [القصص : ٢٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ وكانت بئرًا يسقون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام - كما تقدم معنا - ولما ورد الماء المذكور : ﴿ **وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ** ﴾ أى جماعة من الناس يسقون أغنامهم ﴿ **وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾ تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس . فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا** ﴾ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ **قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** ﴾ أي : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء : ﴿ **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ أي فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا** ﴾ .

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : « إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم » . قال ابن كثير : إسناده صحيح .

... ولما فرغ موسى من سقى الغنم .. ماذا فعل ؟

قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** (٢٤) ﴾ [القصص : ٢٤] .

قال ابن عباس رضي اله عنه : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام . إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل

قدميه ، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

فلما جلس تحت الشجرة ، وأسند ظهره إليها . . سأل ربه قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

قيل : فسمعته المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه ، فتدعوه .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى مشى الحرائر ، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت تمشي علي استحياء قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع من النساء ولاّجة خرّاجة . قال ابن كثير : اسناده صحيح .

قال الجوهري : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجرئية السليطة، ومن النوق : الشديدة .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص :٢٥] . وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة .

اللقاء المبارك :

انطلق موسى عليه السلام مع المرأة . . قيل : إنه قال لها : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . . ووصل موسى عليه السلام إلى أبيها .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال :

أحدها : أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء .

الثاني : أنه رجل مؤمن من قوم شعيب . . لبعد المسافة الزمنية بين شعيب عليه السلام وبين موسى عليه السلام . . وهذا هو الراجح .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص : ٢٥] . أي : ذكر له ما كـان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ، فطمأنه الـعبد الصالح ، وقال له : طب نفسًا وقرّ عينًا ، فقد خرجت من مملكتهم ، فلا حكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الزواج المبارك :

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٦ - ٢٨] .

قوله : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ قيل : هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام .

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ ولا يخفى على القارىء أنها رأت قوته عندما رفع الصـخرة من علي فم البئر ، ورأت أمـانته عندما أمرها أن تسير خلفه وهو في طريقه إلى أبيها . . كما لا يخـفى علي القارىء أنها راغبة في الزواج من هذا الرجل الصالح . . وهذا من فراستها .

قـال ابن مـسـعـود - رضي الله عنه - : « أفـرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : « أكرمي مثواه » ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ ورأى الوالد أن ابنته أصابت في قولها . . وفطن إلى ما يخفيه هذا الاقتراح[1] .

---

(١) كأنه فطن إلى ما تخفيه في نفسها من أمر الزواج منه ، ورغبتها فيه .

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص :٢٧] .

قال الإمام القرطبي : قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ الآية . فيه عرض الولى بنته على الرجل - أي الصالح - وهذه سنة قائمة ، عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل ، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ . فمن الحسن عرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح » . اهـ.

واستدل بهذه الآية أصحاب أحمد ، على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في « سننه » أن النبي ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام ، آجر نفسه ثمانى سنين ، أو عشر سنين ، على عفة فرجه ، وطعام بطنه»[1] .

وَقبل موسى عليه السلام ، من إحدى ابنتى الرجل الصالح .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص :٢٨] .

يقال : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان عليَّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ، ووكيل عليَّ وعليك ومع هذا ، فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمها ، وهو العشر سنين كوامل تامة .

فعن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت

---

(١) ضعيف : رواه ابن ماجه في «سننه » (٢٤٤٤) ، وفي إسناده : « بقية بن الوليد الحمصي » له مناكير ، و« مسلم بن علي الخشني الشامي » منكر الحديث .

ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل[١] .

هذا ، ومن كرم العبد الصالح بموسى عليه السلام ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد موسى فوضع حبالاً على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقًا إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن [كلهن] ذلك العام » .

قال ابن كثير : وهذا إسناد [جيد] رجاله ثقات ، والله أعلم ، وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله « لابان » أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقًا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم .

إلى الوادي المقدس :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : ٢٩ - ٣٣] .

قالوا : اشتاق موسى لرؤية أهله ، بعد أن أكمل الأجل الذي اتفق عليه مع شعيب ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختفٍ ، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم ، وغنم قد استفادها مدة مقامه .

واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا في طريقهم ، فلم يهتدوا إلى

---

(١) صحيح : رواه البخاري في « صحيحه » فتح (٢٦٨٥) .

السلوك في الدرب المألوف ، وجعل يورى زناده فلا يورى شيئًا ، واشتد الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك ، إذا أبصر عن بُعد نارًا تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه » ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم ، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح لرؤيتها كل أحد .

﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : لعلى أستعلم من عندها عن الطريق .

﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدلّ على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق ، في ليلة باردة مظلمة ، لقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] . فدل ذلك على وجود الظلام، وكونهم تاهوا عن الطريق.

وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نورًا وأي نور !

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف :

لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها ، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج « الشوك » وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة ، في ازدياد ، فوقف متعجبًا ، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص : ٤٤] .

إنها تتقد بغير لهب ولا دخان . . . فلم يجد موسى عليه السلام فيها جذوة ولا قبسًا . . ولا جمرة ولا شهابًا . فماذا يأخذ منها . . ليعود إلى أهله . . فمد عصاه . . عسى أن يشتعل طرفها ليعود به مشتعلاً . . ولكن النار تهجم عليه فيعود خائفًا . . فتحطمت أعصابه . . وانهارت قواه.

فإذا بصوت يناديه من الشجرة : ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ !!

قال المهدوي : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمع كلامه من الشجرة على ما شاء .

ثم تتابع كلام الجليل سبحانه : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وفي مقام مبارك آخر : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه : ١٢ - ١٦] .

وفي مقام ثالث : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٨] .

ويقف القلم ليعلن عجزه عن التعبير . .

لقد بدأت كلمات الله تعالى معه بالتوحيد أولاً : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ ، وثنى بالعبادة التي هي كمال العمل الدال على مظاهر التوحيد .

﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ثم بين سبحانه - فناء تلك الحياة . . وقيام الساعة للجزاء ثوابًا وعقابًا . . . . ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ . . . ثم حذره من اتباع الهوى المُرْدي . . المضل عن سواء السبيل ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوى الذي تجاوبت به جنبات الوجود وأنهى الله سبحانه وتعالى إلى عبده المختار قواعد التوحيد ،ولا بد أن موسى قد نسى نفسه ونسى ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوى الذي ناداه ، وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه . وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ١٧] .

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟! إنما يتذكر فيجيب :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه : ١٨] .

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده . إنما كان عما في يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهي واضحة ، إنما عن وظيفتها معه .

فأجاب . . ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا . . لكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر على بال ، تمهيدًا لتكليفه بالمهمة الكبرى !

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٩ -٢١] .

ووقعت المعجزة الخارقة . . معجزة الحياة . . فإذا العصا حية تسعى .

وكم من ملايين الذرات الميته أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك أن الإنسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه . . وانقلاب العصا حية تصدم حسّه فينتبه لها بشدة .

وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف . . وهرب من قدامها

﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص : ٣١] . أي ولم يلتفت ، فناداه ربه : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص : ٣١] . فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه : ٢١] واطمأن موسى عليه السلام والتقط الحية ، فإذا هى تعود لسيرتها الأولى !

عصا !، فسبحان القدير العظيم .

ثم صدر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه : ٢٢] .

ووضع موسى يده تحت إبطه . . لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة ، ولكن : ﴿ آيةً أخرى ﴾ مع آية العصا ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴿٢٣﴾ ﴾ فتشهد وقوعها بنفسك تحت سمعك وبصرك فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى .

العودة إلى أرض مصر :

وبعد أن منّ الله تعالى على موسى عليه السلام بالنبوة ، وأيده بمعجزة العصا واليد . . أمره بالذهاب إلى فرعون :

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴿٢٤﴾ قال رب اشرح لي صدري ﴿٢٥﴾ ويسر لي أمري ﴿٢٦﴾ واحلل عقدة من لساني ﴿٢٧﴾ يفقهوا قولي ﴿٢٨﴾ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴿٢٩﴾ هرون أخي ﴿٣٠﴾ اشدد به أزري ﴿٣١﴾ وأشركه في أمري ﴿٣٢﴾ كي نسبحك كثيرا ﴿٣٣﴾ ونذكرك كثيرا ﴿٣٤﴾ إنك كنت بنا بصيرا ﴿٣٥﴾ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ [طه : ٢٤ - ٣٦] .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره . . . وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره . . وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح .

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله . . وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله هارون أخيه[١] . فهو يعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان ، وهدوء الأعصاب ، فيشد به أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم

---

(١) سمعت السيدة عائشة رجلاً يقول لأناس ، وهم سائرون في طريق الحج : أي أخ أمَنّ على أخيه ؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون ، فأوحى إليه .

عليه.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ .

وعاد موسى عليه السلام بأهله إلى أرض مصر والتقى هناك بأهله وأحبابه ..

وأخبر موسى هارون أن الله جعله وزيرًا له .. ولابد أن يكون الوحي قد نزل عليه.

إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون

أعد الله موسى لرسالته وأجابه إلى ما سأل فبعث معه أخاه هارون وأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات ، ونهاهما عن الفتور والتقصير في ذكر الله وتبليغ رسالته ، وأمرهما أن يقصدا فرعون بالذات لأنه هو الذي طغى ، وأوصاهما أن يلينا له القول لعل ذلك يلين من طبيعة طغيانه ويصلا إلى قلبه بحسن الكلام فيخشى . فقال موسى وهارون : إننا نخاف جبروت فرعون وقسوته إذا بلغناه هذه الرسالة فربما حمله الغضب على البطش بنا أو التعجيل بعقابنا .

فقال الله لهما : لا تخافا أن يصيبكما ما توهمتماه منه فإني معكما أسمع وأرى فسأحفظكما من بغيه .

قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه :٤٢ - ٤٦] .

قرأ يزيد الرقاشي - رحمه الله - هذه الآية : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ .

فقال : « يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه » .

وذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون ونادا عليه ، فخرج إليهم فقالا : ﴿إِنَّا

رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

أنت يا فرعون عبد مقهور ، لا تصلح لأن تكون إلهًا .. ونحن جئنا من قبل ربنا وربك ، والله يأمرك أن تترك بني إسرائيل ،وسوف نخرج بهم من أرضك فإن سمعت كلامنا فالسلام على من اتبع الهدى ، وإن عاندت واستكبرت فـ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٨] .

وفي مقام آخر :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٠٤ - ١٠٥] ، ومعنى : ﴿ حَقِيقٌ ﴾ أي : جدير .

استغرب فرعون كلام موسى ربيبه السابق ، وشرع يمن ويظهر فضله عليه بأنه تربى في بيته ، وهذا يقتضى أن يكون وفياً له ، بعيدًا عن كل ما يغيظه ، ثم ذكره فرعون بما اقترفه من قتل الرجل الفرعوني وأن من ارتكب جريمة قتل كان آثمًا بعيدًا عن رحمة ربه وليس جديرًا به أن يدَّعى حمل رسالته ، فردَّ موسى على هذه المسألة بأنه لم يقصد قتل الفرعوني بل وكزه وهو جاهل بأنها ستؤدي به إلى الموت، وأضاف قائلاً : وقد خفت أن تعاقبوني على قتل لم أقصده فخرجت من مصر فرارًا منكم فوهب لي ربي بعد ذلك حكمة واصطفاني لنبوته .

ولم ينس أن يرد على فرعون ما امتنَّ عليه به فأجابه : ولكن أي نعمة تمنها عليَّ ؟ هل تربيتك لي وأنا طفل تعدها نعمة عليّ وأنت قد استعبدت بني إسرائيل؟

فإن كنت قد اسديت إليَّ نعمة فقد لاقى قومي منك الذل والهوان فإني أتألم لآلامهم . وأشفق لحالهم .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٨ - ٢٢] .

محاورة بين موسى وفرعون في ربوبيةالله تعالى :

استغرب فرعون رسالة موسى ، فشرع يجادله في ربوبية الله تعالى !!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ - ٢٨] .

يذكر الله تعالى ما كان بين فرعـون وموسى ، من المقاولة والمحاجَّة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم ، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسِّية .

وذلك أن فرعون أظهر جحـد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات : ٢٣ - ٢٤] .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور ، الإله الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] .

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبـيل الإنكار لرسالته ، ولإظهار أنه ما ثَمَّ ربٌّ أرسله : ﴿ وما ربُّ العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

لأنهـما قـالا له : ﴿ إنا رسولِ رب العالمين ﴾ فكأنه يقـول لهمـا : ومن رب العالمين؟ الذي تزعمانه أنه أرسلكما وابتعثكما ؟

فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [

الشعراء : ٢٤] ، يعني رب العالمين ، خـالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن ، أنهـا لم تحدث بأنفسهـا ، ولا بد لها من مُوجـد ومُحدث وخالق ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، رب العالمين .

فقال فرعون لوزرائه وحاشيتـه على سبيل التهكم والتنقُّص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشعراء :٢٥] يعني كلامه هذا .

قال « موسى » مخاطبًا له ولهم : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشعراء :٢٦] . أي : هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد ، فـإن كل أحد يعلم ، أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين .

ومع هذا كله ، لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع من ضلالته ، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ، ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء : ٢٧ - ٢٨] .

أي : هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسيِّر للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضـياء ، ورب الأرض والسـماء ، ورب الأولين والآخـرين ، خالق الشـمس والقـمر والكواكب الـثائرة، والثـوابت الحـائرة ، خالق الليـل بظلامه ، والنهـار بضيـائه، والكل تحت قهره وتسخـيره وتسيـيره سائرون ، وفي فلك يسبـحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون . فـهو تعالى الخالق الملك المتصرف في خلقه بما يشاء . فلما قـامت الحجج على فرعون ، وانقطعت شبـهه ، ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩ - ٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام ، أظهر فيه الخارق العظيم ، الذي بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، أي عظيم الشكل ، بديع في الضخامة ، والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتى قيل : إن فرعون لما شهد ذلك وعاينه ، أخذه رعب شديد ، وخوف عظيم .

ومع هذا كله ، لم يرتدع فرعون ، ولم ينتفع بشيء من ذلك ، بل استمر على عناده وكفره وغيه وطغيانه ، وأظهر مدعيًا أن كل هذا سحر ، وأراد أن يعارض موسي بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ، ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته فأظهر الله الحق المبين ، والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملأه ، وأهل دولته وملته ، ولله الحمد والمنة .

سِحر ومعجزة :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٦ - ٥٩] .

رأي فرعون وحاشيته - المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام- فعمدوا إلى التمادي في تكذيب موسى ، وأحالوا ذلك منه إلى السحر ، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكدين أنه ساحر عليم بالسحر ! وغايته في ذلك أن يخرجهم من أرض مصر بسحره ليتملك عليها ، ثم سألهم ماذا يشيرون بأمره ؟ فأشار الأشراف على فرعون بأن يمهل موسى وأخاه ويبعث في طلب السحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى لأن هذه المعجزة التي أتى بها متى كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها تنهار معجزته وتتلاشى دعوته .

أرسل فرعون أعوانه في أنحاء مصر ليـأتوه بالسحرة ، فجاءوه بكثيرين منهم ، فطلب السحرة من فرعون الأجر الجزيل إذا تفـوقوا على موسى في سحره ، فقبل فرعون ذلك ووعدهم بجعلهم من المقربين ، هذا وقـد كانت للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر يُعني به الملك والأمراء ويكافئـون عليه وهذا أمر كشفت عنه الآثار المصرية حديثًا .

جاء اليوم الموعود لالتـقاء السحرة بموسى ، وتدفقت جماهير غـفيرة إلى ساحة العرض ، وكان ذلك في يوم الزينة - يوم عيدهم .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٤٣] .

ولما اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له :
﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه :٦٥-٦٩] .

دخل موسى عليه السلام في حوار مع السـحرة هل يلقون سحرهم ، أو يلقى هو عصاه أولاً ؟ فـأصر موسى على أن يلقـوا سحرهم أولاً ، وكان عتـادهم العصي والحبـال ، فألـقوها فـامتـلأ مكان العرض حـيات وثعـابين ، وخيل إلى مـوسى والجماهيـر أنها تسعى ، فخاف الناس من هذا المشـهد ، وأوقع في قلوبهم الرهب والرعب . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا

بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] . ابتهج فرعون وقومه وأيقنوا بنجاح السحرة ، وأن موسى لا يمكنه التفوق عليهم ، ولكن الله أوحى لموسى أن يُلقي عصاه ، فألقاها كما أُمر فإذا هي حية تبتلع بسرعة ما يكذبون ويموهون مما عرضوه من السحر . ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] . فعند ذلك وهنالك ، أسقط في يد فرعون ، وتحقق السحرة بما عندهم من العلم ، أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ، ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم الغشاوة والغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، فأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] .

قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة ، ولما رأى فرعون السحرة وقد أسلموا . ورأى أمرًا بهره ، قال للسحرة ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ [طه : ٧١] أي : هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع ، بحضرة رعيتي ؟ ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ يقصد موسى على السلام : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣] .

وهذا الذي قاله من البهتان ، الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم ، يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف . ثم قال فرعون للسحرة بعد إيمانهم : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ

ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ [طه: ٧١] .

قال ابن عباس: كان فرعون أول من صلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، الرجل اليمني واليد اليسرى، واليد اليمني والرجل اليسرى، فقال السحرة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ [طه: ٧٢] . أي: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات، والدلائل القاطعات . ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي: افعل ما قدرت عليه . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ٧٢] أي: إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة، صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له، واتبعنا رسله . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٣] أي: ثوابه خير مما وعدتنا به، من التقريب والترغيب، ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي: أدوم من هذه الدار الفانية . وفي الآية الأخرى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١] .

الصمود:

وبدأ التعذيب والتأديب والتشويه والتنكيل . ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلى على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ [طه: ٧٢] . إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع . كما أنه لا يخضع ولا يخنع . الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ وما دام الأمر كذلك فيا أقدام الصبر احملي، بقي القليل، وقبل لقاء الله ماذا يطلب أهل الإيمان ؟ إنهم يطلبون الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦] ووقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان .

قال ابن عبـاس : أصبحوا سحـرة فجرة وأمسوا شهـداء بررة . فرضي الله عنهم أجمعين .

هامان يبني الصرح :

كان « **هامان** » وزير العـمارات لفرعون ، وكـان أقرب المقربين إليه فـهو محط سره ، وعلى درجته في الكفر ، وهذا يـتضح من مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ [القصص:٨] . وأراد فرعون أن يتغفل قومه كما قال تعالى : ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه**﴾ فأصدر أمره إلى وزيره « هامان » أن يبني له قصرًا عاليًا حتى يطلع إلى إله موسى .

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ [غافر: ٣٦ ، ٣٧] وفي سورة أخرى : ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [القصص :٣٨] .

فهل هناك سفـه أكبر من هذا السفه ، وهل يوجد خـبل أشد من ذلك الخبل ؟ لقد كشف فرعـون نفسه ، إنه يطلب من هامان أن يبني له صرحًا عـاليًا . يصعد فوقه ، ليـرى إله موسى في السماء ، والأغرب مـن هذا وأعجب أن هامان وافق فرعون على هذا الرأي ، وبدأ فعلاً في بناء هذا الصرح ، وروي صاحب تفسير « الكشاف » : أن فرعون ارتقى فوق هذا الصرح ، ورمى بسهم إلى السماء ، وأراد الله أن يفتنهم ، فرد النصل إليـه مخضبًا بالدم ، فقال : لـقد قتلت إله موسى ، وعندها بعث الله جبريل عليه السلام فـضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع .

قال القرآن مـعقبًا : ﴿**وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ**﴾ [غافر:٣٧] والتباب : الهلاك والخسران .

فرعون ينتقم من بني إسرائيل :

رأى فرعون الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام فتمادى في كفره ، وأصر على عناده . ولامه الملأ من قومه على ترك موسى وأتباعه يعبدون إلهًا غيره. وفي هذا من الفساد ما فيه[1] ... فطمأنهم فرعون قائلاً ، سنقتل أبناءهم وسنترك نساءهم أحياء لاسترقاقهن ، ثم شرع يحقق وعيده السيئ وضج بنو إسرائيل بالشكوى إلى موسى ، فأوصاهم عليه السلام بالاستعانة بالله وحده ، والصبر ووعدهم بحسن العاقبة إذا ما اتقوا وأحسنوا ، ولكن ذهبت وصاياه سدى أمام البلاء الماحق ، وقالوا له : أوذينا قبل أن تأتينا برسالتك كما أوذينا بعد مجيئك لنا بهذه الرسالة ، فقال لهم مواسيًا : لعل الله أن يهلك عدوكم ، ويجعلكم خلفاءه في الأرض التي وعدكم بها ، ليرى كيف تعملون :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف :١٢٧-١٢٩] .

مؤمن آل فرعون :

وبعد كل هذا البطش الذي صبه فرعون على بني إسرائيل ، فكر في قتل موسى ومن معه ، وقامت الاجتماعات ، وعقدت المؤتمرات . ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر :٢٦] . وبينما هم يتشاورون إذا برجل منهم - كان يكتم إيمانه بموسى من قبل - فلما رأى تآمرهم على قتل العبد الصالح ، ضاق ذرعًا .

---

(١) على حسب زعمهم .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩] .

وهذا الرجل قيل : هو ابن عم فرعون . قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم . صدع هذا المؤمن بكلمة الحق . وفي الحديث الصحيح : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » . وهذا أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشد جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبي ، ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه ، والله أعلم .

قال : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله** ﴾ أي : من أجل أنه قال : ﴿ **ربي الله**﴾ فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام . يعني لأنه ﴿ **قد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ أي : الخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمَّن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة ، لأنه ﴿ **وإن يك كاذبا فعليه كذبه** ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ **وإن يك صادقا** ﴾ وقد تعرضتم له ﴿**يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾ أي : وأنتم مشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : ﴿ **يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض** ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز ، فإنه ما تعرضت الدول للدين ، إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم. وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة ، لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه ، من الملك والأملاك والدور والقصور ،

والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل سافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الرشيد التابع للحق ، الناصح لقومه . الكامل العقل ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فمن ينصرنا عن بأس الله إن جاءنا ﴾ أي : لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة ، والقوة والشدة ، لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك.

قال فرعون : أي في جواب هذا كله : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي : ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وكذب في كل من هذين القولين ، وهاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه ، أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغيًا وعدوانًا وعتوًا وكفرانًا . قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤].

وأما قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فقد كذب أيضًا ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضُّلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال ، في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال.

فردٌ مؤمن آل فرعون على فرعون وحاشيته : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٠ - ٣٥] .

يحذرهم ولي الله إن كـذبوا برسول الله موسـى ، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات ، والمثلات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ، مما حل بقوم نوح وعـاد وثمود ،ومـن بعدهم إلى زمـانهم ذلك مما أقـام به الحـجج على أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاءت به الأنبـياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، ومـا أنجى الله من اتبعـهم من الأولياء . وخوفـهم يوم القيـامة هو يوم التناد ، أي حين ينادي الناس بعـضهم بعضًـا ، حين يولون إن قدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سـبيـلاً ، يوم يحل الله بهم البـأس ، فـيودون الفـرار ولات حين مناص.

ثم أخبـرهم عن نبوة يوسف في بلاد مـصر ، ومـا كان منه من الإحـسان إلى الخلق في دنياهم وأخـراهم ، وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الـناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشـركوا به أحدًا من بريته ، وأخبـر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل .

ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ [غافـر:٣٤] أي : وكذبتم في هذا . ولهـذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ [غافـر:٣٤، ٣٥] . أي : يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحـيده ، بلا حـجة ولا دليل عندهـم من الله ، فإن هذا أمـر يمقـته الله غـاية المقت ، أي يبغض من تـلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق . ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافـر:٣٥] . وما زالت نصائح مؤمن آل فـرعون تتوالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر:٣٨ - ٤٠] .

يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد الحق ، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ، ثم زهدهم في الدنيا الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم في طلب الثواب من عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه . القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه ، الذي يعطي على القليل كثيرًا ، ومن عدله لا يجازي على السيئة ، إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمنًا قد عمل الصالحات ، فله الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد ، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد . ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه .

فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٤] . كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون .

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لا تملك لهم من نفع أو إضرار .

فقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : لا تملك تصرفًا ولا حكمًا في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار . وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم ، فيدخل طائعهم الجنة

وعاصيهم النار ، ثم توعدهم إن استمروا على العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

مآل الأبرار وعاقبة الأشرار:

وبعد أن أقام مؤمن آل فرعون الحجة على فرعون وجنوده ، بأحلى عبارة وأجمل إشارة ، وفي النهاية : يفوض أمره إلى الله البصير بعباده ، فهو من وراء القصد ، وبيده سبحانه وحده الشقاء والسعادة هموا بقتله ، فنجاه الله من مكرهم، وأحبط الله كيدهم ورد سهامهم إلى نحورهم ، ووقاه سيئات ما مكروا ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٥ ، ٤٦] ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥] . والله غالب على أمره . والحمد لله رب العالمين .

السيدة آسية تحت وطأة التعذيب :

تقدم معنا أن السيدة « آسية » زوجة « فرعون » قالت لما رأت سيدنا موسى وهو رضيع : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩] ولما بعث عليه السلام آمنت به ، وأسلمت لله رب العالمين ودعاها فرعون للكفر فأبت ، فعذبها . وقيل : ظلت تحت وطأة التعذيب حتى فاضت روحها لخالقها سبحانه وتعالى ، وإليك أخي القارئ أقوال العلماء في صفة تعذيبها رضي الله عنها :

عن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب رب موسى وهارون ، فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد

ليس فيه روح ، فقولها : ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ .

وعن سلمان ، قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

وعن أبي العالية : أن فرعون أوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ **رب ابن لي عندك بيتا في الجنة** ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها ، وضرب الله بها المثل : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التحريم: ١١] قالت العلماء : اختارت الجار قبل الدار .

وقال الإمام القشيري : قالوا : صغرت همتها حيث طلبت بيتًا في الجنة وكان من حقها أن تطلب الكثير ، ولا كما توهموا ، فإنها قالت :رب ابن لي عندك، فطلبت جوارالقربة ، ولبيت في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار[١] .

* * *

---

(١) فائدة : قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدًا بذنبه .

قصة ماشطة بنت فرعون

قيل كانت زوجة مؤمن آل فرعون ، فالله أعلم . آمنت برب موسى وهارون .. وشم النبي ﷺ رائحتها ليلة الإسراء والمعراج ، وكانت رضي الله عنها تتولي تسريح شعر بنت فرعون .

فما قصتها ؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « **لما أسري بي مررت برائحة طيبة ، فقلت لجبريل ، ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه ماشطة آل فرعون ، وأولادها ، كانت تمشط ذات يوم شعر بنت فرعون ، فوقع المشط من يدها ، فقالت: بسم الله ، فقالت بنت فرعون : أبي ؟ قالت : لا ، بل ربي ورب أبيك ، فقالت : لأخبرن بذلك أبي ، فلما أخبرته دعا بها وبولدها ، قال لها : من ربك ؟ فقالت : إن ربي وربك الله ، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها[1] أن تلقي فيها ، فقالت له : إن لي إليك حاجة ، فقال : وما هي ؟ قالت :تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنا جميعًا . قال : فلك ذلك لما لك علينا من الحق ، ثم أمر بأولادها فألقوا واحدًا واحدًا حتى بلغ رضيعًا فيهم ، فقال : يا أمه قعي ولا تقاعسي ، فإنك على الحق** » وفي رواية : « **فلم يزل أولادها يلقون في البقرة حتى انتهى إلى ابنٍ لها رضيع ، فكأنها تقاعست من أجله فقال لها : يا أماه ، اقتحمي ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة** » أخرجه أحمد ، وقال ابن كثير إسناده لا بأس به ولم يخرجوه ، والحديث صحيح.

الابتلاء بالنقم بعد النعم :

ثم ماذا ؟ لقد طال حبل الأشرار ، وطال ليل ظلمهم . والله تعالى ليملي

---

(١) وفي رواية : وولدها ، وبدلاً من « بقرة » تنُّور .

للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . لقد علا فرعون في الأرض ، وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، فإلى متى سيظل هذا الكابوس ؟ أما آن لليل أن ينجلي وللقيد أن ينكسر ؟ بلى ، آن .

دعاء وإجابة :

توجه موسى وأخوه هارون إلى الله بالدعاء : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس :٨٨، ٨٩] .

يا رب إنك أعطيت فرعون والأشراف من قومه زينة الدنيا وبهجتها من الأموال والثياب الفاخرة والقصور والجنائن والسلطان ، لكنهم قابلوا هذه النعم بالعناد والكفر وصرفوا الناس عن الإيمان بك ، اللهم امحق أموالهم ، وزد قلوبهم قسوة وعنادًا فلا يوفقوا للإيمان حتى يروا العذاب الأليم رأي العين يصيبهم . بهذا دعا موسى ربه ، وأمَّن علي قوله أخوه هارون ، فقال الله لهما : قد أجيبت دعوتكما فاستمرا علي السير في الطريق المستقيم واتركا سبيل أولئك الذين لا يعلمون سبيل الحق الذي وضح لكما » .

نزول البلاء:

استجاب الله تعالى دعاء موسى وأخيه هارون عليهما السلام وصب العذاب على قوم فرعون صبًا ، ولا عدوان إلا على الظالمين . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ

مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستفد فيها بزرع ولا ينتفع بضرع . وقوله : ﴿ونقص من الثمرات﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار قال كعب : كانت النخلة لا تحمل إلا تمرة واحدة . وأرسل الله عليهم : الطوفان : قال ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وقال مجاهد : الطوفان : الماء والطاعون على كل حال . « والجراد » وهو آفة تأكل الزرع والأشجار والأبواب والثياب والأمتعة وفي عصرنا حدثت آيات مثل « النمل الأبيض » الذي انتشر في بلاد الصومال وغيرها وكان فيما ذكر يأكل الحديد ، وكذلك البكتريا آكلة لحوم البشر ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . «والقمل » صغار الجراد ، كان يأكل المحاصيل ، ويدخل بين ثوب الرجل وبدنه فيمص دمه .

قال سعيد بن جبير : فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدري . « والضفادع » قيل : إن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى النيل ويشير بعصاه من النيل إلى قوم فرعون ، ففعل موسى فخرجت الضفادع من النيل كأنها جيوش غازية ، فملأت أفنيتهم وآنيتهم ، وكان أحدهم لا يكشف ثوبًا ولا إناء ولا طعامًا ولاشرابًا إلا وجد فيه الضفادع . وقيل: كانت الضفادع تتقيأ صديدًا في الأطباق والأطعمة أمامهم .

وقال ابن عباس : إن الضفادع كانت تقذف نفسها في القدور وهي تفور في التنانير وهي مسجورة . وصارت طرق المدينة وشوارعها وقد ملئت بجثث الضفادع، « والدم » : كان أحدهم يرفع الإناء ليشرب منه فيتحول الماء إلى دم نجس ، فكانوا لا يشربون ماء إلا وجدوا فيه الدم[١] . والغريب أن قوم موسى لم

---

(١) وهذه هي التسع آيات المذكورة في سورة الإسراء ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [الإسراء:١٠١] وهي : العصا ، اليد ، السنين ، نقص الثمرات ، الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم .

يصابوا بأي نوع من هذا البلاء .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو الله فرعون ، حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولاً ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ،ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ، ولا أن يعملوا شيئًا ، حتى جهدوا جوعًا . فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] .

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم ، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد ،فأكل الشجر . حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم . فقالوا : مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فقالوا مثل ما قالوا : فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء ، وهكذا كلما رفعت عنهم آية عادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ،هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل لهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ، أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ، ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ به من عبادة المؤمنين.

نهاية الطاغية وجنوده :

عندما أصر فرعون وجنوده على تكذيب موسى ، ومخالفته أقام الله عليهم الحجج العظيمة والقاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحيَّر العقول ، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ، وفي غيهم يعمهون . ولم يؤمن منهم إلا القليل كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣] . فالضمير في قوله : ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر .

ثم أوحى الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتًا مميزة فيما بينهم عن بيوت « القبط » ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أُمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧] وقوله : ﴿ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قيل : مساجد والمعنى المراد هو : الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . ثم جاء الأمر من الله تعالى لموسى عليه السلام بالخروج من مصر ليلاً ، فانطلق بقومه بني إسرائيل سرًا من أرض مصر قاصدًا فلسطين قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾[الدخان : ٢٣] .

علم فرعون بذلك فأرسل أعوانه في الأقاليم يجمعون الناس لتجهيز جيش كبير ليقتفوا أثر بني إسرائيل وليدركوهم قبل أن يهربوا إلى فلسطين ولم يرغب فرعون أن يظهر الخوف فأذاع في مصر أن الفارين شرذمة ضئيلة لا يخشى شرها ، وقد أغاظونا بهربهم وأخذهم أموالنا وحلي نسائنا ، وقد كنا دائمًا متيقظين لهم نتتبع حركاتهم . قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٥٦] . وخرج فرعون وجنوده يتبعون موسى وبني إسرائيل وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وجنات وعيون وكنوز من الذهب ، ومقام كريم من المساكن الفخمة ، لقد

تركوا هذه النعم إلى الأبد لأنهم لن يرجعوا أبدًا إلى وطنهم ، ولكن بني إسرائيل ورثوا مثل هذه النعم في فلسطين . قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩] .

وصل بنو إسرائيل إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس عندئذ أيقنوا بالهلاك ، واستولى الذعر على نفوسهم ، وقالوا لموسى : لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به ، فماذا نفعل والبحر أمامنا ؟ قال لهم موسى : لا تخافوا إن ربي معي سيرشدني إلى طريق النجاة ، عندئذ أوحى الله إليه بأن يضرب البحر بعصاه ، ففعل ، فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقًا يبسًا على عدد أسباط بني إسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر ، وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبروه فرأى طريقًا في البحر فاقتحم هو وجنوده هذا الطريق خلف بني إسرائيل فانطبق الماء على فرعون وجنوده وأغرقهم جميعًا وأنجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل . قال تعالى :

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٠-٦٦].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٧-٧٩].

جثمان يوسف عليه السلام :

عبر موسى عليه السلام بجيشه البحر ، وكان معهم « جثمان يوسف عليه السلام » وكان يوسف عليه السلام كما تقدم قد أوصى علماء بني إسرائيل : إذا خرجوا من مصر ألا يخرجوا حتى ينقلوا عظامه معهم .

قلت : وورد حديث صحيح يثبت هذه الوصية ، وهذا نصه :

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « **ما حاجتك ؟** » فقال : ناقة برحلها وبحر لبنها أهلي ، وفي رواية : « ناقة نرحلها ، وعنزة يحلبها أهلي » . فقال له رسول الله ﷺ : « **عجز هذا أن يكون كعجوز بني إسرائيل** » فقال له أصحابه : ما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ . فقال : « **إن موسى عليه الصلاة والسلام حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق ، فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ قال : فقال له علماء بني إسرائيل : إن يوسف عليه الصلاة والسلام حين حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . فقال موسى : أيكم يدري أين قبر يوسف ؟ فقال علماء بني إسرائيل : ما علم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل ، فأرسل إليها ، فقال : دلينا على قبر يوسف ؟ قالت : لا والله حتى تعطني حُكمي ! فقال لها : وما حكمك؟! قالت : أكون معك في الجنة ، فكأنه كره ذلك . قال : فقيل له : أعطها حكمها ، فأعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء ، فقالت لهم : انضبوا[1] هذا الماء ، فلما أنضبوا قالت لهم : احفروا فحفروا ، فاستخرجوا عظام يوسف[2] فلما أن أقلوه من الأرض ، إذا الطريق مثل ضوء النهار** » أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وصححه الهيثمي والألباني .

---

(١) انضبوا : أي جففوا .

(٢) أي البدن كاملاً من باب إطلاق الجزء ، وإرادة الكل .

قال الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى - : فائدة :

« كنت استشكلت قديمًا قوله في الحديث : عظام يوسف ، لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » حتى وقفت على حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما بدن قال له تميم الداري : ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله ، يجمع أو يحمل عظامك ؟ قال: « بلى » فاتخذوا له منبرًا . أخرجه أبو داود (١٠٨١) بإسناد جيد على شرط مسلم .

فعلمت منه أنهم كانوا يطلقون « العظام » ويريدون البدن كله ، من باب إطلاق الجزء ، وإرادة الكل كقوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ أي صلاة الفجر ، فزال الإشكال ، والحمد لله ».

الغرق :

قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٠-٩٢] .

يُخبر الله تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم الكفرة ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة ، وترفعه أخرى ، وبنوا إسرائيل ينظرون إليه ، وإلى جنوده ، ماذا أحل به وبهم من البأس العظيم ، والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت أناب ، وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : ٨٥] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ،قال جبريل : يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر[1] **وفي رواية : حَمَاء البحر - فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة »**[2] .

وقوله : ﴿ اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ قال ابن عباس وغيره : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم : إنه لا يموت . فأمر الله البحر فرفعه علي مرتفع ، قيل : على وجه الماء ، وقيل : على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ، ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله تعالى عليه .

وقيل : إن هلاك فرعون وجنوده كان في يوم عاشوراء وهو اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى من فرعون . كما قال الإمام البخاري في « صحيحه » عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال النبي ﷺ :« **ما هذا اليوم الذي تصومونه؟** » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، قال النبي ﷺ لأصحابه : « **أنتم أحق بموسى منهم فصوموا** » متفق عليه .

أخي القارئ :

وهكذا تطوى صفحة من صفحات الظلم في تاريخ البشرية . وللظلم في سفر الحياة صفحات وصفحات . فكم روى التاريخ عن رجال من الإنس ، نفخ الشيطان في رءوسهم نفثات الكبر والطاغوت ، فخيل إليهم أنهم خلقوا ليأمروا ويأمرون ليسمعوا ، ويسمعون ليطاعوا ، حتى إذا دانت لهم الدنيا وخضعت أمامهم رقاب العباد ، يقطفون منها ما يشاءون سواء كان فجا أو جنيا فلا هم لهم إلا إزالة العقبات التي تحول بينهم وبين ما يشتهون . وزين لهم الشيطان سوء ما

---

(١) حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه .

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذي (٣١٠٧) . وقال الشيخ الألباني : صحيح .صحيح الجامع (٤٣٥٣) .

كانوا يعملون ، وإذا بتلك الصفحة القائمة تطوى بما فيها فجأة . ثم تضمها أضابير السنين بين دفتيها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء :٦٧] . ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص:٤٢] .

الورثة المستضعفون

سبحانك ربنا تؤتي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء . تعز وتذل وتغني وتفقر، وترفع وتخفض ، لا معقب لحكمك . ولا راد لأمرك . ولا سلطان لمخلوق في ملكك وملكوتك ولا قوة لطاغ أو ظالم أمام عظمتك وجبروتك ، شاءت إرادتك وعدلك أن تسبق رحمتك غضبك وحلمك سخطك ، فكم أرسلت إلى فرعون وآله آيات مفصلات . ونذراً بينات ، لعلهم يتفكرون أو يعقلون ويتذكرون ولا ينسون فلما انتهت الوسائل وذابت جميع العوامل أخذتهم أخذ عزيز مقتدر جبار منتقم ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦] .

ثم تحقق وعدك ، ووعدك الحق ، باستخلاف بني إسرائيل ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥-٦] نعم يا سيدي ، فالأمر أمرك والملك ملكك ، ولا إله غيرك ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] .

الداعية الصبور

الحنين إلى الأصنام :

لقي موسى الأهوال من بني إسرائيل في سبيل دعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وكانت المعجزات التي أيده الله بها كافية لأن تنزع منهم كافة رواسب الوثنية ،

ورغم هذا فقد كانت تعاودهم الوثنية التي ألفوها طوال عهدهم مع المصريين . فمن مظاهر ذلك أنهم عندما جاوزوا البحر مروا على قوم يعبدون الأصنام[١] فطلبوا من موسى أن يتخذ لهم صنمًا يعبدونه مثل هؤلاء الوثنين ، فلامهم موسى على جهلهم وأكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام دينهم باطل وأعمالهم خاسرة ولذا فإن مصيرهم الهلاك ، ثم أبدى عجبه كيف أنهم يطلبون معبودًا غير رب العالمين الذي خصهم بإكرامه ، وفضلهم على الأمم التي كانت في زمانهم بوحيه ورعايته، اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] .

سؤال عجيب : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ﴾ كأنهم بغير إله !! ومتى سألوا ؟ عندما جاوزا البحر ، وعلى أقدامهم أثر الماء ، جحود فوق التصور ، ونفوس يصاحبها التكذيب ، وطبائع مردت على التمرد . التمرد على كل شيء ، حتى على خالقهم ورازقهم « سبحانك ربي» .

المنُّ والسلوى :

وتابع بنو إسرائيل مسيرهم مع موسى في الصحراء ، وجاءوا إلى الشاطئ الشرقي فلم يجدوا ماء لشربهم وسقيًا لدوابهم ، فشكوا أمرهم إلى موسى ، وطلبوا منه الماء ، فأمره الله تعالى أن يضرب الحجر بعصاه ، فلما ضربه تفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل قبيلة منهم عين ترويها . ولما وصلوا إلى سهول شبه جزيرة سيناء ، والشمس فيها شديدة فلا مساكن يأوون إليها ، ولا شجر يلتمسون تحته الظل ، وشكوا إلى موسى ما يلقون من عناء فدعا موسى ربه فساق لهم

---

(١) قال ابن كثير : قيل كانت علي صور البقر .

الغمام يقيهم حرارة الشمس . ولما كان زادهم عرضة للنفاد ، سأل موسى ربه مرة أخرى الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، والمن مادة تنزل من الجو كما ينزل الطل ، تنزل على الحجر وورق الشجر طعمها حلو كالعسل ، والسلوى طائر السماني يأتي إليهن أسرابًا متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرته ، وبعد أن تفضل الله عليهم بهذه النعم أمرهم أن يأكلوا من هذه الطيبات ، ولكنهم كفروا بتلك النعم وطلبوا غيرها ، فكانوا بذلك من الظالمين لأنفسهم ، قال تعالى :

﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٦٠] .

نعمة من الله عظيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها ، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها !! وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، فقرعهم موسى ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً : ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ** ﴾ [البقرة : ٦١] .

أي : هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدون بها ما تشتهون ، وما ترومون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى . وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم ، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾** ﴾ [طه : ٨١] أي : فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار ، ولكنه تعالى مزج

هذا الوعيد الشديد ، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد، فقال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

سؤال الرؤية :

قال تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢-١٤٧] .

أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى سيهلك عدوهم - أي فرعون وجنوده - وأنه سينزل عليهم كتابًا من عنده فيه الأوامر والنواهي التي ينبغي أن يسيروا عليها ، فلما أهلك الله فرعون وقومه سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله تعالى أن يقصد سفح جبل الطور الأيمن ويمكث فيه ثلاثين يومًا صائمًا متعبدًا الله . قال ابن عباس وغيره : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشرة من ذي الحجة . فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ،وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه .

قال ابن كثير : والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات ، وكان فيه صائمًا يقال إنه لم يستطعم الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه

ليطيب ريح فمه ، فأمره الله أن يمسك عشرًا أخرى ، فصارت أربعين ليلة ، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » فلما عـزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسـرائيل أخاه هارون ، المحبب المبجل الجليل ، وهوابن أمـه وأبيـه ، ووزيره في الدعـوة إلى مصطفيه فوصاه ، وأمره وليس في هذا العلو منزلته في نبوته منافاة .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا** ﴾ أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿ **وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ أي : كلمه من وراء حجاب ، إلا أنه أسمعه الخطاب ، فناداه وناجاه وقربه وأدناه ، وهـذا مقام رفيع ومعـقل منيع ، ومنصب شريف ، ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسـلامه عليه في الدنيا والآخرى ، ولما أعطي هذه المنزلة العليـة والمرتبة السنـية وسمع الخـطاب ، وسأل رفع الحـجاب ، فـقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي** ﴾ ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقـوي وأكـبر ذاتًا وأشـد ثبـاتًا من الإنسـان لا يثـبت عند التـجلي من الرحمن، ولهذا قال : ﴿ **وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ وعن أبي موسى عن رسـول الله ﷺ أنه قال : « **إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام بيده القسط يخفض ويرفع . حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** » متفق عليه . قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ ذاك نوره الذي هو نور إذا تجلى لشيء لا يقـوم له شيء . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

قال مجاهد : ﴿ **وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ فإنه أكبر منك وأشـد خلقًا ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتـمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقًا . وعن أنس

أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال هكذا بأصبعه ، ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل . رواه أحمد وابن جرير وصححه . قال ابن عباس : ما تجلى - يعني من العظمة - منه إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكًا ، قال : ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي مغشيًا عليه . وقال السدي : ما تجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة ، فصار الجبل دكًا .

فلما أفاق موسي عليه السلام قال : ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » . رواه البخاري ومسلم .

وقال ابن كثير : وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء علي وجه الغضب والعصبية ، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه ، أفضل البشر بل الخليقة . وثبت عنه بالتواتر ،أنه قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ثم خاطب الله تعالى موسى عليه السلام : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ أي في ذلك الزمان ، لا ما قبله ، ولا ما بعده ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين علي ذلك . وتلقى عليه السلام « الألواح» قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت الألواح من جوهر نفيس ، ففي الصحيح « أن الله كتب الألواح بيده » وفيها تفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام . وأمره الله تعالى أن يأخذها بعزم ونية صادقة وقوية ،وأن يأمر بني إسرائيل أن يضعوها

على أحسن وجوهها وأجمل محاملها. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ فمن خرج على أحكامها وتمرد على أوامرها فسترون عقابي بهم ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

عبادة العجل!!

عندما ذهب موسى لتلقي الألواح، وتم الميقات أربعين ليلة، كان موسى عليه السلام قد استخلف على قومه «هارون عليه السلام» كما تقدم، وفي أثناء غياب موسى عليه السلام، عمد رجل من بني إسرائيل يسمى «السامري» فصاغ عجلاً من الحلي، وقال لهم: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ فعبدوه من دون الله، فما هي قصة السامري؟

قصة السامري مع بني إسرائيل:

كان «السامري» من بني إسرائيل من قوم موسى، رأى يوم انفلاق البحر لعبور بني إسرائيل جبريل عليه السلام يخوض البحر بفرسه «حيزوم» قال المفسرون: جاء جبريل على فرس الحياة. وهي بلقاء أنثى، لا تصيب شيئًا إلا حيي، بمعنى إذا مسّت التراب بحافرها دبت الحياة فيه. فلما رآه السامري على تلك الفرسة عرفه، وقال: إن لهذه الفرس لشأنًا عظيمًا، وأخذ قبضة من التراب الحي لاستغلاله في أغراضه السحرية، وألاعيبه الخداعية، ثم انطلق كالريح فلحق ببني إسرائيل. وانتهز فرصة غياب موسى عن بني إسرائيل، وتأخره عن موعده. وقال لبني إسرائيل: إنما أخلفَ موسى ميعادكم، لما معكم من الحلي المسروقة من المصريين[1] فهي حرام عليكم لأنكم حصلتم عليها بطرق غير مشروعة، وطالبهم بالتخلص منها، وبإلقائها في النار! وفعلاً جمعوا الحلي وألقوها في النار، فصنع السامري من تلك السبيكة عجلاً جسدًا، وألقى قبضة التراب، الحي في فم العجل فخار خوار البقر. واستزلهم الشيطان، وغلبتهم طبيعة الوثنية، التي أشربوها في قلوبهم، فقالوا: هذا إلهنا. نسيه موسى هنا

---

(١) كانت نساء بني إسرائيل قد أخذن ذهبًا من نساء قوم فرعون عند خروجهم من أرض مصر إلى سيناء.

وخرج للقائه على الجبل ، فعبدوه ورقصوا حوله ، وكانت أمنيتهم التي أبدوها لموسى عليه السلام يوم نجاتهم وهلاك فرعون عندما مروا بقوم يعكفون على أصنامهم ﴿ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾ اقرأ : ﴿ **حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ [طه : ٨٧-٨٨] .

ونهاهم هارون عليه السلام وقال : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ فكان ردهم ﴿ **قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾ [طه : ٩٠-٩١] . ولما أنكر هارون عليهم عبادتهم للعجل أشبعوه ضربًا حتى كادوا يقتلوه .

وقبل عودة موسى عليه السلام إليهم ، كان الله قد أخبره بعبادة قومه للعجل ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** ﴾ [طه : ٨٥] .

وعاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفًا بعد أن تلقى الألواح ورآهم موسى على البُعد يعكفون على العجل يعبدونه ويرقصون حوله ، فاستولى عليه غضب شديد ، وثار ثورة عارمة ، وألقى الألواح من يده على الأرض في ثورته فكسرت .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ « **ليس الخبر كالمعاينة ، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت** » أخرجه أحمد وقال الألباني : صحيح . صحيح الجامع (٥٣٧٤) .

وأقبل على قومه قائلاً : ﴿ **يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي** ﴾ [طه : ٨٦] **فقصوا عليه ما حدث من السامري ، وكيف صنع لهم عجلاً فعبدوه ، فأقبل موسى على أخيه هارون فأمسك بلحيته ورأسه بعنف وقسوة قال :** ﴿ **مَا مَنَعَكَ إِذْ**

رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

فأجاب هارون: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفي سورة طه: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، ونزلت هذه الكلمات على قلب موسى عليه السلام بردًا وسلامًا فهدأت نفسه و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ثم انطلق موسى عليه السلام تجاه رأس الأفعى «السامري» وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥] أي: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦]. أراد بذلك أنه رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فألقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حيًّا. ومعنى ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ قال الأخفش: أي زينت. فلما سمع موسى عليه السلام منه ذلك: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]. أي اذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك في الحياة: أي ما دمت حيًّا ﴿أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ ومعنى لا مساس: أي لا يمسك أحد ولا تمس أحدًا، وكان إذا مسه أحد حمّ فلذلك كان يصيح إذا رأى أحدًا: لا مساس.

قلت: هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧] وهو يوم القيامة، أي أن لك وعدًا لعذابك، وهو كائن لا محالة.

قال الزجاج : أي يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد ، ثم قال له : ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه:٩٧] . والمعنى : انظر إلى إلهك الذي دمت وأقمت على عبادته لنحرقنه أي بالنار ، ثم لنذريه في البحر . وهكذا خسر الماكر الكذاب الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣] .

الندم :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

وهكذا وقع ، وقد قال بعض السلف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة ، ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] . فيقال : إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتي لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٤] .

الميقات :

قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٧] .

ذكر ابن عباس وغيره : أن هؤلاء السبعين ، كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع ، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل ، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه ، واقتبروا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل ، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله ، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] . وليس هذا بلازم لقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي مبلغًا ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا من موسى عليه السلام .

وقال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً ، الخير فالخير ، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله ، فقال : أفعل فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل في الغمام ، وقال للقوم :

ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله ، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه ، افعل ولا تفعل ، فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا : ﴿ **يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ فأخذتهم الرجفة ، وهي الصاعقة ، فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا . ﴿ **إن هي إلا فتنتك** ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديته ، لك الحكم والمشيئة ، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت .﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ أي : تبنا إليك ورجعنا وأنبنا . ﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ورحمتي وسعت كل شيء ، كما ثبت في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي** » .

﴿ **فسأكتبها للذين يتقون يؤتون والزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي : فسأوجبها حتمًا لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي** ﴾ الآية ، وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام ، في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه ، وبعد أن دعا موسى عليه السلام ربه أن لا يؤاخذ المجموع بما فعله بعض السفهاء ، فغفر الله لهم ذلك ، وأعاده إلى الحياة . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ**

تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ، ٥٦].

رفع الجبل فوق بني إسرائيل :

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مرارًا ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة ، أي غمامة علي رؤوسهم ، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة اليهود إلى اليوم ، يقولون لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤] . وقال تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي : ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم . ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

قصة التيه :

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا

منْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

والمقصود: أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين، من الحيثانيين، والفزاريين، والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف، وألقاهم في «التيه» يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون. في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعمة الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي: تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي: فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال. ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي عتاة كفرة متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسًا، وأكثر جمعًا وأعظم جندًا، وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذلة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء، وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثارًا فيها مجازفات كثيرة باطلة،

ويدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخامًا جدًا .

فليس صحيحًا ما يقال : إن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحدًا واحدًا ، ويلفهم في أكمامه وحجره وسراويله ،وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال : ما هؤلاء ، ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه !! وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها . ولو كان هذا صحيحًا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام ويقال : إنهما « يوشع بن نون » ، و«كالب بن يوفنا » . قاله ابن عباس وغير واحد . ﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله . ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة . ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه . نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير . هكذا قال قوم موسى عليه السلام لنبيهم .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر ، لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن ، وتكلم غيره من المهاجرين ،ثم جعل يقول : « أشيروا عليّ » حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك . ولما نكل بنو إسرائيل عن القتال وجبنوا عن ملاقاة الجبارين غضب موسى عليه السلام وقال داعيًا عليهم : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون .

﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ عن ابن عباس قال : يعني : اقض بيننا وبينهم ، وافتح بيننا وبينهم وقال غيره : افرق : أفصل بيننا وبينهم . فاستجاب له ربه : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في « التيه » وأنزل عليهم المن والسلوى . ثم كانت وفاة « هارون عليه السلام » ثم بعده بمدة « ثلاث سنين » وفاة موسى عليه السلام ، وأقام الله فيهم « يوشع بن نون » عليه السلام « نبياً » خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة . فلما انقضت المدة خرج بهم « يوشع » عليه السلام ، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم « بيت المقدس » فحاصرها ، فكان فتحها يوم « الجمعة » بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم ، قال : « أي للشمس » إنك مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله « يوشع بن نون » أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون « بيت المقدس » أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون : حطة ، أي: حط عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أمروا به ، ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون : حبة في شعيرة [1] .

وقوله : ﴿ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم ، أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به ، فإنهم مستحقون ذلك.

عظات وعبر

قال الإمام ابن كثير : وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ، مع بيان أن بين أظهرهم رسول الله - موسى - وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم . هذا مع ما شاهدوه من فعل الله بعدوهم فرعون

---

(١) ستأتي القصة بتمامها في الحديث عن « فتح بيت المقدس » إن شاء الله تعالى .

من العذاب والنكال ، والغـرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقـر به أعينهم ، وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشـر المعشار في عدة أهلـها وعدوهم ، فظهرت قـبائح صنيعـهم للخاص والعام ، وافـتضحوا فـضيحـة لا يغطيها الليل ولا يسـترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعـمهون ، وفي غيـهم يترددون ، وهم البغضـاء إلى الله ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحـباؤه ، فـقـبح الله وجوههم التـي مسخ منهـا الخنازير والقرود وألزمهم لـعنة تصبحهم إلى النار ذات الوقـود ، ويقضي لهم فيهـا بتأبيد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جمع الوجود . اهـ .

* * *

قصة بقرة بني إسرائيل

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٦٧-٧٣] .

وما زالت آيات الله تعالى تتوالي على بني إسرائيل ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٦] .

ماذا حدث ؟

قال السدي : كان رجل من بني إسرائيل مكثراً من المال ، فكانت له ابنة ، وكان له ابن أخ محتاج ، فخطب إليه ابن أخيه ابنته ، فأبي أن يزوجه ، فغضب الفتى وقال : والله لأقتلن عمى ، ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ، ولآكلن ديته، فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل ، فقال يا عم ، انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء لعلي أن أصيب منها ، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني فخرج العم مع الفتى ليلاً ، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه ، كأنه لا يدري أن هو فلم يجده ، فانطلق نحوه ، فإذا بذلك السبط مجتمعين عليه ، فأخذهم ، وقال : قتلتم عمي، فأدوا إليّ ديته ، فجعل يبكي ويحثو التراب علي رأسه وينادي ، واعماه ،

فرفعهم إلى موسى عليه السلام فقضى عليهم بالدية ، فقالوا له : يا رسول الله ، ادع الله لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية ، فوالله إن ديته علينا لهينة ، ولكن نستحي أن نعير به فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] فقال لهم موسى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا : نسألك عن القتيل وعمن قتله ، وتقول: اذبحوا بقرة أتهزأ بنا : ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال ابن عباس : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكن شددوا وتعنتوا على موسى ، فشدد الله عليهم فقالوا : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة :٦٨] .

والفارض : الهرمة التي لا تولد ، والبكر : التي لم تلد إلا ولدًا واحدًا ، والعوان : النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي : نقي لونها تعجب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة : ٧٠ ، ٧١] . من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها ، وكان رجل في بني إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وإن رجلاً مر به معه لؤلؤ يبيعه ، وكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفًا ؟ فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبي فآخذه منك بثمانين ألفًا ، قال الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستين ألفًا ، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفًا ، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : والله لا أشتريه منك بشيء أبدًا . وأبى أن يوقظ أباه ، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة ، فأبى ، أعطوه اثنين ، فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرًا ، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك ، فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام ، فقالوا : يا نبي

الله ، إنما وجدناها عند هذا[1] وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمنًا ، فقال له موسى: أعطهم بقرتك . فقال : يا رسول الله ، أنا أحق بمالي ، فقال : صدقت، وقال للقوم : أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهبًا ، فأبى ، فأضعفوا له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبًا ، فباعهم إياها وأخذ ثمنها ، فذبحوها ، قال: اضربوه ببعضها ، فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين ، فعاش ، فسألوه : من قتلك ؟ فقال لهم : ابن أخي ، قال : أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته . فأخذوا الغلام فقتلوه.

قلت : وقد وردت روايات بنحو ما ذكرنا عن عبيدة ، وأبي العالية ، وابن عباس وغيرهم . قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر شيئًا من هذه الروايات : وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية ، والسدي وغيرهم ، فيها اختلاف ما ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل . وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا تصدق ولا تكذب ، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم .

ثم ماذا ؟

ثم يقول الله تعالى مخبرًا عن طبيعة بني إسرائيل : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ٧٤] . يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله وإحيائه الموتى ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ كله ، فهي كالحجارة التي لا تلين أبدًا . فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله كما قال تعالى : ﴿ **تسبح له السموات والأرض ومن فيهن** ﴾ ﴿ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ . وهكذا حرم القاتل من :

١- المال. ٢- الزواج ببنت عمه. ٣- الدية. ٤- التمتع بالحياة.

---

(١) في رواية : أنهم وجدوها عند عجوز لها يتامى وهي القيمة عليهم ، وقيل كانت لشاب كان بارًا بأمه .

لأنه قتل قصاصًا : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ ﴿ وقد خاب من افترى ﴾

دع الحـــرص على الدنيـــا وفي العـــيش فـــلا تطمع

ولا تجـــــمع المـــال فـــإنك لا تدري لمن تجـــمع

فـــإن الرزق مــقـســـوم وســـوء الظـن لا ينـفع

فـــقـــيـــر كل من يطمع غـــنـى كـــل مـــن يــقـــنـع

* * *

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر[١] ، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله [٢] ، حدثني أبي بن كعب ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن لي عبدًا بمجمع البحرين [٣] هو أعلم منك . قال موسى : يا رب ، فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتًا ، فتجعله في مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فثم هو . فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ، ثم انطلق ، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سربًا ، وأمسك الله عليه الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غدائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا . قال : ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبًا[٤] .**

قال موسى : ذلك ما كنا نبغي ، فأرتدا على آثارهما قصصًا . قال : يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة ، فرأى رجلاً مسجى عليه بثوب ، فسلم عليه موسى ،

---

(١) في الحديث : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة ، أي قطعة من الحشيش اليابس ، فإذا هي تهتز من خضراء » رواه البخاري .

(٢) قوله : عدو الله ، وكذب : محمولان على إرادة المبالغة في الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة .

(٣) قال قتادة : هو مجمع بحري فارس والروم مما يلي الشرق ، وقال الشعراوي : اتفق العلماء علي أنه التقاء بحرين مع بعضهما ليصبحا بحرًا واحدًا ، وهذه الصورة لا توجد بالنسبة لمسرح بني إسرائيل إلا في جنوب سيناء ، عند التقاء خليج العقبة بخليج السويس عند قمة رأس محمد في أقصي الجنوب من سيناء .

(٤) معناه : اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجبًا .

فقال له الخضر : أنَّى بأرضك السلام[١] .

قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه . قال موسى عليه السلام له : هل أتبعك على أن تعلمني ما عُلمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ؟ قال : نعم . فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة ، فكلّماهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَول[٢] فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلي سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا[٣] ؟ قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسراً . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذا غلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى : أقتلت نفساً زكية بغير نفس[٤] لقد جئت شيئًا نكراً ! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : وهذه أشد من الأولى ! قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه[٥] يقول مائل .

قال الخضر : بيده هكذا ، فأقامه ، قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيفونا ، ولم يطعمونا ، لو شئت لتخذت عليه أجراً ؟

قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر إلى آخر الآية . فإذا جاء الذي

---

(١) المعنى : من أين السلام في هذه الأرض ، التي لا يعرف فيها السلام .

(٢) النول : الأجر .

(٣) إمرًا : أي عظيمًا كثير الشدة .

(٤) أي بغير قصاص لك عليها .

(٥) معناه قرب من السقوط فبناه .

يُسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها فأصلحوها بخشبة ، وأما الغلام فطبع يوم طُبع كافرًا ، وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغيانًا وكفرًا(١) فأردنا أن يبدلهما خيرًا منه زكاة ، وأقرب رحمًا . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما : إلى آخر الآية . قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما».

قال رسول الله ﷺ : « كانت الأولى من موسى نسيانًا ، قال : وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ، ثم نقر في البحر ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقار » رواه البخاري ومسلم .

النص القرآني للقصة

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ

---

(١) أي حملهما عليهما وألحقهما بهما .

بلغت من لدني عذرا ﴿٧٦﴾ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴿٧٧﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴿٧٨﴾ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴿٧٩﴾ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴿٨٠﴾ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴿٨١﴾ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا[1] **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا** ﴾ [الكهف : ٦٠-٨٢] .

من فوائد القصة :

١- استحباب الرحلة في طلب العلم ، واستحباب الإكثار منه .

٢- جواز سؤال الطعام عند الحاجة .

٣- الدلالة على سعة علم الله تعالى ، وهو أنه سبحانة وتعالى أعلم بما كان، وبما يكون ، ومما لا يكون لو كان كيف يكون .

٤- الحث على التواضع في العلم وغيره ، فلا يدعي أحد أنه أعلم الناس .

٥- وفيها بيان أصل عظيم من أصول الإسلام ، وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع ، وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ، ولا يفهمه أكثر الناس، وقد لا يفهمونه كلهم كالقدر ، موضع الدلالة قتل الغلام ، وخرق السفينة .

٦- وفيه قيام العذر بالمرة الواحدة ، وقيام الحجة بالثانية .

٧- العمل بخبر الواحد الصادق .

٨- إكرام اليتامى ومساعدتهم .

---

(١) قال ابن كثير : قيل : إنه كان الأب السابع ، وقيل العاشر ، وعلي كل تقدير : فيه دلالة علي أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، والله المستعان » .

هل كان الخضر نبيًا ؟

قال الإمام ابن كثير : تدل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

الثاني : قول موسى له : **﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾** فلو كان وليًا وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة .

الثالث : أن الخضر عليه السلام أقدم على قتل الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاَّم ، وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقي في خلده .

الرابع : قوله : **﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾** أي : بل أمر أُمرتُ به وأوحي إليَّ فيه .

هل الخضر لا يزال حياً ؟

ذهب بعض الناس إلى القول بحياة الخضر إلى الآن ، وأنه التقى مع بعض «المتصوفة» وهو موجود في كل زمان ، ولكن الدليل لا يسعفهم ، بل القرآن يرد عليهم : قال تعالى : **﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾** وقد قال الله تعالى : **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾** [آل عمران : ٨١] .

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء ، فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره ، فلو كان الخضر حيًا في زمانه ، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة ، ولو كان الخضر حيًا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه ،

وإن كان الحاكم قد رواه ، فإسناده ضعيف ، والله أعلم .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : **« ما من نفس منفوسة أو ما من منكم من نفس منفوسة يأتي عليها مائة عام وهي يومئذ حية »** رواه مسلم وأحمد .

وفي حديث آخر : **« ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة »** رواه الترمذي . قال الإمام ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر . اهـ .

* * *

قصة بلعام بن باعوراء

عندما يتلاعب الهوى بالرءوس ، وتتحكم الشهوات في النفوس ، يتردى الإنسان إلى الهاوية ، وما أدراك ما هيه . نار حامية .

وعجيب أمر هذه الدنيا ، كم من عاشق لها قتلت ، وكم من مفتون بها خذلت، والويل لمن ﴿ **أضله الله علي علم** ﴾ إنه يتساوى مع « الكلب » في أخس حالاته ، نسأل الله تعالى السلامة . هذا ، وصاحب هذه القصة هو : « بلعام بن باعوراء حبر من أحبار بني إسرائيل ، قيل : تلقى العلم على يد « موسى بن عمران » عليه السلام . وكان بحيث إذا نظر رأى العرش ، وهو المعني بقوله : ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾ ولم يقل « آية » وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ، ثم صار بحيث أنه كان أول من صنف كتابًا في أن « ليس للعالم صانع » والعياذ بالله تعالى .

وقيل : كان مجاب الدعوة ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فالله أعلم . قيل: أرسله موسى عليه السلام إلى قوم « مدين» [١] ليدعوهم إلى التوحيد الخالص ، فلما ذهب إليهم ودعاهم ، أغروه بالمال مقابل أن يترك دعوته ، وقيل: وعرض عليه الملك أن يزوجه بأحلى النساء ولما رأي « بلعام » بريق المال ، وجمال النساء ، سال لعابه ، وفكر وقدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر، وقال في نفسه : « الله » أم « الشيطان » ؟ « موسى » ، أم « المال » ؟ «الدنيا » أم « الآخرة » ؟ وصل الضال إلى مجال انعدام الوزن ، دلَّه هواه إلى اختيار المال والشيطان ، فهوى بعد أن اتبع الهدى ، وأصبح في الأرض حيران كالذي استهوته الشياطين ، وتمرغ في الطين بعد أن تربع على قبة الفلك .

وفي الحديث : « **ما ذئبان ضاريان في حظيرة يأكلان ويفسدان فيها من حب**

---

(١) قال مالك بن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلي ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان ، فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه ، وترك دين موسى ، ففيه نزلت هذه الآيات (تفسير القرطبي ٧/ ٢٨٥) .

الشرف وحب المال في دين المرء المسلم » رواه البزار وإسناده حسن . وكان النبي ﷺ يخشى على أمته أن يكون فيهم مثل « بلعام » فعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت عليه بهجته ، وكان عليه رداء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك** » قال : قلت : يا نبي الله ، أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال : « **بل الرامي** » رواه أبو يعلى وقال ابن كثير : إسناده جيد .

وفي رواية عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «**أخوف ما أخاف علي أمتي ثلاث : رجل قرأ كتاب الله تعالى ، حتى إذا رؤيت عليه بهجته وكان عليه رداء الإسلام أعاره الله إياه ، اخترط سيفه ، فضرب به جاره، ورماه بالشرك** » قيل : يا رسول الله : الرامي أحق به أو المرمي ؟ قال : «**الرامي . ورجل آتاه الله سلطانًا ، فقال : من أطاعني ، فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، وكذب ، ليس بخليفة ، أن يكون جنة دون الخالق ، ورجل استخفته الأحاديث ، كلما قطع أحدوثة حدث بأطول منها ، إن يدرك الدجال يتبعه**» رواه الطبراني وقال التويجري : إسناده حسن . قلت : لعل المقصود بالسلطان هنا : السلطان الجائر ، وإلا فالأحاديث الصحيحة . توجب السمع والطاعة للسلطان المقسط .

أما الرجل الثالث : وهو الذي استخفته الأحاديث : هو الرجل الذي يختلق الأحاديث ويرويها والله أعلم . كفر « بلعام » بعد إيمان وضل بعد هدى . ونزل قول الله تعالى يحذر من مشابهته . ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾ الأعراف: ١٧٥- ١٧٧] .

قوله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : يا محمد ، نبأ : خبر : ﴿ **الَّذِي آتَيْنَاهُ**

آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ قال الشيخ كشك - رحمه الله تعالى - : إن السلخ في الأصل : كشط الجلد عن اللحم ، وهو يعطينا أنه لا عودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال ، كذلك عودة هذا الذي أظلم قلبه بحب الدنيا ، عودته إلى آيات ربه أمر محال » . ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ وفي قراءة ﴿ فاتبعه الشيطان ﴾ أي : صار قائدًا للشيطان ، والشيطان خلفه كما قيل :

وكنتُ امرءًا من جند إبليس فارتقى بي ... الحال حتى صار إبليس من جندي

﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي : من الهالكين الحائرين العاملين بخلاف علمهم . ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أي : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات ، التي آتيناه إياها . ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : رضي بالدنيا ، وقال أبو الراهوية : « تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله ، وسجد بلعام للشيطان ، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير وغير واحد . ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي : اتخذه إلهًا يعبد ، قال عطاء : أراد الدنيا وأطاع شيطانه . ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ إنه تشبيه لحاله بالكلب في أخس حالاته ، لا في أمانته وحراسته ، إنما في تعبه وشقائه فهو دائمًا يلهث ، أي : يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة في كل حالاته سواء زجرته وقسوت عليه أم أرحته وعطفت عليه .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : فشبه الله سبحانه من آتاه كتابه ، وعلمه العلم الذي منعه غيره . فترك العمل به ، واتبع هواه ، وآثر سخط الله على رضاه ، ودنياه على أخراه ، والمخلوق على الخالق ، بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات ، وأوضعها قدرًا ، وأخسها نفسًا ، وهمته لا تتعدى بطنه ، وأشدها شرهًا وحرصًا ، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويتروح حرصًا وشرهًا ، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته ، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا ، والجيف القذرة العذرة أحب إليه من الحلوى ، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلا هرَّ عليه وقهره ،

لحرصه وبخله وشرهه . ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة ، وثياب دنية ، وحال رزية نبحه ، وحمل عليه ، كأنه يتصور مشاركته له ، ومنازعته في قوته ، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة ، وضع خطمه بالأرض ، وخضع له ، ولم يرفع إليه رأسه .

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سرٌّ بديع ، وهو أن هذا الذي حاله مما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا ، لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة ، فهو شديد اللهف عليها ، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه ، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى ، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء ، وإذا عطش أكل الثدي من العطش وإن كان فيه صبر على الجوع ، وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثًا يلهث قائمًا وقاعدًا ، وماشيًا ، وواقفًا ، وذلك لشدة حرصه ، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث . قال أبو محمد بن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال الصحة، وحال المرض ، وحال العطش ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، وقال: إن وعظته فهو ضال . وإن تركته فهو ضال . كالكلب إن طردته لهث ، وإن تركته على حاله لهث . اهـ .

﴿ ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٦] . أي : ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود ، بعد أن علموا بها وعرفوها ، فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ أي : فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات ، فإن حديثه المذكور كمثل هؤلاء المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ويعملون فيه أفهامهم فينزجرون عن الضلال ، ويقبلون على الصواب . ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الأعراف:١٧٧] . قال ابن كثير : أي ساء مثلهم ، أن شُبهوا بالكلاب،

التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شـهوة نفسـه ، واتبع هواه صار شبـيهًا بالكلب وبـئس المثل مثله » .
فنعوذ بالله من غضب الله الكبير ، ومن سوء المصير .

* * *

قصة قارون

قال وهب : لما ضربت الدراهم والدنانير أي ظهرت على الأرض حملهما إبليس فقبلهما ، وقال : سلاحي وقرة عيني وثمرة قلبي ، بكما أغرى ، وبكما أطغى ، وبكما أكفر ابن آدم ، وبكما تستوجب النار ابن آدم .

وعن ابن مسعود رضي اللـه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن هذا الدنيار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم** »[1] .

وعن كعب بن عياض - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال** ؟ »[2] .

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - « احذروا المال فإن له ضراوة كضراوة الخمر » . هذا ، وقصة « قارون » تعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق ، وتقرر حقية القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان ، والصلاح، مع الاعتدال والتوازن ، في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**

---

(١) حديث صحيح : رواه البيهقي في « الشعب » والطبراني في « الكبير » وانظر صحيح الجامع (٢٢٤٥) .

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم ، وانظر : صحيح الجامع (٢١٤٨) .

فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣] .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ قال ابن جرير : وقول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى . وقال قتادة : كان يسمى « بالمنور » لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق « السامري » فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقيل : كان من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى للميقات . ﴿**فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ أي : تكبر عليهم وتطاول وتجاوز الحد . قال شهر بن حوشب : ازداد في ثيابه طولاً ترفعًا علي قومه . ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ [القصص : ٧٦] . قال ابن كثير : إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد ، وقد قيل : إنها كانت من الجلود ، وإنها كان تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم ، وعن ابن عباس قال : « كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء » . وقال أبو رزين : يكفي الكوفة مفتاح . ووجه الصالحون إليه خمس نصائح :

الأولى : ﴿ **لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ والمعنى : لا تبطر بما أعطيت ، وتفخر على غيرك ، والفرح المنهي عنه كما قال مجاهد : « الأشر والبطر » ، أي: الذي يدعو صاحبه إلى الوقوع فيما يغضب الله ، وينسيه ذكره وشكره . قال مجاهد : الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

الثانية : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** ﴾ أي : استعمل المال في طاعة الله لتحصل على الثواب الجزيل في الدار الآخرة .

الثالثة : ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ أي : مما أباح الله تعالى لك فيها من

المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقًا . ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك[1] عليك حقًا ، فآت كل ذي حق حقه .

الرابعة : ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ أي : أحسن إلى خلقه بمالك كما أحسن هو إليك .

الخامسة : ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي : لا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم، فتعاملهم ضد ما أُمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك ولم يستمع قارون لهذه النصائح بل ازداد كبرًا وعلوًا وفخرًا . وقال قولته التي قصمت ظهره : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص : ٧٨] . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « لولا رضي الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال وهكذا يقول من لا علم عنده » . وقال الأستاذ عبد السلام بدوي : « وكثيرًا ما نقول هذه العبارة ببساطة ونحن لا ندري أبعادها ، ولا نسبر أغوارها ، كأن يقول أحدنا : لقد كونت ثروتي بذراعي ، ونميت مالي بشطارتي ، وهزمت أعدائي بشجاعتي ناسيًا أن الله هو المدبر والمقدر » .

فرد الله تعالى عليه : ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [القصص : ٧٨] أي: من كثرتها فهم في النار . قال تعالى : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** ﴾ قال الحسن: « خرج في الحمرة والصفرة » خرج في الخدم والعبيد والزينة ، فلما رآه طلاب الدنيا : ﴿ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [القصص : ٧٩] ، ولكن أهل العلم النافع الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها قالوا : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ [القصص: ٨٠] . قال صاحب الكشاف : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضي » . ﴿ **وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ قال ابن جرير :

---

(١) لزورك : أي لزائريك .

ولا يلقي هذه الجنة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة .

نهاية المغرور :

قال تعالى : ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** ﴾ [القصص : ٨١]

وفي الحديث : « **بينما رجل يجر إزاره إذ خُسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة** » رواه البخاري ومسلم . ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ [القصص: ٨١] . أي : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصراً فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره . ولما رأى طلاب الدنيا ما نزل بقارون من غضب الله وعقابه ، رجعوا إلى أنفسهم وندموا على ما كان منهم ﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [القصص:٨٢] . قال الإمام الفخر - رحمه الله تعالى - : اعلم أن « وي » كلمة مفصولة عن « كأن » وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم ، لما شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا : « وي » ثم قالوا : كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة .

وذكر الفراء : أن معنى « ويكأن » أي : ويل اعلم . وقال قتادة : معناه : (ألم تر أن الله) وقال ابن جرير : وهو أقوى الأقوال . ثم يوجهنا القرآن إلى الوجهة الحق ، وإلى الطريق الصواب . وإلى الملك الذي لا يحول ولا يزول : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣] . قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها .

أخي القارئ :

وعلى ما تقدم فإنه ينبغي على المسلم ألا يغتر بكثرة ماله ، فإنه إلى زوال ، وعليه أن يرضى بقسمة الله تعالى يسعد في الدنيا ويهنأ في الآخرة . قال ﷺ :

«إن الله تعالى يبتلي العبد فيما أعطاه ، فإن رضي بما قسمه الله له بورك له فيه ووسعه ، وإن لم يرض لم يبارك له ، ولم يزد على ما كتب له » [١] .

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز ، وجلود الأنعام ، وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعًا وعرضه أربعة ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره ، وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفًا وعرضه ذراعين ، وارتفاعه ذراعًا ونصفًا ويكون مضببًا بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق في أربع زوايا ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان . صنعه رجل يسمى « بصليال » وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان ، ونصف لها ضباب ذهب ، وأكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهبًا ، وأن يعمل صحافًا ومصافي وقصاعًا على المائدة ويصنع منارة من الذهب دلّي فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة ، على كل قصبة ثلاث سرج وليكن في المنارة أربعة قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب ، صنع ذلك « بصليال » أيضًا وهو الذي عمل المذبح أيضًا ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من أيام الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًا وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة

---

(١) **حديث صحيح** : رواه أحمد في المسند . وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٥٨) .

قربانهم وكيفيته وفيه أن « قبة الزمان » كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدًا لله عز وجل ، ويكلم الله تعالى موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه . ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله تعالى إليه من الأوامر والنواهي ، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله تعالى فيه شيء يجيء إلى «قبة الزمان » . ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة ، وقد كان هذا مشروعًا لهم في زمانهم أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ في معبدهم وعند مصلاهم . فأما في شريعتنا فلا . بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ للذي وكله على عمارته « **ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس** » . وقال ابن عباس : « **لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم** » وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة ، وقد كانت « قبة الزمان » هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم ، وإمامهم « كليم الله موسى عليه السلام » ومقدم القربان أخوه « هارون عليه السلام » .

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان ، وهو فيهم إلى الآن ، وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه « يوشع بن نون عليه السلام » وهو الذي دخل بيت المقدس كما سيأتي بيانه والمقصود هنا : أنه لما استقرت يده على بيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي

« الصخـرة » فلهذا كانت قبلة الأنبـياء بعده إلى زمان رسـول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكـان يجعل الكعبة بين يديه . فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشـر ، وقيل : سبعة عشر شهرًا ، ثم حولت القبلة إلى الكعبة ، وهي قـبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر وقيل : الظهر .

موسى عليه السلام والحجر المتحرك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ : « إن موسـى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا : ما يستـتر هذا التستر إلا من عـيب بجلده إما برص ، وإما « أدرة »[1] وإما آفة - وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا ، فخلا يومًا وحده ، فوضع ثوبه على الحجـر ثم اغتـسل ، فلما فـرغ أقبل على ثيابه لـيأخذها ، وإن الحـجر عـدا بثوبه - جرى وتحرك - فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجـر ، وفي رواية : ثوبي يا حـجر ، ثوبي يا حـجر ، حـتى انتهى إلى مـلأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله ، وبرأه الله مما يقولون ، وقام الحجر - أي وقف - فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحـجر ضربًا بعصاه ، فوالله إن لندبًا[2] من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًـا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب :٦٩] . والحديث رواه البخاري ومسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخـيه عند الله ، وطلب منه أن يكون مـعه وزيرًا ، فـأجابه الله إلى سؤاله فأعطاه طلبـته وجعله نبيًا ، كمـا قال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ .

---

(١) الأدرة : نفخة في الخصية .

(٢) الندب : أصله أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد .

وفاة هارون عليه السلام

قال السدي : عن أبي مالك وأبي صالح ، وعن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله أوحى إلى موسى إني متوفٍ « هارون » فائت به جبل كذا وكذا ، فانطلق موسى وهارون نحو هذا الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة قبلها ، وإذا هم ببيت مبني ، وإذا هم بسرير عليه فرش، فإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت ، وما فيه أعجبه قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه . قيل : فلما نام هارون أخذ هارون الموت ، فلما قبض رُفع ذلك البيت ! ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء . فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون ، قالوا : إن موسى قتل هارون . فلما سمع موسى عليه السلام ذلك قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض . اهـ . وبرأه الله تعالى من كذبهم وافتياتهم .

حج موسى عليه السلام إلى البيت العتيق

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كأني أنظر إلى موسى في هذا الوادي محرمًا بين قطوانتين** »[1] .

وفاة موسى عليه السلام

وبعد هذا العمر المبارك ، والجهاد الميمون ، والسفر الشاق ، والابتلاء المستمر الذي لقيه موسى عليه السلام من فرعون وقومه تارة ، ومن بني إسرائيل تارة أخرى ، آن للداعية الصبور ، والنبي الشكور ، أن يترك الدنيا ، دار التعب والنصب ، ليحط رحاله هناك ﴿**في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾.

ماذا حدث بين موسى وملك الموت ؟

* عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **جاء ملك**

---

(١) حديث حسن : رواه الطبراني في « الكبير » ، وانظر : صحيح الجامع (٤٤٦٨) .

الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك ، قال : فلطم موسى عين ملك الموت ، ففقأها ، قال : فرجع الملك إلى الله ، فقال : إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني ، قال : فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة - وفي البخاري - « فله بما غطت يده لكل شعرة سنة ، قال : أي موسى عليه السلام : ثم مه ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن من قريب » . رواه البخاري ومسلم .

* وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أرسل ملك الموت إلى موسى ، فلما جاءه صكه ، أي لطمه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ؟ قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده على متن ثور، أي ظهر ثور ، فله بما غطى يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن من قريب ، قال : فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر - قدر ما يبلغه - قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : « لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر » أخرجه البخاري وأحمد ، والكثيب الأحمر : الرمل المجتمع .

* وعن أبي هريرة أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا ، قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ، ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال : يا رب عبدك موسى فقأ عيني ، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه ، قال له : اذهب إلى عبدي ، وقل له : فليضع يده على جلد أو مسك ثور ، فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه ، فقال له : فقال : ما بعد هذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن . قال : فشمه شمة فقبض روحه » أخرجه أحمد .

تعليقات العلماء :

قال الإمام أبو القاسم التيمي في كتاب « الحجة » . وهذا حديث حكم أهل الحفظ بصحته ، وحمله أهل السنة على ظاهره ، وأن ذلك الفعل كان من موسى على الحقيقة ، وقالوا : فعل ذلك بالإذن ، ولله تعالى أن يأذن فيما يشاء ، وقال

أيضًا : وقـول من قال : معنى « اللطمـة » إلزام الحجة غلط ، لأن في الخـبر أنه عرج إلى ربه فـرد عليه عينه ، ولا يكـون هذا إلا في عين هي حقيـقة لأن العين التي ليست بحقيقة لا تحتاج إلى ردها . وبهذا الرد أخذ ابن حجر وقال : ورد الله إلى ملك الموت عينه البـشرية ليرجع إلى مـوسى على كمال الصـورة فيكون ذلك أقوى في اعتباره وهذا هو المعتـمد ، ثم ذكر ابن حجر رد ابن خزيمة على من أنكر هذا الحديث ثم قـال : قال النووي : لا يمتنع أن يأذن الله لموسى فـي هذه اللطمة امتحانًا للملطوم .

وأهل السنة قـالوا : بأن الصـورة تحكم على الملائكة كـمـا تحكم على الجن ، واسـتدلوا على فقء مـوسى عليـه السلام عين ملـك الموت ورد الله تعالى لهـا . والحديث دلالة واضـحة على تحكم الصورة بالملائكة . ولو كان غـير ذلك لما وقع الفقء والرد ، والنص لا يحتمل التأويل والمجاز لأن ظاهرة لا يستلزم محالاً .

* وقال ابن كثير رحمـه الله بعد أن ذكر الأحاديث الواردة في هذا الشأن : ثم استشكـله ابن حبان ، وأجاب عنه بما حـاصله ، أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه ، لمجيئه له على غيـر صورة يعرفها مـوسى ، كما جاء جـبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صـورة شباب ، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط عليـهما الـسلام أولاً ، وكذلك مـوسى لعله لم يعرفـه ، لذلك لطمه ففـقأ عينه ، لأنه دخل داره بغير إذنه ، وهذا موافق لشـريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن .

* وقال الأستاذ مـجدي فتحي السيد معلقـًا على الحديث : هذا الحديث يجب على المرء المسلم الإيمان به على ما جـاء به من غير أن يعتبره بما جـرى عليه عرف البـشر ، فـيقع في الارتيـاب ، لأنه أمـر مصـدره عن قدرة الله وحكمـه ، وهو مجادلة بين ملك كريم ، ونبي كريم ، كل واحد منهما مخصوص بصفة خرج بها عن حكم عوام البـشر ، ومجاري عـاداتهم في المعنى الذي خص به ، فلا يعتبر حالهما بحال غيرهما ، وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى موسى برسالاته وكلامه، وأيده بالآيات الظاهرة ، والمعجـزات الباهرة كاليد البـيضاء ، والعصـا ، وانفلاق

البحر ، وغيرهما مما نطق به القرآن ، ودلت عليه الآثار ، وكل ذلك إكرام من الله عز وجل أكرمه بها ، فلما دنت وفاته ، وهو بشر يكره الموت طبعًا ، ويجد له حسًا ، لطف له بأن لم يفاجئه به بغتة ، ولم يأمر الملك الموكل به أن يأخذه به قهرًا ، لكنه أرسل إليه منذرًا بالموت ، وأمره بالتعرض له على سبيل الامتحان في صورة بشر ، فلما رآه موسى استنكر شأنه واستوعر مكانه ، فاحتجز منه دفعًا عن نفسه بما كان من صكه إياه ، فأتى ذلك على عينه التي رُكبت في الصورة البشرية ، التي جاء فيها دون صورة الملكية التي هو مجبول عليها ، وقد كان في طبع موسى ﷺ حمية وحدة على ما قص الله علينا من أمره في كتابه من وكزه القبطي ، وإلقائه الألواح ، وأخذه برأس أخيه يجره إليه ، فلما نظر موسى إلى الشخص في صورة بشر ، هجم عليه يريد نفسه ، ويقصد هلاكه ، وهو لا يثبته ، ولا يعرفه أنه رسول ربه دفعه عن نفسه ، فكان فيه ذهاب عينه ، فلما عاد الملك إلى ربه ، رد الله إليه عينه ، وأعاده رسولاً إليه ليعلم نبي الله عليه السلام إذا رأى صحة عينه المفقوءة أنه رسول الله بعثه لقبض روحه فاستسلم حينئذ لأمره ، وطاب نفسًا بقضائه ، وكل ذلك رفق من الله عز وجل ، ولطف منه في تسهيل ما لم يكن بد من لقائه ، والانقياد لمورد قضائه .

* وقال الشيخ سلمان بن فهد العودة : رد على من كذب بهذا الحديث « أما العاهة التي ذكرها واستغرب أن توجد بالملك ، فإن العاهة هاهنا عارضة للصورة التي تصور بها الملك وليست للصورة الأصلية التي خلق عليها ، وقد ثبت أن الملك يتصور للنبي وغيره بصور شتى فلا مانع ، أن يعرض لهذه الصورة عارض لأنها صورة بشرية وليست صورة الملك التي خلقه الله تعالى عليها ، والملك على كل حال عبد مخلوق من عدم وصائر إلى الموت ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وكون موسى عليه السلام وغيره يكره الموت ، ليس أمرًا مستغربًا فكراهية الموت جبلة في كل إنسان ولذلك لما ذكر الرسول ﷺ في حديث عائشة وأبي هريرة وهما في « الصحيح » « **من أحب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه** » . قال له الصحابة : يا رسول الله أكراهية الموت ؟ فكلنا

يكره الموت : فقال النبي ﷺ : « ليس ذلك ولكن المؤمن إذا أحضر بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا أحضر بُشِّر بسخط الله ، وعذابه وناره فكره لقاء الله فكره الله لقاءه » والتابعون لما روي لهم أبو هريرة الكلام نفسه ، قالوا : الإيراد نفسه : « فكلنا يكره الموت » إن كان كذلك فقد هلكنا ، فمن طبيعة الإنسان أن يكره الموت مهما كان ، ولا غرابة أن يكرهه موسى عليه السلام .

قلت : أما تردد ملك الموت بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام فينبغي أن نعلم أن الأنبياء يخيرون عند حضور أجلهم . كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال قبل وفاته : « إن عبدا خيره الله بين مفاتيح خزائن الأرض والخلد فيها والجنة ، وبين لقاء الله والجنة فاختار لقاء الله والجنة » .

من فضائل موسى عليه السلام

أولاً : من القرآن الكريم .

أثنى الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام في القرآن في مواطن كثيرة نذكر منها :

١- قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١] .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] .

٣- وقوله تعالى : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ .

٤- وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [طه : ١٣] .

٥- وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

ثانيًا : من السنة المطهرة :

١- قوله ﷺ : « لا تفضلوني على موسى[1] ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ؟ أم جوزي بصعقة الطور ؟ » متفق عليه .

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **« عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فقلت : هذه أمتي ، فقيل : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلي الأفق ، فإذا سواد عظيم ، ثم قيل : انظر إلى هذا الجانب ، فإذا سواد عظيم ، فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب »** . ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل ، فخاض القوم في ذلك، فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ ، وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا بالله شيئًا قط ، وذكروا أشياء ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : **« ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ »** فأخبروه بمقالتهم فقال : **« هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون »** فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : وأنا منهم يا رسول الله ؟ قال : **« أنت منهم »** ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال : **« سبقك بها عكاشة »** رواه البخاري وغيره .

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام ، كانت شريعة عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء ، وسادات ، وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها .

يوشع بن نون يفتح بيت المقدس

تقدم معنا أن بني إسرائيل جبنوا عن مقاتلة « العماليق » وفتح « بيت المقدس »

---

(١) هذا من باب الهضم والتواضع .

وقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فعاقبهم الله تعالى « بالتيه » ودارت عجلة الزمن ، ومرت الأيام ، ولحق موسى وأخوه هارون عليهما السلام بالرفيق الأعلى ، وكان موسى عليه السلام قد استخلف « يوشع بن نون » على بني إسرائيل ليقوم بالأمر من بعده . فلما انقضت مدة التيه خرج بهم « يوشع بن نون » عليه السلام أو بمن بقى منهم وبسائر بني إسرائيل من « الجيل الثاني » ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم « الجمعة » بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب ، وخشي دخول السبت عليهم ، قال : « أي للشمس » : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله « يوشع بن نون»[1] أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس ، أن يدخلوا بابها سجدًا ، وهم يقولون حطة - أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا - فبدلوا ما أمروا به ، ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون : حبة في شعرة [2] . ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس ، فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبني بها ، ولما يبن بها ، ولا آخر قد بنى بنيانًا ، ولما يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات ، وهو منتظر ولادها . فغزا فدنا للقرية حين صلاة العصر ، أو قريبًا من ذلك . - وفي رواية «فلقي العدو عند غيبوبة الشمس » . فقال للشمس : أنت مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ شيئًا ، فحبست عليه ، حتى فتح الله عليه ، فغنموا الغنائم ، قال: فجمعوا ما غنموا ، فأقبلت النار لتأكله ، فأبت أن تطعمه وكانوا إذا غنموا الغنيمة بعث الله تعالى عليها النار فأكلتها فقال : فيكم الغُلُول [3] فليبايعني من

---

(١) كان الله تعالى قد مَنَّ عليه بنعمة « النبوة » .

(٢) وفي الحديث « قيل لبني إسرائيل » ادخلوا الباب سُجدًا وقولوا حطة ، فبدلوا ، فدخلوا يزحفون على استاههم ، وقالوا : حبة في شعيرة » رواه مسلم وغيره .

(٣) الغلول : الخيانة والسرقة من الغنيمة .

كل قبيلة رجل ، فبايعوه ، فلصقت يد رجل بيده . قال : فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك ، فبايعته ، قال : فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة يده ، فقال : فيكم الغلول ، وأنتم غللتم ؟ قال : أجل قد غللنا صورة وجه برة من ذهب . قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، فوضعوه في المال ، وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم يحل لأحد من قبلنا ، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا ، رحمة بنا وتخفيفًا ، لما علم من ضعفنا»[1] . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٥٨] . وعلى الرغم من أنهم رأوا بأعينهم « **إيقاف الشمس لهم** » وهي آية عظمى تدل على قدرة الخالق الأعظم ، إلا أنهم «**كعادتهم**» تمردوا ، فرفضوا السجود لله عند دخولهم « باب بيت المقدس » ورفضوا الدعاء بالمغفرة ، فدخلوا يزحفون على استاههم ، وقالوا : حبة في شعيرة . قال تعالى : ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [البقرة : ٥٩] . أُمروا أن يقولوا حطة - أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا - فاستهزءوا فقالوا : حنطة في شعيرة ، وهذا غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته . قوله تعالى : ﴿ **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ قال سعيد بن جبير : هو الطاعون . وقال ﷺ : « **الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم** » متفق عليه . وقال ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب .

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس ، استمروا فيه ، وبين أظهرهم نبي الله يوشع عليه السلام يحكم بينهم بكتاب الله « التوراة » حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكانت مدة حياته بعد موسى عليه السلام سبعًا وعشرين سنة ، كذا قال ابن كثير. والله أعلم .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥) بلفظه ، والبخاري (٤/ ١٠٤) ، و مسلم (١٧٤٧) . والحديث صححه الشيخ الألباني ، والغماري ، وابن كثير ، والحافظ في الفتح .

قصة حزقيل عليه السلام

قال ابن جرير في « تاريخه » : لا خـلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القـائم بأمور بني إسرائيل بعد « يوشع » « كالب بن يوقنا» يعني أحد أصحاب موسى عليـه السلام ، وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما « يوشع » و « كالب » وهما القائلان لبني إسـرائيل حين نكلوا عن الجهـاد : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل « حـزقيل بن بوذي » وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حـذر الموت قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

عن أناس من الصحابة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣] . قالوا : كانت قـرية يقال لها : « داوردان » قـبل « واسط » وقع بها « الطاعون » فـهرب عامـة أهلها فنزلوا ناحيـة منها فهلك من بقي في القـرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجـعوا سالمين فقال الذين آمنوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحـزم منا ، لو صنعنا كمـا صنعوا بقـينا ولئن وقع الطاعون ثانيـة لنخرجن معهم ، فوقع في قابل ، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفًا حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو «واد أفـيح » فناداهم ملك من أسفل الوادي ، وآخـر من أعلاه أن مـوتوا ، فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسـادهم مر بهم نبي يقال له « حزقيل » فلما رآهم وقف عليهم فجـعل يتفكر فيهم ، ويلوي شـدقيه وأصابعـه ، فأوحى الله إليه ، تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم ، وإنما كان تفكره أنـه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد ، فنادى : يا أيتهـا العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي ،

فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كـانت أجساد من عظام ، ثم أوحى الله إليه أن ناد : يا أيتها العظام : إن الله يأمرك أن تكتسي لحـمًا ، فاكتست لحمًا ودمًا في ثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له : ناد : فنادى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي فقامت .

قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . فرجـعوا إلى قومهم أحياء يعـرفون أنهم كانوا موتى ، سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عـاد رسمًا حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم ، وقال ابن جرير عن عطاء : هذا مثل : يعني أنه سيق مثلاً مبينًا ، أنه لن يغني حذر من قـدر . وقول الجمـهور أقوى أن هذا وقع . ولم يذكـر لنا مدة لبث « حـزقيل » في بني إسـرائيل ثم إن الله قبـضه إليـه ، فلما قـبض نسي بنو إسرائيل عـهد الله إليهم ، وعظمت فـيهم الأحداث وعبـدوا الأوثان ، وكان في جملة مـا يعبـدونه من الأصنام ، صنم يقال له « بعل » فـبعث الله تعـالى إليهم « إلياس » عليه السلام .

* * *

قصة إلياس عليه السلام

من هو ؟

هو : إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران » . كان قوم إلياس سبطًا من بني إسرائيل نزحوا إلى المدينة المعروفة اليوم بـ « **بعلبك** » وكان هؤلاء القوم يعبدون صنمًا يسمى « بعلاً » أرسل الله تعالى لهؤلاء القوم نبيه « إلياس » يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فقال إلياس لقومه ، ألا تتقون عذاب الله ونقمته بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ؟ . أتعبدون الصنم « بعلاً »[1] وتتركون عبادة الله الذي خلق العالم فأحسن خلقه ؟ فالإله الجدير بالعبادة هو الله ﴿ **رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ .

ولكن هؤلاء القوم كذبوا دعوته فلم يستجيبوا له ، فكان جزاؤهم أن يصيبهم العذاب في الدنيا والآخرة جزاء تكذيبهم له باستثناء عباد الله المخلصين ، وقد جعل الله لإلياس ذكرًا حسنًا على ألسنة من جاءوا بعده لأنه كان من المؤمنين المخلصين في أفعالهم ، وهذا ما ذكره الله بقوله : ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات : ١٢٣-١٣٢] .

قلت : ولقد ذكرت بعض كتب التفسير روايات كثيرة عن قصة إلياس عليه لاسلام كلها متضاربة ، وليس لها إسناد صحيح ، فضربنا عنها صفحًا .

* * *

---

(١) وليس القول بأنه بعث « بعلبك » قولاً متيقنًا .

قصة اليسع عليه السلام

اليسع عليه السلام : من أنبياء بني إسرائيل ، ولم يذكر عن حياته أي شيء ، سوى ما ذكره القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٦] . وفي قوله : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨] . .

(ويروى) عن الحسن قال : كان بعد إلياس « اليسع » عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله تعالى مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث ، والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ . وذكرت كتب التاريخ الكثير عن الأحداث التي حدثت في عهد « اليسع » ولكنها جميعها تدور على مرويات واهية ، أو هي من بيت العنكبوت فتركناها وأهملنا ذكرها .

* * *

قصة فقد التابوت

قال ابن جرير وغيره : مرج بنو إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكًا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضًا ، وكانوا إذا قاتلوا أحدًا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي تقدم ذكره . فكانوا يُنصرون ببركته ، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون . فلما كانوا في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت

عنقه فمات كمدًا على فقد ذلك التابوت وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبيًا من الأنبياء يقال له « شمويل » فطلبوا منه أن يعين لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما قاله ابن جرير ، إنه كان من وفاة يوشع ابن نون عليه السلام إلى أن بعث الله عز وجل « شمويل بن بالي » أربعمائة وستون سنة . والله أعلم .

* * *

قصة طالوت وجالوت

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ

اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣ - ٢٥٢] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو : « شمويل »[1] عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] ألم تر ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور ، لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل ، من كبرائهم وأهل الرأي، منهم إلى نبي لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته « في سبيل الله » وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه في « سبيل الله » يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعدائهم على ضلالة وكفر وباطل ، وهذا الوضوح هو نصف طريق النصر ، فلابد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ، ولابد أن يتجرد في حسه الهدف في سبيل الله . وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة . ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إذا فرض عليكم ؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر ، فأما إذا استجبت لكم فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة ، وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ ونجد أن الأمر واضح في حسهم ، مقرر في نفوسهم ، إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله ، وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم فقتالهم واجب ، والطريق الواحدة أمامهم هي القتال ، ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال . ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم ، ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية .

---

(١) قال ابن كثير : هو شمويل بن بالي بن علقمة بن برخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث ابن عموصا بن عزريا . قال مقاتل : وهو من ورثة هارون » .

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات بني إسرائيل في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ إن الذي يعرف أنه على الحق وأن عدوه على الباطل كما عرف الملأ من بني إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله ، ثم يتولي بعد ذلك عن الجهاد ، ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه ، إنما هو من الظالمين ، من الظالمين لأنفسهم ، ونبيهم ، ودينهم . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات بني إسرائيل فهاهم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ، ويستنكرون أن يكون طالوت الذي بعثه الله لهم ملكًا عليهم ، لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة[1] فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غبش في التصور ، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٧] إنه رجل قد اختاره الله فهذه واحدة . وزاده بسطة في العلم والجسم وهذه أخرى ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ فهو ملكه ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد وهي أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وأن تجلو عنه الغبش ، ولكن طبيعة بني إسرائيل لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، وهم مقبلون على معركة ، ولابد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) قال عكرمة والسدي : كان - أي طالوت - سقاء ! وقال وهب بن منبه : كان دباغًا ، وقيل غير ذلك، والله أعلم .

لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] . وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة التي غلبوا عليها على يد نبيهم « يوشع » بعد فترة التيه ، ووفاة موسى عليه السلام ، قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في « التابوت»[1] الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون ، وقيل : كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاه الله لموسى علي « الطور » فجعل لهم نبيهم علامة من الله ، أن تقع خارقة يشهدونها ، فيأتيهم التابوت بما فيه « تحمله الملائكة »[2] فتفيض علي قلوبهم السكينة وقال لهم : إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت إن كنتم حقًا مؤمنين . ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت ، فانتهى القوم منها إلى اليقين .

ثم أعد « طالوت » جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق ، ثم خرج بهم لملاقاة الأعداء ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ هنا يتجلى مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة ، وهو يواجه جيش أمةٍ غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة ، والإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء ، فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره ، صموده أولاً للرغبات والشهوات ،

---

(١) قال الشيخ محمد أبو شهبة : « والذي نقطع به ، ويجب الإيمان به ، أنه كان في بني إسرائيل تابوت ، أي صندوق من غير بحث ، في حقيقته ، وهيئته ، ومن أين جاء ، إذ ليس في ذلك خبر صحيح عن المعصوم ، وأن هذا التابوت كان فيه مخلفات من مخلفات موسى ، وهارون عليهما السلام ، وأن هذا التابوت كان مصدر سكينة وطمأنينة لبني إسرائيل ، ولا سيما عند قتال عدوهم ، وأنه عاد إلي بني إسرائيل ، تحمله الملائكة » .

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال : « جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت ، والناس ينظرون » .

وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب ، واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش ، ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية.. وصحت فراسته : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ شربوا وارتووا فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف . وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ، انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم ، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة ، والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق ، ودلت هذه التجربة على أن النية وحدها لا تكفي ، ولابد من التجربة العملية ، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى[1] ..... بل مضى في طريقه .

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد . ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] . لقد صاروا قلة ، وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته ، بقيادة « جالوت » إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم ، ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته ، إنها التجربة إلى سمة تجربة الاعتزاز بقوة أخري أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ، وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم ، وهنا برزت الفئة المؤمنة ، الفئة القليلة المختارة والفئة ذات الموازين الربانية . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

---

(١) روي البخاري في « صحيحه » عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب جالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن .

هكذا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ بهذا التكثير ، فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله . القاعـدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبـة الاصطفاء والاختيار ، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ، ولأنـها تمثل القوة الغالبة قوة الله الغالب على أمـره ، القاهر فـوق عـباده ، محطم الجبـارين ، ومـخزي الظالمين وقـاهر المتكبرين . وهم يكـلون هذا النصر لله ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ويعللونه بعلتـه الحقيقـية : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ إذًا هذه الفئـة القليلة الواثقـة الصابرة ، الثابتـة ، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها . إذًا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥٠-٢٥١].

هكذا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضًا من الله يفرغه عليهـم فيغـمرهم ، وينسكب عليـهم سكينة وطمأنينـة واحتمـالاً للهول والمشـقة ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ فهي في يده سـبحانه يثـبتها فـلا تتزحزح ولا تـتـزلزل ولا تميد ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فقد وضح الموقف إيمان تجاه كفر وحق إزاء باطل وكانت النتيجة هي التي ترقـبوها واستيقنوها ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ويؤكد النص هذه الحقيقة ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علمًا ، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون ، ولطبيعة القوة التي تجريه . ويبرز السياق دور داود عليه السلام : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ وداود كان فتى صـغيرًا من بني إسرائيل وجـالوت كان ملكًا قـويًا وقائدًا مخـوفًا ، ولكن الله شـاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها إنما تجري بحقائقـها ، وحقائقها يعلمها هو ، ومقاديرها في يده وحده . وقد أراد سبحانه أن يجعل مصرع هذا الجبار « جالوت» على يد هذا الفـتى الصغـير ، ليرى الـناس أن الجبابرة الـذين يرهبونهم ضـعاف ضعـاف يغلبهم الفتـية الصغار حين يـشاء الله أن يقتلهم ، وكـانت هنالك حكمة أخـرى مغـيـبة يريدها الـله فلقد قـدر أن يكون داود هو الذي يتـسلم الملك بعـد

طالوت، ويرثه ابنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ، جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود . ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وحين ينتهي السياق إلى هذه الخاتمة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وبالإرادة المستعلية لا للكثرة العددية ، حينئذ يعلن عن الغاية العليا مع اصطراع تلك القوى، إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات ، إنما هو الصلاح في الأرض ، وإنما هي التمكين للخير بالكفاح مع الشر ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١].

وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٢] وبهذا ينتهي هذا الدرس القيم الحافل بذخيرة التجارب ليعلم الله به أمة الإسلام أن مصدر قوتها يكمن في قوة إيمانها واتصالها بخالقها وهو سبحانه وتعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

قصـــة داود عليـــه الســـلام

من هو ؟

هو النبي ، الملك ، العابد ، القانت ، الأوّاب ، المجاهد: داود بن أبشا بن عوير بن عابد بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فرص ابن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله وخليفته في أرض بيت المقدس . كان عليه السلام طاهر القلب ونقيه ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في «داود» عليه السلام هذا .

شجاعته عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . قال ابن كثير : فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام ، وأنه قتل جالوت قتلاً أذل الله تعالى به جنده وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها قائد الجيش ، فتغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويؤسر الأبطال والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه . اهـ .

معجزاته عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١٠-١١] . وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .وذلك أن داود عليه السلام أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده الله إلى صنعتها وكيفيتها ، وكان الله تعالى قد آلان له الحديد حتى كان يفتله بيده ولا يحتاج إلى نار ولا مطرقة[1] وكان يعمل كل يوم درعًا يبيعها ، وقد ثبت في

---

(١) قاله الحسن وقتادة والأعمش .

الحديث « أن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده ، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : صنعة الدروع ، قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي : لا توسع الحلقة فتفلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال : ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني في القتال .

العابد الأوَّاب :

عن ابن شبرمة قال : لما نزلت : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ اعتقبوا الليل فكنت لا ترى منهم إلا مصليًا . وعن وهيب بن الورد : أن داود عليه السلام كان قد جعل ليله كله نُوبًا عليه وعلى أهل بيته ، لا تمر ساعة من الليل إلا وفي بيته مصل لله ، فلما كان نوبة داود قام يصلي وبين يديه غدير « مجرى ماء » وكأنه أعجب بما هو فيه وأهل بيته مما فضلوا به من العبادة ، فأنطق الله ضفدعة من الماء فنادته : يا داود كأنك أعجبت بما أنت فيه وأهل بيتك من عبادة ربك ، فوالذي أكرمك بالنبوة إني لقائمة لله منذ خلقني على رجل ما استراحت أوداجي من تسبيحه إلى هذه الساعة ما الذي يعجبك من نفسك وأهل بيتك قال : فتصاغرت إلى داود نفسه . وقال النبي ﷺ : « كان داود أعبد البشر » رواه مسلم . وقال ﷺ أيضًا : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يومًا ويفطر يومًا» متفق عليه .

وعن الجريري قال : بلغنا أن داود سأل جبريل يا جبريل : أي الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما أدري إلا أن العرش يهتز من السحر » رواه أحمد في الزهد . ويروي عن ابن عباس [عن قيام داود] قال : كانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ، ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والأحزان . قال ابن كثير : كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً أو نهارًا ، وكان داود هو المقتدي به في ذلك الوقت في العدل وكثرة العبادة وأنواع

القربات .

حلاوة صوته :

قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ١٧-١٩] . وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ [سبأ: ١٠] .

قال ابن عباس في قوله تعالى : « ذا الأيد » الأيد : القوة في الطاعة وقال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام ، فكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص:١٨-١٩] .

وذلك أنه كان الله تعالى وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء ، يرجع بترجيعه ، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه . وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله بن عامر قال : أعطي داود عليه السلام من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط ، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا .

قال ابن كثير : وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **خفف علي داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده** ». وفي رواية : « **خفف على داود القرآن**[1] **فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده** » أخرجه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت :سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى

---

(١) القرآن هنا : الزبور الذي انزله عليه وأوحاه إليه .

الأشعري وهو يقرأ فقال : « **لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود** » رواه أحمد.

الحكم بقضية الزرع :

أقبلت غنم ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأفسدت الزرع ، وأتت عليه، فاحتكم أصحاب المزرعة إلى داود قائلين : يا نبي الله ، إنا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء ، فقال داود لأصحاب الغنم : أحقًا ما يقول هؤلاء ؟ قالوا : نعم . فقال لأصحاب المزرعة : كم تقدرون ثمنًا لزرعكم ؟ فذكروا له الثمن ، فقال لأصحاب الغنم : كم تقدرون ثمنًا لأغنامكم؟ فقدروه بثمن ما ، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم : ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضًا لهم عن زرعهم . ولكن ابنه سليمان كان حاضرًا يشهد هذه المحاكمة فابتدر أباه قائلاً : لي رأي في هذه القضية ، وهو أن يدفع أصحاب الغنم أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها ، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوي الزرع ، فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم ، فرضي الجميع بهذا الحكم ، وقال داود : وفقت يا بني بهذا الحكم ، وحكم بما أفتى به سليمان ، وهذا ما أشار إليه القرآن.

﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩].

وقوله تعالى : ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا ، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده . وقال ابن جرير : عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلاً لي ، فقال شريح : نهارًا أم ليلاً ؟ فإن كان نهارًا فقد برئ صاحب الشياه ، وإن كان ليلاً فقد ضمن ثم قرأ : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ** ﴾ الآية . قال ابن كثير : وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن

الزهري عن حرام بن سعد بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطًا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها[1] .

وقال القرطبي معلقًا على هذا الحديث : هكذا رواه جميع الرواة مرسلاً . ثم قال : وإن كان مرسلاً فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدث به الثقات ، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى في المدينة العمل به ، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح ، وكان ذلك أرفق بالفريقين ، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين ، وقد وضح الصبح لذي عينين ، ولكن لسليم الحاستين. اهـ.

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان ، فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى » أخرجه البخاري ومسلم .

فتنة داود بين الحقيقة والافتراء

قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص:٢١-٢٥] .

التفسير الصحيح للآيات : أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله ، ومسئولياته نحو نفسه ، ونحو الرعية على الأيام ، وخص كل يوم بعمل . فجعل يومًا للعبادة ، ويومًا للقضاء وفصل الخصومات ، ويومًا للاشتغال بشئون نفسه

---

(١) مرسل : رواه مالك في « الموطأ » (١٤٦٧) في « الأقضية » باب (٢٨) .

وأهله ، ويومًا لوعظ بني إسرائيل . ففي يوم العبادة : بينما كان مشتغلاً بعبادة ربه في محرابه ، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور ، ولم يدخلا من المدخل المعتاد ، فارتاع منهما ، وفزعا فزعًا لا يليق بمثله ، وظن بهما سوءًا ، وأنهما جاءا ليقتلاه ، أو يبغيا به شرًا ، ولكن تبين له : أن الأمر على خلاف ما ظن ، وأنهم خصمان جاءا يحتكمان إليه ، فلما قضي بينهما وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما ، استغفر ربه ، وخر ساجدًا لله تعالى ، تحقيقًا لصدق توبته والإخلاص له ، وأناب إلى الله غاية الإنابة . فالرجلان خصمان حقيقة ، وليسا ملكين كما زعموا ، والنعاج على حقيقتها ، وليس ثمة رموز ولا إشارات ، وهذا التأويل هو الذي يوافق نظم القرآن ويتفق وعصمة الأنبياء ، فالواجب الأخذ به ، ونبذ الخرافات ، والأباطيل التي هي من صنع بني إسرائيل ، وقيل في قوله : ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي : من فزعه الذي لا يليق به .

وقال الشيخ حسن أيوب : والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل ، ومن ثم اندفع داود عليه السلام يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا ، ولم يطلب إليه بيانًا ، ولم يسمع له حجة ولكنه مضى يحكم بقوله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ إلى آخر الآيات . فعاتبه الله تعالى على ذلك ، ونبهه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسماعه للخصم الآخر [1] . فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب .

إسرائيليات

ذكر بعض المفسرين من الأخبار ما تقشعر منه الأبدان ، ولا يوافق عقلاً ولا نقلاً ما محصِّلها . أن داود عليه السلام نظر من طاق في بيته ، فرأى امرأة عريانة تغتسل فأعجبته ، فسأل عنها ؟ فقيل له : إنها امرأة شخص يقال له : « أوريا »

---

(١) قلت : ومال إلى هذا الرأي الإمام القرطبي فقال : قال النحاس فيقال : إن هذه أي قوله : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، كانت خطيئة داود عليه السلام ، لأنه قال : لقد ظلمك من غير أن تثبت بينة ولا إقرار من الخصم هذا كان كذا أو لم يكن ، فهذا قول ، وهذا حسن إن شاء الله تعالي . تفسير القرطبي (٧/ ٥٦١٩) .

فبعثه إلى حرب ، وأمر بأن يحمل التابوت ، وكان حامل التابوت لا يحل له أن يرجع حتى ينتصر الجيش أو يقتل فانتصر الجيش ، وعاد « أوريا » فبعثه مرة ثانية ، وثالثة ، فقتل ، فتزوج امرأته وكان له تسع وتسعون امرأة ، وقيل بل كانت خطيبة أوريا ، فبعث داود يخطبها ، ولم يعلم بخطبتها فآثره أهلها على خطيبها الأول ، فزوجوها له ، وهي أم سليمان ، فبعث الله إليه ملكين في صورة رجلين يختصمان في نعاج ، كنيا بها عن الزوجات ، فلما قضى صعدا إلى السماء وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ، فأدرك خطأه وتاب ! وهذه القصة مأخوذة عن الإسرائيليات وفيها مساس بمقام النبوة ، وخدش للعصمة الواجبة للأنبياء .

أقول : وما يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إنما كانت فتنة داود من النظر** » فحديث موضوع ولا يصح بحال ، والحمد لله تعالى .

وفاته عليه السلام

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تتطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ، والله لتفضحن بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت ، مرحبًا بأمر الله . ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غسل وكفن ، وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير أظلي داود . فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : أقبضي جناحًا** » .

قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية » رواه أحمد . وقال ابن كثير : إسناده جيد قوي ورجاله ثقات . ومعنى قوله : « وغلبت عليه يومئذ المضرحية » أي : وغلبت على التظليل عليه المضرحية ، وهي الصقور الطوال الأجنحة ، واحدها مضرحي ، قال الجوهري : هو الصقر الطويل الجناح . وروي عن

بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعني أنزل أو أصعد ، فقال : يا نبي الله ، نفدت السنون ، والشهور ، والآثار ، والأرزاق ، قال : فخر ساجداً على مرقاة له من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

* * *

قصة سليمان عليه السلام

من هو ؟

هو : سليمان بن داود عليهما السلام .

قال مجاهد : ملك الدنيا أربعة : مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان : فسليمان ابن داود وذو القرنين ، وأما الكافران : فالنمرود بن كنعان ، وبختنصر . وقال كعب الأحبار : كان سليمان عليه السلام أبيض جسيمًا وضيئًا جميلاً يلبس من الثياب البيض ، وكان خاشعًا متواضعًا ، يخالط المساكين ويجالسهم ، ويقول : مسكين يجالس مسكينًا . اختصه الله تعالى بنعم عظيمة منها : تعليمه منطق الطير . قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] أي : ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة** » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة ، من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخص بها أقرباؤهم لأن الدنيا أهون على الورثة ، وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند المرسلين الذين اصطفاهم الله وأرسلهم وفضلهم .

قال وهب : لما استخلف داود ابنه سليمان وعظه فقال : يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ، وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه ، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء . وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس ، وإن كانوا برآء . واقطع طمعك عن الناس ، فإن ذلك هو الغنى . وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر . وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل . وعود نفسك ولسانك الصدق ، والزم الإحسان فإن استطعت أن يكون يومك خيرًا من أمسك فافعل .

ولا تجالس السفهاء ، ولا ترد على عالم ولا تماره في الدين وإذا غضبت فالصق جسمك بالأرض ، وتحول من مكانك ، وارج رحمة الله ، فإنها وسعت كل شيء .

قلت : وهذه الوصية لها شواهد صحيحة من السنة النبوية : ﴿ **وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ [النمل : ١٦] قال الإمام القرطبي : أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود العلم والنبوة والخلافة في الأرض أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها ، ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أي : كل شيء تدعو إليه الحاجة . كالعلم والنبوة ، والحكمة والمال وتسخير الجن وكل ما بين السماء والأرض .

ومنها : تسخير الريح : قال تعالى : ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ [الأنبياء : ٨١] وقال تعالى : ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾ [سبأ :١٢] .

وقال ابن كثير : وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة من : الخيل ، والجمال ، والخيام ، والجند ثم يأمر الريح أن تحمله ، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير وتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض . اهـ .

ومنها : أن الله أجرى له عينًا من نحاس :

قال تعالى : ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ قال ابن عباس وغيره : القطر النحاس الذائب . قال ذو القرنين : ﴿ **آتوني أفرغ عليه قطرًا** ﴾ قال المفسرون : أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء ، وإن ما يعمل الناس اليوم بما أعطي سليمان . وقال قتادة : أسال الله له عينًا يستعملها فيما يريد .

ومنها : تسخير الجن والشياطين :

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ**

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ: ١٢ ، ١٣] . وقال تعالى : ﴿ **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] وقال تعالى : ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴿٣٧﴾ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص : ٣٧ ، ٣٨] فدلت الآيات على أن الله تعالى سخر له الجن والشياطين يعملون له ما يشاء ولا يخرجون عن طاعته . ومن خرج عن طاعته منهم عذبه ونكل به . ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ** ﴾ وهي الأماكن الحسنة . ﴿ **وَتَمَاثِيلَ** ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغًا في شريعتهم وملتهم . ﴿ **وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ** ﴾ كالحياض ، فالجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء . ﴿ **وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** ﴾ حواملها منها فهي ثابتة لا تزول عن أماكنها . وقوله تعالى : ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾ يعني : أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . ﴿ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود ، وهذا كله من جملة ما هيأه الله تعالى وسخره من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضًا لمن كان قبله .

قلت : وكان سليمان عليه السلام قد دعا ربه : ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص: ٣٥] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول : « **أعوذ بالله منك** » ثم قال : « **ألعنك بلعنة الله** » ثلاثًا . وبسط يده كأنه يتناول شيئًا فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال : « **إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ، ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة** » رواه مسلم والنسائي .

قصة سليمان والنملة

قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٧ -١٩] .

قوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ ﴾ الحشر : الجمع ، أي جمع له جنوده من هذه الأجناس . وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده ، وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصح من جهة النقل ، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي لكل طائفة منهم وزعة ترد أولهم على آخرهم ويكفون ، إذ يُكفّ كلٌّ واحد ويُمنعُ من تخطي مرتبته ومكانه وهي أعلى درجة من التنظيم ، والتلاحم ، والانقياد ، وتحرك سليمان عليه السلام بجنوده ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت ، وحذَّرت ، واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وفي هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكبًا في خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط . ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خطابت به تلك النملة أمتها من القول السديد والرأي الرشيد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله تعالى عليه دون غيره . ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] فطلب من الله تعالى أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له . والمراد بوالديه : داود عليه السلام وأمه ، وكانت من العابدات الصالحات . فعن جابر عن النبي ﷺ قال : « **قالت**

أم سليمان بن داود : يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرًا يوم القيامة»[(١)] .

لطيفة :

اعترض رجل الخليفة المأمون العباسي واستوقفه ليعرض عليه مسألته ، فلم يقف له ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الله استوقف سليمان بن داود عليهما السلام لنملة ليستمع إليها ، وما أنا عند الله بأحقر من النملة وما أنت عند الله بأعظم من سليمان ، فقال له المأمون ، صدقت ، ووقف ، وسمع منه ، وقضى حاجته .

قصة سليمان مع ملكة سبأ

أولاً : قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل : ٢٠ - ٢٨] .

يبدأ المشهد الأول في مشهد العرض العسكري العام لسليمان عليه السلام وجنوده، بعدما أتوا على وادي النمل ، وبعد مقالته النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة . ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فها هو ذا

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢٢) ، ورواه البيهقي ، وقال الهيثمي ، وفي إسناده احتمال للتحسين «المجمع» (٢/ ٨٠) .

الملك النبي سليمان في موكبه الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص معين[1] . في نوبته في هذا العرض . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة الجندي من هذا الحشد الضخم من الجن والإنس والطير . وهو يسأل عنه ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لا تكون فوضى . ومن ثم نجد سليمان عليه السلام يتهدد الجندي المخالف ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ولكن سليمان ليس جبارًا في الأرض ، إنما هو نبي فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيًا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي حجة قوية توضح عذره . ويحضر الهدهد ، ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجأة ضخمة لسليمان . ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٦] . وها هو الهدهد يتقدم من القائد إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته . وتضمن إصغاء الملك له ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فأي ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من « سبأ » ومملكة سبأ تقع جنوب الجزيرة باليمن - فذكر أنه وجدهم تحكمهم « امرأة » ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه ».

أي سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغني والترف وارتقاء الصناعة وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهنا : يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والخبء : المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض ، وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض . ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب. صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه . فهو يدرك أن هذه « الملكة » وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم . ولا يتسرع سليمان عليه السلام في تصديقه أو تكذيبه ، ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به ، إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم . ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا يعلن في هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقًا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك .

ثانيًا : رسالة من سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ :

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل : ٢٩ - ٣٥] .

يبدأ المشهد الثاني بوصول الخطاب . وها هي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ

وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وهي تصف الكتاب بأنه كريم وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة ، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم ، ومطلوب فيه أمر واحد ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة برضاهم وموافقتهم ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأي . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة . ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية أشاعوا فيها الفساد ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ، وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدي ، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذي لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ثالثًا : الاستعلاء بالإيمان :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل : ٣٦ -٣٧] يبدأ المشهد

الثالث بوصول رسل الملكة بالهدايا إلى سليمان ، وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام ، ويعلن في قوة وإصرار تهديده ، ووعيده الأخير . ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ وفي الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله ، مجال العقيدة والدعوة ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص ؟ ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ لقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق . العلم والنبوة ، وتسخير الجن والطير ، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ . ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ جنود لم تسخر للبشر في أي مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نضال ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ مدحورون مهزومون .

رابعًا : عرش بلقيس أمام سليمان :

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل : ٣٨ - ٤١] .

ويبدأ هذا المشهد وهو المشهد « الرابع » باستحضار عرش ملكة سبأ ترى ما الذي قصد إليه سليمان - عليه السلام - من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده ، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته . وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروي . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها - فيما

يبدو - فإذا ﴿ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ [١] يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذي عنده علم منه . وهذا الذي عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ، ولاستخدام ما وهبه الله من قول وأسرار . ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان عليه السلام ، وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ، واستشعر أن النعمة على هذا النحو ، ابتلاء ضخم يحتاج إلى عون من الله ، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة ، يمضي سليمان عليه السلام في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التنكير أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير . ولعل هذا كان اختباراً من سليمان لذكائها وتصرفها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور .

خامسًا : إسلام ملكة سبأ :

وهذا هو المشهد الأخير : قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل : ٤٢ - ٤٤] .

---

(١) قيل : هو آصف بن برخيا . وقيل : رجل من مؤمني الجان ، وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جدًا، وقيل : هو جبريل ، تضاربت الآراء . وليس هناك دليل يُعول عليه ويستند إليه .

إنها مفاجئة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها في مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها ، أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جيء به ؟ ومن ذا الذي جاء به ؟ ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير . ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات ؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب ﴿ كأنه هو ﴾ لا تنفي ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة في السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد ردِّ الهدية . ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ثم يتدخل السياق القرآن لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عند ما جاءها كتاب سليمان، فقد نشأت في قوم كافرين . ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ وكان سليمان عليه السلام قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها : ادخلي الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ .

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنة إسلامها مع سليمان لا لسليمان ، ولكن « لله رب العالمين » لقد اهتدى قلبها واستنار ، فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاماً لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

سليمان عليه السلام والخيل :

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص : ٣٠ - ٣٣] .

قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة لله عز وجل . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أي : إذا عرض على سليمان عليه السلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ اضطربت أقوال المفسرين في تفسير المراد من هاتين الآيتين : فقال بعضهم : إنه عليه السلام جلس يومًا يستعرض خيلاً له حتى غابت الشمس - توارت بالحجاب - دون أن يصلي العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل فأخذ في ضرب سواقها وأعناقها بالسيف قربة لله تعالى .

وقال آخرون - و منهم ابن جرير الطبري - إنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًا لها ، لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة ويهلك أموالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها ، ورد عليه ابن كثير قائلاً: وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضبًا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل .

وفي الحديث « **إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه** » أخرجه أحمد في المسند .

ما هي الحقيقة ؟

ذكر صاحب كتاب « مع الأنبيـاء في القرآن الكريم » : أن سليمان عليه السلام أمر بإحضار الخيل[١] بين يديه ، فقال : إني أحببت هذه الخيل لأجل أن أذكر بها ربي[٢] وأعلي شأن دينه . فأنا لا أحـبها لأجل الدنيا ، ثم بدأ استـعراض الخيل فمرت أمامه حـتى غابت عن الأنظار ، ولكن سليـمان لم يشف نهـمه من حب الخيل فـأمر بإحضـارها أمامـه ثانية ، وأخذ يلاطفـها بالمسح بيديـه على سيقـانها وأعناقها ، وهذا درس للمؤمن بأن يكون حبه لله وحده . وإلى هذا الرأي الأخير أميل والله تعالى أعلم .

فتنة سليمان عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص : ٣٤ - ٣٥] .

التفسير الصحيح : قال الشيخ محمد أبو شهبة : والصحيح المتعين في تفسير «الفتنة » هو : ما جاء في الصحـحين واللفظ للبخاري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليـمان بن داود لأطوفن الليلة على سبـعين امرأة[٣] تحمل كل امرأة فارسًـا يجاهد في سبيل الله ، فـقال له صاحبـه قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل واحـدة منهن شيئًا ، إلا واحـدة جاءت بولد ساقط إحـدى شقيه ، فـقال النبي ﷺ : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين».

فهذا هو المتعين في تفـسير الآية ، وخير ما يفسـر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات : أن الترك كان نسيانًا ، والمراد بصاحبه : الملك كما جاء في بعضها .

---

(١) في الآية « حب الخير » ويراد بها الخيل ، هكذا كان العرب يسمونها ، كما كانوا يسمون الخير مالاً .

(٢) أي : أُشربت حب الخير حبًا ناشئًا عن ذكرى لربي ، لأنها عدة الخير وهو الجهاد في سبيل الله .

(٣) هذه معجزة من المعجزات التي امتن الله بها على سليمان عليه السـلام والمعجزة كما عرفها العلماء : أمر خارق للعادة ولقد قال سليمان عليه السلام ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ [النمل : ١٦] .

رأى آخر :

اختار « الفخر الرازي : أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده ، حيث إن سليمان عليه السلام ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف ، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي ، قال : والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ، ثم أناب أي رجع إلى حالة الصحة .

إسرائيليات

من الإسرائيليات : ما يذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص : ٣٤] .

أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء (المرحاض) فأعطى الجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها : هاتي خاتمي ، فأعطته ، فلما لبسه ، دانت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء ، قال لها : هاتي خاتمي ، فقالت له : قد أعطيته سليمان ، قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت ، لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحدًا يقول له : أنا سليمان إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه ألقى الله في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ؟ قلن : نعم ، إنه يأتينا[١] ونحن حُيَّض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له : ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتبًا فيها سحر ، ومكر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها[٢] وقرأوها على الناس ، قالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ، ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه

---

(١) أي : يباشرنا .

(٢) أي : أخرجوها .

وبعث ذلك الشيطان بالخاتم ، فطرحه في البحر ، فتلقته سمكة ، فأخذته ، وكان سليمان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل ، فاشترى سمكًا، فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان عليه السلام فقال له: تحمل لي هذا السمك ، ثم انطلق إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان فشق بطنها ، فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الإنس والجن ، والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه ، وكان شيطانًا مريدًا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يومًا نائمًا ، فجاءوا فبنوا عليه بنيانًا من رصاص فاستيقظ ، فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص ، فأخذوه ، وأوثقوه ، وجاءوا به إلى سليمان عليه السلام فأمر به ، فنقب له في رخام ، ثم أدخل في جوفه ، ثم سد بالنحاس ، ثم أمر به ، فطرح في البحر ، فذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ يعني الشيطان الذي كان تسلط عليه .

رَدُّ العلماء :

انبرى العلماء قديمًا وحديثًا لهذه الرواية فردوا عليها وأنكروها : قال القاضي عياض في « الشفا » : ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به ، وتسلطه على ملكه ، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه ، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا ، وقد عصم الأنبياء من مثله » .

وقال الحافظ ابن كثير : وهذه كلها من الإسرائيليات . وقال الشيخ محمد أبو شهبة : والحق أن نسج القصة مهلهل ، عليه أثر الصنعة والاختلاق ويصادم العقل السليم ، النقل الصحيح في هذا . وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان عليه السلام فأي ثقة في الشرائع تبقى بعد هذا ؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان ، وهو أكرم على الله من ذلك . وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه أو يزولان بزواله ؟ الحق : أن نسج

القصة مهلهل ، لا يصمد أمام النقد ، وأن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها .

ذكر موته عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** (١٤) ﴾ [سبأ : ١٤] .

للمفسرين أقوال كثيرة في تفسير هذا النص القرآني البعض منها بعيد عن العقل، وأقربها إلى المنطق ، « أن سليمان كان في محرابه فأدركه الموت وهو جالس متكئ علي عصاه ، جاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه فانهار الجزء الذي أكلته فاختل توازنه فخر (أي سقط) فدل ذلك على موته، فأقبل أهله عليه ودفنوه وظهر لهم بعد البحث أن الموت حصل من زمن غير قصير[١] ، ولما رأى الجن المسخرون بالأعمال الشاقة موت سليمان أدركوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين هذه المدة الواقعة ما بين موته وعلمهم به ، والذي يظهر أن سليمان كان إذا دخل في محرابه وخلا بنفسه، واعتكف لعبادة ربه لم يستطع أحدًا أن يدخل عليه إلا من بعد أن يأذن له ، ويظهر أن غيابه قد طال حتى اكتشف أمره . والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) ثبت في الحديث الصحيح : « أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » .

قصة هاروت وماروت

قال تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ [البقرة : ١٠٢ - ١٠٣] .

روي السيوطي في « الدر المنثور » في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ روايات كثيرة وقصصًا عجيبة .

خلاصتها : أنه لما وقع الناس من بني آدم فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء : أي رب ، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك ، وطاعتك وقد ركبوا الكفر ، وقتل النفس ، وأكل المال الحرام ، والسرقة والزنا ، وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم فقيل لهم : إنهم في غيب، فلم يعذروهم ، وفي بعض الروايات : أن الله قال لهم : لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا سبحانك ، ما كان ينبغي لنا .

وفي رواية أخرى : قالوا : لا ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمري ، وأنهاهما عن معصيتي ، فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض، وركبت فيهما الشهوة ، وأمرا أن يعبدا الله ، ولا يشركا به شيئًا ، ونهيا عن قتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر، فلبثا على ذلك في الأرض زمانًا ، يحكمان بين الناس بالحق ، وفي ذلك الزمان

امرأة حسنها في سائر الناس كحسن « الزُهرة » في سائر الكواكب وأنهما أراداها[١] على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، وأنهما سألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنمًا ، فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا ، فذهبا فصبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على دينها ، وأن يعبدا الصنم الذي نعبده ، فأبيا ، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم ، قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، أو تقتلا النفس ، أو تشربا هذا الخمر ، فقالا : هذا لا ينبغي ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، وسقتهما الخمر ، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها[٢] !! فمر بهما إنسان ، وهما في ذلك ، فخشيا أن يفشي عليهما ، فقتلاه ، فلما أن ذهب عنهما السكر ، عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، وكشف الغطاء فيما بينهما ، وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما قد وقعا فيه من الذنوب ، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض ، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة ، قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فقالا : أما عذاب الدنيا فينقطع ، ويذهب ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما ، وفي بعض الروايات ، أنهما علماها الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء ، فصعدت ، فمسخها الله ، فهي هذا الكوكب المعروف بالزهرة[٣] .

تعليقات العلماء :

حكم العلماء قديمًا وحديثًا على أسانيد هذه الروايات بالوضع ورفضوها لفظًا ومعنى ، وبينوا عوارها ومن أقوالهم : قال الشيخ محمد أبو شهبة : أسانيدها واهية ، ساقطة ، ولا تخلو من وضاع ، أو ضعيف ، أو مجهول ؟ ونص على وضعه أئمة الحديث ! وقد حكم بوضع هذه القصة الإمام أبو الفرج ابن الجوزي.

---

(١) أي : راوداها عن نفسها .

(٢) أي : فعلا بها الفاحشة !!

(٣) الزُهرة : نجم في السماء .

وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا في معرفة أصول الدين ، وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات : كالإمام الرازي ، وأبي حيان ، وأبي السعود ، والألوسي .

ثم من ناحية العقل غير مسلمة ، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر ، التي لا تصدر من عربيد ، وقد أخبر الله عنهم بأنهم ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾.

وفي رواية أخرى : أن الله قال لهما : لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني ، فقالا : لو فعلت بنا يا ربنا ما عصيناك !! ورد كلام الله كفر ، فنزه عنه من له علم بالله وصفاته ، فضلاً عن الملائكة . ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء ، وتصير كوكبًا مضيئًا ، وما النجم الذي يزعمون أنه الزهرة وزعموا أنه كان امرأة فمسخت إلا في مكانه ، من يوم أن خلق الله السموات والأرض ، ولا أدري ماذا يكون موقفنا أما علماء الفلك ، والكونيات ، إذا نحن لم نزيف هذه الخرافات ، وسكتنا عنها ، أو انتصرنا لها ؟ !! » ا.هـ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ورفع مثل هذه الإسرائيليات أي التي وردت في شأن هاروت وماروت إلى النبي كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب ، زورًا وبهتانًا» .

ما التفسير الصحيح للآية ؟

قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله تعالى ما مختصره : إن الشياطين في ذلك الزمن كانوا يسترقون السمع من السماء ، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ، ويلقونها إلى كهنة اليهود ، وقد دونها هؤلاء في كتب يقرؤنها ، ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : هذا علم سليمان ، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه يسخر الإنس ، والجن ، والريح ، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [البقرة : ١٠٢] . ثم

عطف عليه : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ فالمراد بما أنزل هو : علم السحر الذي نزلا ليعلماه الناس ، حتى يحذروا منه ، وحتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحرًا ، وإنما كان نبيًا مرسلاً من ربه ، وقد احتاط الملكان عليهما السلام ، غاية الاحتياط ، فما كان يعلمان أحدًا شيئًا من السحر حتى يحذراه ، ويقولا له : إنما نحن فتنة أي بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به . ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه ، وذلك بإذن الله ومشيئته . اهـ .

تنبيه مهم : تعلم السحر الآن ، لا يتم إلا بتنفيذ بعض الأمور الشركية التي تخرج الإنسان من الملة والعياذ بالله تعالى ، ولذلك حكم العلماء بكفر مقترفه سواء استعمله في الإضرار أو في دفع الضرر . قال ابن قدامه : تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم . قال أصحابنا (الحنابلة) ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته . وقال الذهبي : فترى خلقًا كثيرًا من الضلال يدخلون في السحر ويظنونه حرامًا فقط ، وما يشعرون أنه الكفر فيدخلون في تعليم الكيمياء وعملها وهي محض السحر ، وفي عقد الرجل عن زوجته وهو سحر ، وفي محبة الرجل للمرأة وبغضها له ، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة أكثرها شرك وضلال .

* * *

قصة أصحاب السبت

قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾ [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦] .

من الصفات المرذولة في بني إسرائيل ، صفة المكر والخداع ، والتضليل ، والتحايل لتحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله ، ولذلكم حذر النبي ﷺ أمته من هذه الصفات . قال ﷺ : « **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** » رواه ابن بطة ، وقال ابن كثير : إسناده جيد . وقال ﷺ أيضًا : « **المكر والخديعة في النار** » رواه البيهقي وصححه الألباني . ومع هذا ، فقد وقع الكثير فيما وقعت فيه بنو إسرائيل فغيروا أسماء بعض المحرمات وزين لهم الشيطان أن تغيير الأسماء يغير حكم الله تعالى عليها ؟ وهذا تلبيس خطير ، فليس معنى تسمية « الرشوة » إكرامية ، و«الربا» فائدة مثلاً أن تصير بذلك حلالاً . هذا ، وقصة « أصحاب السبت » تحذرنا من الوقوع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من التحايل والمكر على الله تعالى ﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ .

ما هي قصتهم ؟

وقعت أحداث هذه القصة في قرية تسمى « أيلة » وتقع على شاطئ بحر القلزم قال ابن عبّاس : إن قومًا من بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر وحطين يقال لها : « أيلة » وقال أيضًا : إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم « يوم الجمعة »

فخالفوا إلى السبت . فعظموه وتركوا ما أمروا به ، فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه ، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره ، فحرم عليهم في « السبت» الحيتان صيدها وأكلها وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت الحيتان إليهم شرعًا إلى ساحل بحرهم ، حتى إذا ذهب السبت ، ذهبن فلم يروا حوتًا صغيرًا ولا كبيرًا ، حتى إذا كان يوم السبت أتين سِراً ، حتى إذا ذهب السبت ، ذهبن فكانوا كذلك، حتى طال عليهم الأمد ، وقرموا إلى الحيتان ، عمد رجل منهم فأخذ حوتًا سراً يوم السبت فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء ، وأوتد له وتدًا في الساحل فأوثقه ثم تركه ، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه ، أي إني لم آخذه في يوم السبت فانطلق فأكله ، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية : والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عثروا عل صنع ذلك الرجل ، قال : ففعلوا كما فعل ، وصنعوا سرًا زمانًا طويلاً فلم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق .

قال الشوكاني : فاحتالوا لصيدها ، وحفروا الحفائر ، وشقوا الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد .

عذاب بئيس :

قال ابن عباس : فقالت طائفة منهم من أهل البقية : ويحكم اتقوا الله ، ونهوهم عما كانوا يصنعون ، وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ، ولم تنه القوم عما صنعوا ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ بسخطنا أعمالهم ﴿ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ فبينما هم على ذلك ، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم ففقدوا الناس فلم يروهم .

قلت : في بعض الروايات : أن الطائفة الآمرة الناهية بنت جدارًا ليحجز بينهم وبين العصاة . قال : فقال بعضهم لبعض : إن للناس شأنًا ، فانظروا ما هو ؟ فذهبوا ينظرون في دورهم ، فوجدوها مغلقة عليهم ، وقد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم ، فأصبحوا فيها قردة ، وإنهم ليعرفون

الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة ، والصبي بعينه وإنه لقرد(١) .

قال الإمام القرطبي : فجعل القرد يأتي قريبه ، فيشم ثيابه ويبكي فيقول : ألم أنهك . فيقول : برأسه بلى . معنى هذا أنهم كانوا في أجساد القرود بعقول البشر، وفي هذا حقًا عذاب بئيس . قال الإمام الحسن : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها ، أثقلها خزيًا في الدنيا ، وأطولها عذابًا في الآخرة .

قلت : وهكذا تفعل شهوة البطن بأهلها وعبادها ، فكم من أكلة أفسدت دنيا العبد وأوبقت أخراه ، ورحم الله القائل : ابن آدم إنما بطنك شبر في شبر فلم تدخلك النار ؟ قال ابن كثير : فلما فعلوا ذلك ، مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهري ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم . ومكثوا ثلاثة أيام على حالتهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ، ثم أماتهم الله تعالى وأبادهم ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « **إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقبًا ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك** » وقال ابن عباس : ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وكذلك يفعل الله بمن يشاء كما يشاء ويحوله كما يشاء .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾** ﴾ البقرة : ٦٥ ، ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾** ﴾ [الأعراف : ١٦٥] . والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين وسكت عن الساكتين ، وقد اختلف فيهم العلماء على قولين . فقيل : إنهم من الناجين ، وقيل : إنهم من الهالكين ، والصحيح الأول عند المحققين وهو الذي رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين . قاله ابن كثير .

---

(١) وقال قتادة : فصار القوم قردة تعاوي ، لها أذناب .

قصة العُزَيْر

من هو ؟

قال الحافظ ابن عساكر : هو عزير بن جروة . **قلت** : وقيل غير ذلك . فالله أعلم .

ما هي قصته ؟

عن ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل ، والحسن وغيرهم قالوا : إن عزيرًا كان عبدًا صالحًا[١] حكيمًا ، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة ، وأصابه الحر ، ودخل الخربة ، وهو على حماره فنزل عن حماره ، ومعه سلة فيها تين ، وسلة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه ، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزًا يابسًا معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها[٢] ، وقد باد أهلها ورأى عظامًا بالية .فقال : ﴿ **أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [البقرة : ٢٥٩] فلم يشك أن الله يحييها ، ولكن قالها تعجبًا ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام ، فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث ، قال فبعث الله إلى عزير ملكًا فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما ، فيعقل كيف يحيي الله الموتى ، ثم ركب خلقه وهو ينظر ، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يري ويعقل[٣] ، فاستوى جالسًا فقال له

---

(١) قال ابن كثير : المشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى .

(٢) قال السُّدِّي : في قوله تعالى : ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ قال : ساقطة على سقفها ، أي سقطت السُّقف ثم سقطت الحيطان عليها ، واختاره الطبري.

(٣) قال الأستاذ / سيد قطب : لو كان الأمر كذلك كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرت من اللحم ، للفت هذا نظره عندما استيقظ ، ووخز حسه كذلك ، ولما كانت إجابته ﴿ لبثت يومًا أو بعض يوم ﴾ لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرّت عظامه وتفسخت . الظلال (١/ ٣٠٠) .

الملك[١] : كم لبثت ، قال لبثت يومًا أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة ، وبعث آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم، ولم يتم لي يوم ، فقال له الملك : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس ، فذلك قوله ﴿ **لم يتسنه** ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر في قلبه ، فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك ؟ انظر إلى حمارك ؟ فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة ، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت ، وأقبلت من كل ناحية ، حتى ركبه الملك ، وعزير ينظر إليه ، ثم ألبسها العروق والعصب ، ثم كساها اللحم ، ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعًا رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقًا يظن القيامة قد قامت ، فذلك قوله : ﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

يعني : وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضًا في أوصالها ، حتى إذا صارت عظامًا مصورًا حمارًا بلا لحم ، ثم انظر ﴿ **ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ [البقرة : ٢٥٩] من إحياء الموتى وغيره ، قال : فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ، وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء ، مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة ، كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة ، كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة ، فقال لها عزير : يا هذه أهذا منزل عزير ، قالت : نعم هذا منزل عزيز ، فبكت ، وقالت : ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا ، وقد نسيه الناس ، قال : فإني أنا عزير كأن الله أماتني مائة سنة ، ثم بعثني . قالت : سبحان الله فإن عزيرًا قد فقدناه منذ مائة سنة ، فلم نسمع له بذكر ، قال : فإني أنا عزير .

---

(٢) قال الإمام القرطبي : والأظهر أن القائل هو الله تعالى . القرطبي (٣/٢٦٦) .

قالت : فإن عزيرًا ، رجل مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد عليَّ بصري حتى أراك ، فإن كنت عزيرًا عرفتك ، قال : فدعا ربه ومسح بيده على عينها فصحتا وأخذ بيدها ، وقال قومي بإذن الله فأطلق الله رجليها ، فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير ، وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل ، وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر سنة ، وبني بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد عليّ بصري ، وأطلق رجلي ، وزعم أن الله أماته مائة سنة ، ثم بعثه ، قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه ، فقال ابنه كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير ، فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير ، وقد حرق بختنصر التوراة ، ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا ، وكان أبوه « سروخًا » وقد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة ، وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب ، قال وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل ، فمن ثم قالت اليهود عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين ، وتجديده التوراة ، وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير « حزقيل » والقرية التي مات فيها يقال لها « سيراباذ » .

قال ابن عباس : فكان كما قال الله تعالى : ﴿ **ولنجعلك آية للناس** ﴾ يعني لبني إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنيه ، وهم شيوخ وهو شاب[1] لأنه مات وهو ابن أربعين سنة ، فبعثه الله شابًا كيهئته يوم مات ، قال ابن عباس : بُعث بعد بختنصر ، وكذلك قال الحسن . قال تعالى : ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ**

---

(١) وذلك لأن الله تعالى كان قد أوقف الزمن عليه ، وعلى طعامه ، وأجراه على حماره ، والله على كل شيء قدير .

بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

* * *

قصة أصحاب القرية

قال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿١٣﴾ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴿١٤﴾ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴿١٥﴾ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴿١٦﴾ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴿١٧﴾ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴿١٨﴾ قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴿١٩﴾ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴿٢٠﴾ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴿٢١﴾ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴿٢٢﴾ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴿٢٣﴾ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴿٢٤﴾ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴿٢٥﴾ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ﴿٢٦﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿٢٧﴾ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴿٢٨﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس : ١٣ - ٢٩] .

ما هي قصتهم ؟

لم يذكر القرآن من هم « أصحاب القرية » ولا ما هي « القرية » وقد اختلفت الروايات ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات . فهي قرية أرسل الله إليها رسولين فكذبوهما أهل تلك القرية . فعززهما الله برسول ثالث ، وتقدموا

ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ هنا اعترض أهل القرية بالاعتراضات المكررة في تاريخ الرسل والرسالات ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ . وفي ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ إن الله يعلم وهذا يكفي . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ، فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله ، ولكن المكذبين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل ، ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى ، فتأخذهم العزة بالإثم ، ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ[1] لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ، وأطلق على الهداة تهديده . ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق . ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ .

فالقول بالتشاؤم خرافة والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ، وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم ، إنما هو معهم مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم ، وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرًا أو أن يجعلوه شرًا ، أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات ، فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم . وقالوا لهم : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ يعني : أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟ . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير وتجاوزون على الموعظة بالتهديد والوعيد ، وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب!

---

(١) التطير : التشاؤم .

الداعية المؤازر :

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾
[يس : ٢٠ - ٢٥] .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة فيها الصدق . والبساطة والحرارة واستقامة الإدراك ، وتلبية الإيقاع القوى للحق المبين فهذا رجل[1] سمع الدعوة فاستجاب لها ، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا ، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله . ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره إلى قومه وهم يكذبون ويتوعدون ، جاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفهم عن البغي . وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته ، ولكنها العقيدة الحية في ضمير تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها . **﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرًا ، إنه لصادق ، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء ، إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله ؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجني من ذلك كسبًا ؟

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وهداهم واضح فهم يدعون إلى إله واحد ، ويدعون إلى نهج سليم ، وإلى صراط مستقيم . ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه ، وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم . **﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾**

---

(١) قيل : هو « حبيب النجار » قاله ابن عباس رضي الله عنه .

أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يس : ٢٢ - ٢٤] . يتساءل لم لا أعبد الذي فطرني ، والذي إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه . ثم يستعرض المنهج الآخر ، المخالف للمنهج الفطري المستقيم فيراه ضلالاً بينًا . ﴿ **أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ** ﴾ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟ ﴿ **إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ ثم يقرر في وجه قومه المكذبين المتوعدين ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة . وأشهدهم عليها ، وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها .

استشهاد الداعية :

يوحي سياق القصة بعد ذلك أي بعد أن قال لهم : ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ أنهم لم يمهلوه أن قتلوه [قيل : رجمًا ، وحكي ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته] . وإن كان لا يذكر شيئًا من ذلك صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ، ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق ، متبعًا صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه المكذبين ، نراه في العالم الآخر ، ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد . ﴿ **قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء ، وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق ، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم ، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين . ونرى الرجل المؤمن ، وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين . ﴿ **يا ليت**

قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ قال ابن عباس : نصح قومه في حياته ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحًا ، لا يلقى غاشًا ، لما عاين ما عاين من كرامة الله قال : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله ، وما هو عليه ، قال قتادة : فلا والله ما عاتب قومه بعد قتله .

ماذا فعل الله بقومه بعد موته ؟

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس : ٢٨ ، ٢٩] . يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبًا منه تبارك وتعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك ، قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي ما كاثرناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال المفسرون : " بعث الله إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون . أي قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف ولا نَفَسٌ يتردد ، ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل ! .

* * *

قصة لقمان الحكيم

من لقمان هذا ؟

لقد طوي القرآن الحديث عن شخصه ، ولكنه فَصَّل حِكَمَه الغرّاء ، لعظيم نفعها ، ولو كان التعريف بشخصه كبير فائدة لذكر القرآن ذلك ، ومع هذا فلا بأس بجمع شيء من كلام المفسرين عنه ويكاد ينعقد إجماعهم على أنه كان حكيمًا لا نبيًّا ، ولم يقل أحد بنبوته إلا عكرمة والشعبي ، كما نقل أبو حيان .

قال ابن كثير : والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيمًا وليًّا ولم يكن نبيًّا .

وقيل : هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال : لقمان بن ثاران حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي . وقال السهيلي : وكان نوبيًا من أهل أيلة .

وقال ابن كثير : قلت : وكان رجلاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة . ويقال : كان قاضيًا في زمن داود عليه السلام فالله أعلم . اهـ (من البداية والنهاية).

وقال بعض المفسرين :

أدرك لقمان داود عليه السلام ، وكان قاضيًا يفتي في بني إسرائيل ، فلما بعث داود ، قطع لقمان الفتوى ، فسئل عن السبب فقال : ألا أكتفي إذا كُفيت ؟ .

مَنَّ الله تعالى عليه فآتاه الحكمة : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ [لقمان: ١٢] . وهذا فضل عظيم ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩] . وقد ذكر ابن هشام خبر سويد بن الصامت ، حين قدم مكة ومعه «مجلة لقمان » وعرضها على رسول الله ﷺ فقال : « **إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل ، قرآن أنزله الله عليَّ هو هدى ونور** » ودعاه للإسلام .

لقمان الحكيم وجهاد النفس :

قال ابن وهب : أخبرني عبد الله بن عَيَّاش الفتياني عن عمر مولى عَفَرةَ قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : فأنت

راعي الغنم الأسود ؟ قال : أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال: وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك ! قال : يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك . قال : وما هو ؟

قال لقمان : غضي بصري ، وكفي لساني ، وعفّة مطعمي ، وحفظي فرجي، وقيامي بعدتي ، ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيّرني كما ترى . (كذا في البداية) .

وصايا لقمان في القرآن

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان :١٢-١٩] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : وقد ذكره الله تعالى في القرآن - أي لقمان - فأثنى عليه وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه، وهو أشفق الناس عليه ، فكان أول ما وعظ به أن قال : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فنهاه عنه وحذّره منه .

وقد قال عبد الله : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلى قول لقمان : يا

بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » متفق عليه .

ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيـان حقهما على الولد ، وتأكده ، وأمر بالإحسـان إليهـما حتـى ولو كانا مشـركين ، ولكن لا يُطاعان علـى الدخول في دينهمـا إلى أن قال مخبـرًا عن لقـمان فيـما وعظ به ولده : ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)** ﴾ .

ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبـة خردل ، فإن الله يسأل عنها ويحـضرها حوزة الحساب ، ويضـعها في الميزان كمـا قال تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)** ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة ، ولو كان في جوف صـخرة صمَّاء لا باب لها ولا كُـوَّة ، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض أو السمـوات في اتساعها وامتـداد أرجائها ، لعلم مكانها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ أي علمه دقيق ، فـلا يخفى عليه الذر مما ترا ، أي للنواظر أو توارى كما قـال تعالى : ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ من ورقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)** ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وقال : ﴿ **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)** ﴾ [النمل:٧٥] . وقوله تعالى : ﴿ **فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ** ﴾ أي في أي صخرة كانت .

وعن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ، ولا كُوَّة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان** »(١) .

ثم قال : ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ** ﴾ أي : أدِّها بجـميع واجبـاتها من حـدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخـشوعها ، وما شرع فيها ، واجتنب ما ينهى عنه فيها .

ثم قال : ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ أي بجهدك وطاقتك ، أي إن استطعت باليد فاليد ، وإلا فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك ، ثم أمره بالصبر:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (١١١٧٣) وقال محققه : إسناده حسن.

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنه أن يعادى وينال منه ، ولكن له العاقبة ، ولهـذا أمره بالصبر علي ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصـبر الفرج . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ التي لابد منها ولا محيد عنها .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عـباس وغيره : مـعناه لا تتكبر على الناس ، وتميل خـدك حال كـلامك لهم ، وكلامـهم لك على وجه التكـبر عليهم ، والازدراء لهم .

قال أهل اللغة : وأصل الصـعر داء يأخذ الإبل في أعناقها فتلـتوي رؤوسها . فشبه به الرجل المتكبر الذي يميل وجـهه إذا كلَّم الناس أو كلموه على وجه التعظيم عليهم.

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ينهاه عن التبخـتر في المشية على وجه العظمة والفـخر على الناس . . . وقد ثبت في الحديث : « بينمـا رجل يمشي في بُرْدَيْه يتـبـختـر فـيـهمـا . إذْ خـسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . متفق عليه .

وفي الحديث الآخر : « إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة ولا يحبها الله»[1] .

ولما نهاه عن الاختـيال في المشي ، أمره بالقصد فيـه ، فإنه لابد له أن يمشي فنهاه عن الشر ، وأمره بالخير ، فقال : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي لا تتباطأ مفرطًا ، ولا تسـرع إسراعًا مـفرطًا ، ولكن بـين ذلك قوامًا . ثـم قال : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ يعني إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك ، فـإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير ،ولذا نهى عن رفع الصوت ، حـيث لا حاجة إليه ، ولا سيما عند العطاس ، فأما رفـع الأصوات بالأذان ، وعند الدعاء إلى الفئـة للقتال[2] ، وعند الإهلاك ونحو ذلك ، فذلك مشـروع ، فهذا ما قصه الله تعـالى عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحِكَم ، والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر .

---

(١) أخرجه أبو داود في « اللباس » برقم (٤٠٨٤) .

(٢) وعند الوعظ والتذكير فكان رسول الله إذا خطب علا صوته .

آثار من أخباره ومواعظه

وردت آثار كثيرة من أخباره ومواعظه ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى :

١- عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « **إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئًا حفظه** »[1] .

٢- وعن السَّريّ بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : « يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك » .

٣- وعن مالك بن دينار قال : قال لقمان لابنه : « يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير تجارة » .

٤- وعن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه : « يا بني اتق الله ولا تُرِى الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر » .

٥- وعن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بني اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل ، فاجلس معهم فإنك إن تك عالمًا ينفعك علمك ، وإن تك غبيًا يعلموك ، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم . **يا بني** لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه فإنك إن تك عالمًا لا ينفعك علمك ، وإن تك غبيًا يزيدوك غبيًا ، وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم . **يا بني** لا تغبط امرءًا رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت . أورده ابن أبي شيبة في « المصنف».

٦- **أي بني** إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله تعالى ، لعلك تنجو ، وما أراك ناجيًا » .

٧- إياك يا بني والدَّيْن فإنه ذل بالنهار وهم بالليل .

٨- **يا بني** ارج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصيته تعالى ، وخف الله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٥٦٠٥) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

سبحانه وتعالى خوفًا لا يؤيسك من رحمته تعالى .

٩- يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل ، فلم أحمل شيئًا أثقل من جار السوء .

١٠- يا بني إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور فإنه عما قليل يُقلى .

١١- يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض بوابل المطر .

١٢- وعن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان : ألا إن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له .

١٣- وعن خالد الرُّبعي ، قال : كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا ، فقال له سيده، اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال : ائتني بأطيب مضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب ، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا ، قال : فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لي شاة فذبح له شاة ، فقال ل : وألق أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب ، فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثًا » .

أورده ابن أبي شيبة في « المصنف».

* * *

قصة ذي القرنين

ذو القرنين هو : مرزبان بن مردبة اليوناني ، من ولد يونان بن يافث بن نوح ... وقيل غير ذلك ، فالله أعلم .

وقال ابن هشام : واسمه الإسكندر ، وهو الذي بني الإسكندرية فَنُسبتْ إليه ، وهو ضعيف لا يصح ، ردَّه ابن كثير في التفسير .

قال ابن كثير والصحيح أنه كان ملكًا من الملوك العادلين ، وقيل كان نبيًا ، وقيل رسولاً ، وأغرب من قال ملكًا من الملائكة .اهـ .

واختلفوا في السبب الذي سُمِّي به ذا القرنين : فقيل : إنما سُمِّي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيّ . وقيل : لأنه كان له في رأسه شبه القرنين . وقيل : لأنه بلغ قرني الشمس غربًا وشرقًا ، وملك ما بينهما من الأرض ، وهذا أشبه من غيره ، وهو قول الزهري . وقال الحسن : كانت له غديرتان من شعر يطافهما فسمي ذا القرنين .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كان عبدًا ناصح الله فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين . وبالجملة فإن الله تعالى مكنه وملكه ، ودانت له الملوك.

وقد ذكر الله تعالى ذا القرنين وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم ، وقهر أهلها ، وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط .

وفي ذكر قصته دعوة للأخذ بأسباب القوة ... لقهر أعداء الله ورسله ، ودعوة للقيام في الناس بالحق والعدل ... وعدم الاغترار عند لحظة الانتصار ،

لأن مرد كل فضل يرجع إلى الله وحده . وفي قصته رد على من اتهموا الدين ، بالتخلف ورموا أتباعه بالرجعية .

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف : ٨٣، ٩٨] .

قال الحسن : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنه كان رجلاً مسلمًا صالحًا أتى المشرق والمغرب ومدَّ الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال ، وفتح المدائن ، وقتل الرجال - أي من يستحق القتل منم - وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتى أتي المشرق والمغرب فذلك قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ أي خبرًا : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي علمًا بطلب أسباب المنازل.

والصحيح أن الله تعالى أعطاه كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه

على أهل الإقليم الآخر .

رحلته إلى مغرب الشمس :

قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ أي طريقًا ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ أي كثيرة الحمأة وهي « الطينة السوداء »[1] ، والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ، ولهذا قال : « وجدها » أي في نظره ولم يقل فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة .

وقال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا ومشرقًا حتى وصل إلى جرمها ومسها ، لأنها تدور حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض ، بل هي أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة ، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ولهذا قال : ﴿ **وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا** ﴾ ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم .

قلت : وهذا هو الصحيح ، الذي يشهد له العلم . ﴿ **وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا** ﴾ أي عند « العين » أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم . ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾ قال القشيري : إن كان نبيًا فهو وحي ، وإن لم يكن فهو إلهام من الله تعالى . والمعنى : أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين . . . كما خير محمدًا ﷺ فقال : ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ٤٢] ﴿ **قال أما من ظلم** ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه . ﴿ **فسوف نعذبه** ﴾ أي بالقتل . ﴿ **ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا** ﴾ أي شديدًا أليمًا ، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . ﴿ **وأما من آمن** ﴾ أي تابعنا على ما

---

(١) وقال ابن عباس : وجدها تغرب في عين حامية ، يعني حارة ، ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطين أسود .

ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة . ﴿ وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ قال مجاهد : أي معروفًا .

رحلته إلى مطلع الشمس :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ [الكهف:٨٩-٩١] . يقول تعالى : ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم أنوفهم واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقليم المتاخم لهم . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أي أمة ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس . قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر ، كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء ، وهم يكونون في أسراب لهم ، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم ، يعني لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ، فإنه تعالى : ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

ذو القرنين يبني السد :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف: ٩٢- ٩٧] .

يقول الله تعالى مخبرًا عن ذي القرنين : ثم أتبع سببًا ، أي ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين ، وهما جبلان ، متناوحان ، بينهما ثغرة يخرج منها « يأجوج ومأجوج » على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فسادًا ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام ، كما سيأتي الحديث عنهم إن شاء الله تعالى .

ثم إنه وجد خلف السدين ﴿ **قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴿٩٣﴾ ﴾ أي لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ، وكان ذو القرنين لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا من تمام النعمة .

﴿ **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴿٩٤﴾ ﴾ ذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم ، وأفسدوا في بلادهم ، وقطعوا السبل عليهم ، وبذلوا له حملاً وهو « الخراج » على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزًا ، يمنعهم من الوصول إليهم ، فامتنع من أخذ الخراج ، اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ** ﴾ [الكهف:٩٥] ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سدًا ، وهو الردم بين الجبلين ، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة ، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب ، فجعل بدل اللبن حديدًا وبدل الطين نحاسًا ، ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** ﴾ أي قطع الحديد ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ** ﴾ أي وضع قطع الحديد بعضها فوق بعض من الأساس ، حتى حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا . ﴿ **قَالَ انفُخُوا** ﴾ أي أجَّج عليه النار حتى صار كله نارًا ﴿ **قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا** ﴿٩٧﴾ ﴾ هو النحاس المذاب كما تقدم .

وظل ذو القرنين يبني إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صلدًا . ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾ أي ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدا فيه ، لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام ﴿ **وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ أي لبعد عرضه وقوته . ولما فرغ ذو القرنين من بناء السد ﴿ **قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي** ﴾ أي بالناس

حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكّاء ﴾ أي ساواه بالأرض . ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي كائنا لا محالة .

وفي الآيات السابقة : دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضربًا ويحبسون أو يكلفون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه . وفيها دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم ، وسد فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التي تفيء عليهم ، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفذتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط :

الأول : ألا يستأثر عليهم بشيء .

الثاني : أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم .

الثالث : أن يسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا أو بقيت صفرًا ، فأطلعت الحوادث أمرًا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير وتصرف بتدبير ، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ، قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي اخدموا بأنفسكم معي ، فإن الأموال عندي والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرًا لا سرًا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب . قاله القرطبي .

* إسرائيليات *

ذكر ابن جرير في تفسيره بسنده ، عن وهب بن منبه اليماني ، أنه كان يقول : ذو القرنين : رجل من الروم ، ابن عجوز من عجائزهم ، ليس لها ولد غيره ،

وكان اسمه الإسكندر ، وإنما سمي ذا القرنين ، لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، فلما بلغ وكان عبدًا صالحًا ، قال الله عز وجل له : يا ذا القرنين إني باعثك إلى أمم الأرض ، وهي أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم جميع أهل الأرض ، ومنهم أمتان بينهما طول الأرض كله ، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم في وسط الأرض منهم الجن ، والإنس ، ويأجوج ومأجوج ... ثم استرسل في ذكر أوصافه ، وما وهبه الله من العلم والحكمة ، وأوصاف الأقوام الذين لقيهم ، وما قال لهم ، وما قالوا له ، وفي أثناء ذلك يذكر ما لا يشهد له عقل ولا نقل ، وقد سَوَّد بهذه الأخبار نحو أربعة صحائف من كتابه .

وقد رد عليه الإمام ابن كثير فأفاد وأجاد وكان من كلامه :وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلاً ، عجيبًا في سير ذي القرنين ، وبنائه السَّد ، وكيفية ما جرى له وفيه طول ، وغرابة ، ونكارة في أشكالهم ، وصفاتهم وطولهم ، وقصر بعضهم ، وآذانهم ، وروي ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غْريبة ، لا تصح أسانيدها ، والله أعلم . وإلى هنا تنتهي قصته ، لتظل نبراسًا يضيء للمسلمين الطريق الصحيح نحو العزة ، والتمكين ، وصدق الاستخلاف في الأرض .

* * *

قصة يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم ثم من بني يافث بن نوح . ذكر ابن عبد البر الإجماع عليه . وقيل : من الترك وقيل : من الديلم ، وقال الحافظ : والأول هو المعتمد ، وقال : هما اسمان أعجميان عند الأكثر ، واختلف في اشتقاقهما فقيل : من أجيج النار وهو التهابها ، وقيل من الأجة بالتشديد وهي الاختلاط أو شدة الحر . وقيل : من الأج وهو سرعة العدو ، وقيل من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة . وقيل : يأجوج من ماج إذا اضطرب ، وجميع ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم ، ويؤيد هذا الاشتقاق وقول من جعله من ماج إذا اضطرب قوله تعالى : ﴿**وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض**﴾ وذلك حين يخرجون من السد - أي الذي بناه ذو القرنين . اهـ .

ويأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد ففي « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : **« إن الله تعالى يقول : يا آدم ، فيقول لبيك وسعدك ، فيقول ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج »** .

وقد أخبر الحق تبارك وتعالي أن السد الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ [الكهف:٩٧] .

وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله ، ويأذن لهم بالخروج ، وعند ذلك يدك السد ، ويخرجون على الناس : ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ [الكهف:٩٨] وعند ذلك يخرجون أفواجًا أفواجًا كموج البحر ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾ [الأنبياء : الكهف :٩٩] وذلك قرب قيام القيامة والنفخ في الصور ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا**﴾ [الكهف:٩٩] وقد أخبر الحق في موضع آخر عن نقبهم السد وخروجهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا.... ﴾ الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧] . وهذا كائن آخر الزمان ، وهو من علامات القيامة الكبرى . وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون في الإفساد في الأرض ، والحدب هو المرتفع في الأرض ، وهذه صفتهم حال خروجهم .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة كالحلقة التي تكون من الإبهام والتي تليها .

ففي « صحيح البخاري » عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول : « **لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه** » وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « **نعم ، إذا كثر الخبث** » .

وخروجهم يقع بعد نزول عيسى عليه السلام وهزيمته للدجال .

ففي « صحيح مسلم » عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه** – أي من الدجال – **فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ، إني قد أخرجت عبادًا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم**[١] **فحرز عبادي إلي الطور**[٢] **ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرية « طبرية »**[٣] **، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم « النغف »**[٤] **في رقابهم ، فيصبحون فرسى**[٥] **كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون**

---

(١) أي لا قدرة ولا طاقة .
(٢) أي اصعد بهم إلي الجبل .
(٣) بحيرة في فلسطين .
(٤) دود يكون في أنوف الإبل ، لغ...
(٥) جمع فريس ، كقتيل ، قتلى .

في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم - أي دسمهم - ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل طيرًا كأعناق البخت[(١)] **، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرًا ، لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة »**[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « **إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى إذا كادوا يَرَون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدًا ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدم الذي اجفظّ**[(٣)] **، فيقولون : قهرنًا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفًا في أقفائهم ، فيقتلون بها ، قال رسول الله ﷺ :« والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن ، وتشكر شكرًا من لحمهم »**[(٤)] .

أين مكان السد ؟

يسأل بعض الناس : أين مكان السد الذي بناه ذو القرنين . . . ولو كان يأجوج ومأجوج وراء هذا السدّ حقًا الآن لاطلع عليه الناس لتقدم وسائل البحث من طائرات استكشافية وأقمار صناعية وغير ذلك ؟! .

والجواب : يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - : « قولكم لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطلع عليهم الناس غير صحيح لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم

---

(١) هي جمال طوال الأعناق .
(٢) المدر : الطين الصلب . والزلقة : المرآة .

(٣) اجفظّ : أي ترجع ممتلئة دمًا .

(٤) إسناده صحيح : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، وصححه ابن حبان ، ورواه الحاكم وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قالا . الصحيحة (١٧٣٥) .

، ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره تعالى في سورة المائدة من أنه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة وذلك في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [المائدة :٢٦] ، وهم في فراسخ قليلة من الأرض يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمدُ التيه لأنهم لواجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق ».

إسرائيليات :

ما يُروى عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى أنه قال عن يأجوج ومأجوج « لهم مخالب في مواضع الأظفر ، وأضراس وأنياب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، ولكل واحد منهم أذنان يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى .... إلخ » باطل لا يصح.

* * *

قــصــة أصـــحـــاب الكهف

هذه القصة تعـرض لنا نموذجًا للإيمان الصاحي في النفوس المؤمنـة كيف تطمئن به ، تؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجـأ به إلى الكهف حيث يعز عليها أن تعيش به مع الناس . وكيف يرعى الله تعالى هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة، ويشملـها بالرحمـة . . . وفي الكهف حدثت آيات ومـعجـزات . . . يا تُرى ماذا حدث ؟

يقول اللـه تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف :٩-١٢].

تلخيـص يجمل القصـة ، ويرسم خطوطها الرئـيسيـة العريضـة . فنعرف أن أصحـاب الكهف فـتية - لا نعـلم عددهم - آووا إلى الكهف وهم مـؤمنون بالله الواحد الأحد . وأنـه سبحانه ضرب عـلى آذانهم في الكهف - أي ناموا - سنين معدودة - لا نعلم عددها - وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبـثوا في الكهف فبعثوا ليتـبين أي الفريقين أدق إحصاءً . وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله . وفي صفحات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم .

والكهف : هو الفجوة في الصخرة ، والرقيم على الراجح - هو الكتاب الذي يحمل أسماءهم .

أين مكان الكهف ؟

اختلف العلمـاء في محلة هذا الكهف ، فقال كثـيرون : هو بأرض « أيلة» . وقيل: بأرض «نينوي» . . . وقيل : ببلاد « الروم» ورجح ذلك ابن كثير.

مشاهد القصة :

المشهد الأول : الإيمان والهجرة .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « إن ملكًا من الملوك يقال له « دقيانوس» ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها « أفوس» وقال بعد زمن عيسى عليه السلام[١] فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًا ، فرُفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً ، ومَرَّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار ، فوجدو أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئًا . فقال الملك « سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعًا وعطشًا » . وها هو رب العزة سبحانة يقص علينا نبأهم : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴿١٣﴾ **وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** ﴿١٤﴾ **هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴿١٥﴾ **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا** ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف :١٣-١٦].

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾ . . ﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾ بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت . معتزة بالإيمان الذي اختارت ﴿ **إِذْ قَامُوا**﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات .﴿ **فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ فهو رب هذا الكون كله ﴿ **لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا** ﴾ فهو واحد لا شريك له ﴿ **لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** ﴾ . . . وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب . ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه ﴿ **هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ ؟ فهذا هو طريق الاعتقاد : أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول ، وإلا فهو الكذب

---

(١) رجح الإمام ابن كثير أنه كان قبل زمن عيسى عليه السلام .

الشنيع ، لأنه الكذب على الله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ﴾؟ .

لقد تبين الطريقان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا المشاركة في الحياة . ولابد من الفرار بالعقيدة - والأرجح أن أمرهم قد كُشف - فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم على ذلك .

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ أي يُسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجِرْنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة» . ثم يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة .... ويأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ... وفيه يحسون رحمة الله الغامرة تغشاهم من كل مكان ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر بالله تطمئن القلوب ﴾ .

المشهد الثاني : القدرة الربانية :

دخل الفتية كهفهم .. ودَعْوا ربهم ... وضرب الله على آذانهم .. فناموا ... سنين عددًا !! سبحان الله . وها هي آيات الله تعالى تصف حالهم ... وتنقل إلينا صورة حية من داخل كهفهم : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف : ١٧-١٨] .

ذكر الله تعالى صفة الغار - الكهف - الذي آووا إليه وإن بابه موجه نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليًا وبابه نحو الشمال فقال : ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ وقرئ ﴿ تزوّر ﴾ ﴿عن

كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ فأخبر أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي ، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً . وهو ازورارها ذات اليمين ، فترتفع في جو السماء ، وتتقلص عن باب الغار ، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب ، كما هو مشاهد بمثل هذا المكان ، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأماكن أن لا يفسد هواؤه ﴿ **وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله** ﴾ أي بقاؤهم على هذه الصفة دهرًا طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسامهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة .

إنه مشهد تصويري عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك . . حقًا ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ . . وضعهم هكذا في الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها وهم مكانهم لا يموتون !! ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا** ﴾ . . . وللهدى والضلال ناموس . فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدي حقًا . ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعد هاديًا .

ثم يمضي السياق يكمل المشهد العجيب وهم يقلبون من جنب إلى جنب في نومتهم الطويلة . فيحسبهم الرائي أيقاظًا وهم رقود . وكلبهم - على عادة الكلاب - باسط ذراعية بالفناء قريبًا من باب الكهف كأنه يحرسهم . وهم في هيئتهم هذه يثيرون الرعب في قلب من يطلع عليهم . إذ يراهم نيامًا كالأيقاظ . يتقلبون ولا يستيقظون . وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث ، حتى يحين الوقت المعلوم .

والعجيب أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم ، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف ، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد ، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به ، فإن الملائكة لا تدخل

بيتًا فيه كلب ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقيًا معهم ببقائهم ، لأن من أحب قومًا سعد بهم ، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام. وقف أبو الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلب ، أحبّ أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى ـ : « إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين ! بل في هذه تسلية وأُنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل .

عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلَقينا رجل عند سُدَّة المسجد فقال يا رسول الله متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ :« **وما أعددت لها؟**» قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددتلها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله . قال ﷺ: « **فأنت مع من أحببت**».

وفي رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ : «**فأنت مع من أحببت**»(١) . قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قال القرطبي :« قلت : وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين. . . . . » اهـ.

ثم ذكر الله تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين: ﴿**وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ**

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد في المسند (٤/ ١٣٠٢١) .

أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف: ١٩-٢٠]. الفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس ... إنهم يفركون أعينهم، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين، فيسأل: كم لبثتم؟ « قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم »! . ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها . ويدعوا أمرها لله، وأن يأخذوا في شأن عملي . فهم جائعون . ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة: ﴿ **قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ** ﴾ أي فليختر أطيب طعام في المدينة فليأتكم بشيء منه . وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجمًا أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هي يتقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذرًا لبقًا: ﴿ **وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ .. فما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك، وإنها للخسارة الكبرى . وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يومًا أو بعض يوم أو أكثر من ذلك، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة، وقد تبدلت الدول أطوارًا عديدة، وتغيرت البلاد ومن عليها، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم، وجاء غيرهم وذهبوا، وجاء غيرهم .

المشهد الثالث: إثبات البعث بعد الموت

وخرج أحدهم ليشتري لهم طعامًا على تخوف .. ودخل المدينة متنكرًا لئلا يعرفه أحد من قومه، فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحدًا من أهلها لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحيَّر في نفسه ويقول لعل بي جنونًا أو مسًا أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة . ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعامًا، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها

إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا وجد كنزًا ، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة ، لعله وجدها من كنز ، ومِمَّن أنت ؟ فجعل يقول : أنا من أهل هذه البلدة ، وعهدي بها عشية أمس وفيه « دقيانوس » ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره ، وهو متحير في حاله وما هو فيه ، ولما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف . قال لهم : دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأُعلِم أصحابي فدخل ، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم ، وكان « مُسلمًا » فيما قيل : واسمه « يندوسيس » ، ففرحوا به وآنسوه بالكلام ، ثم ودَّعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم الله عز وجل ، فالله أعلم .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس . يقرب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . . . وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم . وقال بعض الناس : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي سِدُّوا عليهم باب كهفهم ، وذروهم على حالهم .

وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ والمقصود معبد ، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين. وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدي الرسول الله ﷺ : «لعن الله اليهود والنصاري ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» رواه البخاري ومسلم .

المشهد الرابع : الجدل حول أصحاب الكهف

قال الله تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف : ٢٢] .يقول الله تعالى مخبرًا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أي قولاً بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فدلّ على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر . وقوله :﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إرشاد إلى الأحسن في مثل هذا المقام ردّ العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله :﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ أي من الناس . قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، ويقول : عدتهم سبعة - وفي رواية - أنا من القليل ، كانوا سبعة ؛ قال ابن كثير : فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه .﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي سهلاً لينًا ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة : ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجمًا بالغيب ، أي من غير استناد إلى كلام معصوم .

كم لبثوا ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ [الكهف :٢٥-٢٦] فهذا هو فصل الخطاب في أمرهم ، يقرره عالم غيب السماوات والأرض ما أبصره، وما أسمعه ! سبحانه . فلا جدال بعد هذا ولا مراء . ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر في سير القصة وأحداثها : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] . وإلى هنا تنتهي قصتهم . والحمد لله رب العالمين .

قصة دانيال عليه السلام

دانيال عليه السلام ، نبي من أنبياء بني إسرائيل . . أراد بخُتُنَّصر إهلاكه فنجاه الله تعالى . . . وكانت له قصة مع نبي الله « أرميا » ويُروى أنه دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمه محمد ﷺ فدفنه أبو موسى الأشعري في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما !

معجزة :

قال ابن أبي الدنيا : « أحضر « بختنصر » أسَدَيْن فألقاهما في جُبّ (بئر) ، وجاء « بدانيال » فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى الله إلى « أرميا» وهو بالشام أن أعدد طعامًا وشرابا لدانيال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى الله إليه : أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده وقف على رأس الجُبّ ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال : وقد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد الذي لا ينسى من ذكره . والحمد الله الذي يجب من رجاه ، والحمد الله الذي من وثق به لم يكلْه إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضُرَّنا بعد كربنا ، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا [١] .

دعاء وإجابة :

روى أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب « أحكام القبور» بإسناد « مرسل» عن أبي

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة (١٤٧) وفي الشكر (ص ٥٣) .

الأشعث الأحمري ، قال : قال رسول الله ﷺ : **إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمه محمد»** . **فلما افتتح** أبو موسى الأشعري « تَسْتَر» وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده (١) ، وقد كان رسول الله ﷺ قال :« **من دل على دانيال فبشروه بالجنة** » . فكان الذي دلّ عليه رجل يقال له :« حرقوص » فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى « حرقوص» ، فإن النبي ﷺ بشره بالجنة .

قال ابن كثير : وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظا نظر. . . والله أعلم .

وقال أبو العالية : لما افتتحنا « تَسْتَر» وجدنا في مال بيت « الهرمزان» سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف (٢) ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا - أي كعب الأحبار - فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية - أي الراوي وهو خَلْد بن دينار - ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قل : حفرنا بالنهار ثلاثة عشرًا قبرًا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ، وسوينا القبور كلها لنُعَمِّيَهُ على الناس فلا ينبشونه قلت : فما يرجون منه . قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل قال : رجل يقال له : دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغيَّر منه شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص حديث البخاري الذي رواه أبو هريرة عن

---

(١) تضرب عروقه : أي تظهر عروقه ووريده ، وذلك كناية عن بقاء بدنه سليمًا معافًا مع امتداد الزمن ، وتقدم معنا حديث « إن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » .

(٢) اسم « مصحف » يطلق على كل كتاب سماوى .

النبي ﷺ أنه قال : « **أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي** » . والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة . وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة ، وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قريب الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفُرْس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم » اهـ .

ابن أبي بردة يلبس خاتم دانيال عليه السلام !!:

روى ابن أبي الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري خاتمًا نقش فصِّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه « دانيال» أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ؛ فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده فقال الملك : والله لا يبقي تلك الليلة غلام إلا قتلته . إلا أنهم أخذوا « دانيال» فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فَصّ خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك » قال ابن كثير : إسناده حسن .

تنبيهان :

الأول : كانت صناعة الثماثيل مباحة في الشرائع السابقة كما قال تعالى : ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل...**﴾ الآية . ثم حُرِّمت في شريعة الإسلام كما هو مقرر .

الثاني : تقدم معنا أن الذي ألقى « دانيال» في الجُب هو « بختنصر» .. وهذه الرواية تقول بخلاف ذلك .. فلعل الحادث تكرر مرة في حال صغره ، ومرة في حال كِبَره والله أعلم .

قصة أصحاب الرَّس

قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق:١٢-١٤]. ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعًا ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه (أي حزنوا) وجدًا عظيمًا ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته ، وقال إني لم أمت ، ولكن تغيبتُ عنكم حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشدَّ الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا . فصدق به أكثرهم ،. وافتتنوا به ، وعبدوه ، فبعث الله نبيًا وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء حجاب ، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السّهيَلي : وكان يوحي إليه في النوم ، وكان اسمه : حنظلة بن صفوان ، فعَدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم ، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع والله أعلم .

* * *

قصة قوم تُبَّع

قال تعالى : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان :٣٧]. وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٢-١٥].

قوم تبع : قبائل من قوم سبأ - وهو حمير - كانوا يسكنون اليمن وحضرموت.

وتُبَّع : لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن . قيل : إنه الذي بنى مدينة الحيرة في العراق ، وكانت دولة تبع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية ، وقيل : كانت في حدود السبعمائة قبل بعثة النبي . وقد أهلك الله قوم تبع لما كذبوا الرسل ، وجعلهم الله للناس آية ، تدل على شدة بأسه التي لا ترد عن القوم المجرمين وتعليق الإهلاك بقوم تبع دونه يقتضي أن تبعًا نجا من هذا الإهلاك .

قال قتادة : ذُكر لنا أن كعبًا كان يقول في « تبع» نعت الرجل الصالح: ذم الله تعالى قومه ولم يذمه . قال : وكانت عائشة - رضي الله عنها - تقول : لا تسبوا تُبعًا فإنه قد كان رجلاً صالحًا .

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رؤوسها لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس ، وروى حيى وتماصر ابنتى تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما . والله أعلم .

* * *

قصة زكريا عليه السلام

من هو ؟

هو نبي الله زكريا بن برخيا ، ويقال : ابن دان ، ويقال : ابن لدن ، بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقية ، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام . وهو أبو يحيى النبي سَمِيّ الله ، عليهما السلام ، و قد قيل غير ذلك في نسبه . وهو الذي كفل مريم ابنة عمران أم نبي الله عيسى عليهما السلام ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ، فعلم أن الرازق لشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدًا، وإن كان قد طعن في السن ، وكانت امرأته عاقرًا . فدعا ربه خفية ، فرزقه الولد ووهبَ له « يحيى » لم يكن له من قبل سميًا ، فورثه في النبوة والحكم في بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم :١-١١].

وقال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا

بكلمة مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران :٣٧-٤١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾** ﴾ [الأنبياء :٨٩-٩٠] .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولدًا على الكبر ، وكانت امرأته عاقرًا في حال شبيبتها وقد أسنَّت أيضًا حتى لا ييأس أحدٌ من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾** ﴾ [مريم ٢-٣].

قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرَّها عمّن كان حاضرًا عنده مخافته فقال : ياربِّ ياربِّ ياربِّ . فقال الله : لبيك لبيك لبيك : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ أي ضعف وخار من الكِبرَ ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب ، أي غلب على سواد الشعر شيبه . يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنًا وظاهرًا ﴿ **وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ [مريم :٤] أي ما عودتَّني فيما أسألك إلاَّ الإجابة ، وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لمّا كفل مريم بنت عمران ، وكان كلما دخل عليها محرابها[1] وجد عندها فاكهة في غير إبّانها ، ولا في أوانها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدًا ، وإن كان قد طعن في سنة ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [آل عمران :

---

(١) المحراب : القبلة . وقيل : أرفع مكان في المسجد ، ومحاريب بني إسرائيل : مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها .

٣٨] .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ [مريم :٥].

قيل المراد بالموالي العصبة ، وكأنه خاف من تصرّفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون برًا تقيًا مرضيًا، ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم :٦] . يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء ، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة .

لوجوه :

أحدها : لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته :« **لا نُورِّث ما تركناه فهو صدقه**» ورواه الترمذي بلفظ يعم سائر الأنبياء :« **نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث**» وصححه.

الثاني : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء أن يكنزو لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها.

الثالث : أن زكريا عليه السلام كان نجارًا يعمل بيده ، ويأكل من كسبها كما في « صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **كان زكريا نجارًا**» والغالب وسيما من مثل حال الأنبياء أن لا يجهد نفسه في العمل اجهادًا يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، وهذا أمر بيِّن ، واضح لكل من تأمّله وتدبَّره وتفهَّم إن شاء الله .

البشارة بيحيى عليه السلام :

لما دعا زكريا عليه السلام ... أوحى الله تعالى إليه : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ

بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا ﴾ [مريم : ٧] . وهذا مفسر بقوله : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٩] . وفي سورة الأنبياء : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . ﴿قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة على الوقت الذي تحمل فيه مني امرأتي بهذا الولد المبشر به .

﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويًا ﴿١٠﴾ ﴾ يقول : علامة ذلك أن يعتريك سكوت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزًا وأنت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج معتدل البنية ، وأُمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بُشِّر بهذه البشارة خرج مسرورًا بها على قومه من محرابه ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا ﴾ [مريم :١١] . والوحي ها هنا هو الأمر الخفي إما كتابة أو إشارة . قال مجاهد وغيره : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .ويولد يحيى عليه السلام ، ويعيش سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين ويُقتل شهيدًا في حياة أبيه ، هكذا شاءت إرادة الله . . . ولا مُعقب لحكمه ويعيش زكريا عليه السلام عابدًا ذاكرًا شاكرًا صابرًا خاشعًا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى . وقد اختلف الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قُتِلَ قتلاً على روايتين :

الأولى : روى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ فأوحى الله تعالى إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين ،وقد روى هذا في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ استغربه ابن كثير ، وقال : حديث عجيب ورفعه منكر .

الثاني : روى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو « شعيا» فأما زكريا فمات موتًا . والله أعلم.

قصة يحيى عليه السلام «النبي الشهيد»

هو: يحيى بن زكريا عليهما السلام . النبي الشهيد . . . شهيد المبدأ والشرف . . . أعلى الله قدره . . . ورفع ذِكره . . . وحصَّنه من الدنايا . . . وأتاه الحكم صبيًا . . . وجعله سيدًا وحصوراً ونبيًا من الصالحين .

قال الله تعالى : ﴿ **وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [الأنعام :٨٥]. سَمَّاه الله تعالى يحيى ، لأنه سبحانه وتعالى أحياه بالإيمان .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال :« **ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همَّ بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متىَّ عليه السلام** » . أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٢٩٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :« **خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أُمه مؤمنًا ،وخلق فرعون في بطن أمه كافرًا**»[1] .

بداية قصته :

تبدأ قصته عليه السلام بهذا الدعاء المبارك الذي كان سببًا في وجوده . . . وذلك عندما توجه أبوه « زكريا» عليه السلام إلى ربه داعيًا » ﴿ **قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ . فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المُنيب ؟ كانت الاستجابة التي لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس ، لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تُريد : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين** ﴾ .

---

(١) إسناده جيد : قال الهيثمي في المجمع (١٩٦/٧) رواه الطبراني وإسناده جيد ، وقال الألباني : إسناده جيد أيضًا . الصحيحة (١٨٣١) .

لقد استجيبت الدعـوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ، ويملك الإجابـة حين يشاء . وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكـر ، اسمه معروف قبل مولده ؛ « يحيى » ؛ وصفته معروفة كذلك : سيدًا كريمًا ، وحصورًا يحصر نفـسه عن الشهوات ، ويملك زمـام نزعاته من الانفلات ، ومؤمنًا مـصدقًا بكلمة تأتيه من الله ، ونبيًا في موكب الصالحين .

قلت : واختلفوا في مـعنى قوله تعالى : ﴿ **وحصورا** ﴾ فقال بعـضهم : هو الذي لا يأتي النساء ، وقيل : هو الذي لا يولد له ولا ماء له . وقيل : هو الذي لا ينزل الماء .

وقد قال القـاضي عياض في كتابه « الشفـاء » : « اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان «حصورًا » ليس كما قاله بعضهم : إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفـسرين ، ونقّاد العلماء وقالوا : هذه نقيـصة وعيب لا يليق بالأنبيـاء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه مـعصوم من الذنوب ، أي لا يأتيهـا فأنه حصور عنها ، وقيل : مانعًا نفسه من الشهوات » اهـ.

ويولد يحيى عليه السلام . . . وقد أحاطتـه العناية الإلهية والرعاية الربانية فآتاه الله تعالى الحكم صبيًا . . وأمره أن يأخذ التوراة بقوة ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾** ﴾ [مريم :١٢-١٥] يُخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله تعالى علّمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه . فقال: ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ و« الكتاب» التوارة بلا خلاف . ﴿ **بِقُوَّةٍ** ﴾ أي بجد واجتـهاد . وقـيل : العلم به ، والحفظ له والـعمل به ، وهو الالتـزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيه . ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ قيل : الأحكام والمعرفة بها .

وروى مَعْـمَر أن الصبيـان قالوا ليحـيى : اذهب بنا نعلب ؛ فقـال : ما للعب خُلِقْنا . قال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو مِـمَّن أُوتى الحُكم صبيًا . وعن عبد الله بن عـمر رضي الله عنهما

عن النبي ﷺ قال : « **كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْب إلا ما كان من يحيى ابن زكريا** »[1] .

﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وقيل : أي جعلناه ذا حنان وزكاة . فالحنان هو المحبة في شفقة وميل . ﴿**وزكاةً**﴾ الزكاة التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر ؛ أي جعلناه مباركًا للناس يهديهم . ﴿ **وَكَانَ تَقِيًّا** ﴾ أي مطيعًا لله ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلمَّ بها . ﴿**وبَرًّا بِوَالِدَيْهِ** ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البرّ . ﴿ **وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا**﴾ ثم قال الله تعالى بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة أحوال :

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه . ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم . ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم ، قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه ، فقال : ﴿ **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ رواه ابن جرير .

وقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

وَلَدتْكَ أمُّك باكـيًا مُـسْتَصْرِخًا والناسُ حَولَكَ يَضْحكُون سُرُورَا

فـاحْرِصْ لِنَفْسِك أن تكون إذا بَكوا في يوم مَـوْتِكَ ضَاحِكًا مَـسْروراً

وبدأ يحيى عليه السلام في تبليغ دعوة الله تعالى . . . وشاركه عيسى عليه السلام . . . وكان يحيى ابن خالته . . . وتحالف النبيان . . . ولقيا من بني إسرائيل صدودًا وإعراضًا - كما هي عادتهم مع الرُسل - فصبرا . . . وتحملاً ، وتحلما . . . وكان من الوحي الذي أنزله الله تعالى على يحيى ، ما رواه الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن الحارث الأشعري ، أن النبي ﷺ قال : « **إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا**

---

(١) أخرجه الحاكم في « التفسير » (٣٤١١) . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه في « التلخيص » وقال : على شرط مسلم .

بهن ، وكاد أن يُبطئ ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي ، قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورق . أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدي غَلَّتَهُ إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا . وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرَّة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره فأتي حصنًا حصينًا فتحصن فيه ، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل ».

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس : الله أمرني بهن بالجماعة ، والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله فإن من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو حثا جهنم » قال : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

بكاؤه عليه السلام :

كان يحيى عليه السلام فيما أُثر عليه : غزير الدَّمْعة ، كثير البكاء من خشية

الله تعالى حتى أثَّر البكاءُ في خديه من كثرة دموعه . روى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله تعالى .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فَقَد زكريا عليه السلام ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي على نفسه فقال : يا بُني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته تبكي فيه ؟ فقال: يا أبتِ ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين ؟ فقال له : ابك يا بُني فبكيا جميعًا .

استشهاده عليه السلام :

ذكروا في قتله - عليه السلام - أسبابًا من أشهرها : أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك و « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » كما صح الحديث ، فبقى في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى عليه السلام فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها فيقال : إنها هلكت من فورها وساعتها .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست . وروي الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة - يعني دمشق « هداد بن هداد » ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه « أريل » ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا . ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : « لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك » فحقدت عليه ، وطلبت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه ، وهو قائم يصلي بمسجد « جيرون »

من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له : « لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره » فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها « وسطها » وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى عليه السلام يفور حتى يقدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا .

وفي رواية عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - قال : قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفًا فسكن . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح عليه السلام كما قاله عطاء والحسن البصري . وقال سعيد بن عبد العزيز : ولم يزل يفور (أي دم يحيى) حتى وقف عنده « أرميا » عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها بختنصر فقتل خلقًا كثيرًا لا يحصون كثرة ، وسبى منهم ثم رجع عنهم . اهـ .

وروي الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير ، وفي رواية : كأنما قتل الساعة . وهكذا يضرب لنا يحيى عليه السلام مثلاً رائعًا في الثبات على المبدأ . ومقاومة المنكر . والصدع بكلمة الحق في ساعة العسرة ليظل قدوة للمهتدين ، ومنارًا للسائرين ما دامت هذه الحياة . ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

* * *

قصة عيسى عليه السلام

إن حادث ولادة عيسى عليه السلام أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله ، فلا نظير له من قبله ولا من بعده . والبشرية كلها لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها ، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ [الكهف :٥١] فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب ، على غير السُّنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عزَّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان .

ولم يتكرر حادث عيسى عليه السلام لأن الأصل هو أن تجري السُّنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلمًا بارزًا على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ولنجعله آية للناس﴾ .

مع آل عمران :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران : ٣٣-٣٧] .

يذكر الله تعالي أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّص من ذريته المتبعين شرعه

الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل. ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم « آل عمران » والمراد « بعمران » هذا والد مريم عليها السلام .

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها هي « حنة بنت فاقود بن قبيل » من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم « أشياع » في قول الجمهور[1] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره : أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له ، فاشتهت الولد ، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا، أي عتيقًا من شواغل الدنيا ، خالصًا لعبادة الله تعالى حبيسًا في بيت المقدس . قالوا : فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها (أي زوجها) فحملت بمريم عليها السلام .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ أي : في خدمة بيت المقدس ، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدامًا من أولادهم ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله .

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا : « كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه » رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها ، فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي

---

(١) وهذا هو الصحيح ، لقول النبي ﷺ في رحلة المعراج : « ..... ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ... » الحديث . رواه مسلم وأحمد .

أُعيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خرقتها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم ، فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها ، وهذا هو المعقول.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين ، فنازعوه في ذلك وطلبوا أن يقترعوا معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي بسبب غلبته لهم في القرعة كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمًا معروفًا به ، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحدًا منها ، فظهر أنه قلم زكريا عليه السلام ، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية ، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر، فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان قلم زكريا عليه السلام هو الذي جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة ، فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صُعُدًا فهو الغالب ، ففعلوا فكان زكريا عليه السلام هو الغالب لهم ، فكفلها إذا كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوه عديدة .

من كرامات مريم عليها السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

قال المفسرون اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت

تعبد الله تعالى فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت ، إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل في عبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا .. ولا نخوض في صفة الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة . فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمي رزقًا ، حتى ليعجب كافلها - وهو نبي - من فيض الرزق . فيسألها : كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله ، وتفويض الأمر إليه كله : ﴿ **هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه ، والتواضع في الحديث عن هذا السر ، دون مباهاة فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسنَّ وكبر . ﴿ **قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ [آل عمران :٣٨] . قال بعضهم : كأنه قال : يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولدًا وإن كان في غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته .

خير نساء العالمين :

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)** ﴾ [آل عمران : ٤٢- ٤٦] .

يذكر تعالي أن الملائكة بشرت مريم عليه السلام باصطفاء الله تعالى لها من بين سائر نساء عالمي زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبيًا شريفًا ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ** ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله

وحده لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله تعالى فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع ، لتكون أهلاً لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها .

فقول الملائكة : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف :١٤٤] . وكقوله في بني إسرائيل : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان :٣٢] . ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عدداً ، وأفضل علمًا ، وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ مراداً به العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجًا بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ إذ لم يعارضه غيره . والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم عليها السلام أنها صديقة كما قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة:٧٥] . فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها . والله أعلم .

وقد جاء ذكرها مقرونًا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة

بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن . ففي « الصحيحين » وغيرهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد** » . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ** » . رواه الترمذي ، وقال الألباني : صحيح . صحيح الجامع برقم (٣٣٣١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خط لنا رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال : « **أتدرون ما هذا ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون** » رواه أحمد وغيره ، وصححه الشيخ الألباني « الصحيحة » (١٥٠٨) .

وعن أبي سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين كببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقًا به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت » رواه البغوي ، وأصله في الصحيح . وفيه أنها أفضل الأربع المذكورات وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران** » . إسناد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه . والمقصود : أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردُيه عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام** » .

وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** » .

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانها فإن كلاً منهما كفلت نبيًا في حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكليم وآمنت به حين أرسل ، وعذبت في سبيل الله عذابًا شديدًا ، ومريم كفلت ولدها عيسى عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرها في هذه الأمة كخديجة وفاطمة.

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مُتنَ في حياة النبي ﷺ . وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرًا غيرها ، ولا يُوف في سائر النساء في هذه الأمة ، بل ولا في غيرها ، أعلم منها ، ولا أفهم ، وقد غار الله تعالى لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل الله براءتها تعالى لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا : فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمَّرت بعد رسول الله ﷺ قريبًا من خمسين سنة تُبلِّغ عنه القرآن والسنة ، وتفتى في المسلمين، وتصلح بين المختلفين.

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله اصطفاها وطهرها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقًا كما قدمنا ، وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم[1] .

---

(١) لا يصح . وكل الأحاديث التي وردت بشأن زواج النبي من مريم وآسية وأخت موسى ، ضعفها الشيخ الألباني . . . وقال عنها ابن كثير بعد ساقها : وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر .

حمل مريم بعيسى عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم: ١٦-٢١] .

تقدم أن مريم عليها السلام لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها نبي ذلك الزمان « زكريا عليه السلام » ، وأنه اتخذ لها محرابًا « وهو المكان الشريف » من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله تعالى لها ، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيا يكون نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل ، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها ، من استقاء ماء أو تحصيل غذاء ، فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شئونها و﴿انتَبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى ، إذ بعث الله تعالى إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ فلما رأته ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ .

قال أبو العالية : علمت أن التقي ذو نهية ، وهذا يرد على قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقي » فإن هذا قول باطل

بلا دليل وهو من أسخف الأقوال ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي خاطبها الملك قائلاً : إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي ولست ذات زوج ولا أنا ممن يفعل الفاحشة . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست بذات بعل (زوج) ولا ممن تبغين ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي : وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير .

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي : ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي يرحم به العباد ، بأن يدعوهم إلى الله تعالى في صغره وكبره ، في طفولته وكهولته . بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، والشركاء ، والنظراء ، والأضداد والأنداد ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل عليه السلام معها يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢] فذكر غير واحد من السلف أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة في فرجها ، فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها ، ومن قال : إنه نفخ في فمها ، أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن ، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة ، وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها ، ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن

رُوحنَا ﴾ فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما روي عن أبي بن كعب ، ولا في صدرها كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة ولهذا قال تعالى : ﴿فحملته ﴾ أي حملت ولدها : ﴿ فانتبذت به مكانا قصيا ﴾ وذلك لأن مريم عليه السلام ضاقت به ذرعًا ، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام في حقها، فذكر غير واحد من السلف منهم « وهب بن منبه » أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له : «يوسف بن يعقوب النجار » وكان ابن خالها ، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حبلى، وليس لها زوج ، فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال : يا مريم ، هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم . فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم ، إن الله تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، قال لها : فأخبريني خبرك قالت : إن الله بشرني : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران : ٤٥، ٤٦] .

ويروي مثل هذا عن زكريا عليه السلام ، أنه سألها فأجابته بمثل هذا .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يومًا على أختها (زوجة زكريا) فقالت لها أختها : أشعرت أني حبلي ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضًا أني حبلى ؟ فأعتنقتها وقالت لها أم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك (والمراد بالسجود هاهنا الخضوع والتعظيم) كالسجود عند المواجهة للسلام ، كما كان في شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الخالة وكان حملهما معًا ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك : أرى ذلك بتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمة والأبرص . رواه ابن أبي حاتم .

وروي عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثني وكلمني ، وإذا كنت بين الناس سبح في بطني . ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر ، وعن ابن عباس وعكرمة : أنها حملت به ثمانية أشهر . وعن ابن عباس : ما هو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ [مريم: ٢٢ ، ٢٣] .

والصحيح : أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله ﴿ **فَتُصبح الأرض مخضرة** ﴾ وكقوله : ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ [المؤمنون : ١٤] . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يومًا كما ثبت في الحديث المتفق عليه . قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل فما دخل على آل بيت ما دخل على آل بيت زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم : ﴿ **فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا** ﴾ بعيدًا عن أهلها .

ولادته عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾** ﴾ [مريم: ٢٢-٢٦] .

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن مريم حملت عيسى عليه السلام ﴿ **فَانتَبَذَتْ بِهِ** ﴾ أي تنحت به وبعدت معتزلة عن قومها : ﴿ **مَكَانًا قَصِيًّا** ﴾ أي في مكان بعيد : والجمهور على أن المكان المذكور « بيت لحم » وفيه أقوال أخر غير ذلك . وقوله : ﴿ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ أي ألجأها الطلق إلى جذع

النخلة ، أي جذع نخلة في ذلك المكان . والعرب تقول : جاء فلان ، وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجيء ، ومنه قول حسان رضي الله عنه :

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل

والمخاض : الطلق ، وهو وجع الولادة ، وسمي مخاضًا من المخض وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج . ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣] وفيه دليل على جواز تمني الموت، عند الفتن . وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي : شيئًا حقيرًا من حقه أن يترك وينسى عادة . وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى :

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يا لله ! طفل[1] ولد اللحظة يناديها من تحتها . يُطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ويدلها على حجتها وبرهانها !

لا تحزني : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ فلم ينسك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولاً ساريًا . الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا . فهذا طعام وذاك شراب . والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي ﴾ هنيئًا . ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ واطمئني قلبًا . فأما إذا واجهت أحدًا فأعلنيه بطريقة غير الكلام ، أنك نذرت للرحمن صومًا عن

---

(١) مال ابن جرير ، وصاحب الظلال ، وصاحب أضواء البيان ، وأبو حيان في البحر إلى أن الذي ناداها من تحتها هو « عيسى عليه السلام » واستظهر القرطبي أنه جبريل .

حديث الناس . وانقطعت إليه للعبادة . ولا تجيبي أحدًا عن سؤال .

ونحسبها قد دهشت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليتساقط عليها رطبًا جنيًا ، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها. وإلى أن حجتها معها . هذا الطفل الذي ينطق في المهد . فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها .

وقال بعض العلماء : إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جذعًا يابسًا ، فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جني . والذي يفهم من سياق القرآن : أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة . ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك . (قاله صاحب أضواء البيان) .

مسألة :

أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ الآية - أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا ، وأنه لا ينافي التوكل على الله تعالى . وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة .

كما أخذ بعض العلماء من الآية : أن خير ما تطعمه النفساء الرطب ، قالوا : لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله مريم وقت نفساها بعيسى ، قاله الربيع بن خثيم وغيره .

عيسى يتكلم في المهد :

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾** ﴾ [مريم : ٢٧-٣٣] .

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي : أمرًا عظيمًا منكرًا .

وفي هذا الذي قالوه نظر ، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله .

قال ابن عباس : وذلك بعدما تعلت من نفاسها بعد أربعين يومًا . والمقصود : أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها : ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ والفرية : هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال . ثم قالوا لها : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ قيل : شبهوها بعابد من عباد زمانها كانت تساميه في العبادة . وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير . وقيل : أرادوا بهارون أخا موسى . شبهوها به في العبادة . وقالوا : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أي : لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم ولا أمك ، ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء . فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عنده ، فعندها : ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي : كيف تحيلنا في الجواب على طفل صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز ، وما ذلك منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء ، والنقص والازدراء ، إذ لا تردين علينا قولاً ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيًا ، فعندها : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة. وليس هو إلهًا كما تدعي فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة

كما تدعى فرقة . ويعلن أن الله جعله نبيًا ، لا ولدًا ولا شريكًا . وبارك فيه . وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا . هذا هو الحق في شأن عيسى عليه السلام :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم: ٣٤-٣٦] .

بعد هذا التقرير يعرض القرآن اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى فيبدوا هذا الخلاف مستنكرًا نابيًا في ظل هذه الحقيقة الناصعة . **﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾** [مريم :٣٧] . أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه ، فمن قائل من اليهود : إنه ولد زانية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم . وقابلهم آخرون في الكفر ، فقالوا : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله . وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله تعالى : **﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾** .

روى البخاري عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : **« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »** وفي رواية : **« من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء »**.

نشأة عيسى عليه السلام وتطور حياته :

زعم وهب بن منبه أن عيسى عليه السلام ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هي

ويوسف بن يعقوب النجار ، وهذا لا يصح ، والصحيح كما تقدم أنه عليه السلام ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيدًا لم تسمع الآذان بمثله .

وعن ابن عباس : أن عيسى بن مريم عليه السلام أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان . ثم أنطقه الله تعالى بعد ذلك بالحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦] . قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب ، فجعل لا يعلمه المعلم شيئًا إلا بدره إليه ، فعلمه أبا جاد ، فقال عيسى ما أبو جاد ؟ فقال المعلم : لا أدري . فقال عيسى : كيف تعلمني ما لا تدري فقال المعلم : إذًا فعلمني . فقال له عيسى: فقم من مجلسك . فقام فجلس عيسى مجلسه : فقال سلني ؟ فقال المعلم : فما أبو جاد ؟ فقال عيسى : الألف ، آلاء الله ، والباء : بهاء الله ، والجيم ، بهجة الله وجماله ، فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد (أي الحروف الأبجدية وعددها تسعة وعشرون حرفًا منها تتكون الكلمات) .

وعن ابن عباس - أيضًا - قال : وكان عيسى عليه السلام يرى العجائب في صباه إلهامًا من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى ، فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠] .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفاتها أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستوٍ يقر عليه وارتفاعه متسع ، ومع علوه فيه عيون الماء المعين وهو الجاري السارح على وجه الأرض، فقيل : المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ، ولهذا قال : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ

جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ [مريم: ٢٤] .وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف . وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق ، وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم ، وقيل : هي الرملة . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت « إيليا » قال : فقدم عليه يوسف بن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى « إيليا » وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة ، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم ، وتحدث الناس بقدومه ، وفزعوا لما كان يأتي به من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله تعالى ففشا فيهم أمره .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها :

عن واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان** »[١] .

وذكر ابن جرير في « تاريخه » أنه أُنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

معجزاته عليه السلام :

قال تعالى : **﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**

---

(١) إسناده حسن : رواه أحمد برقم (١٦٩٢١) . وقال المحقق : إسناده حسن.

﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ [المائدة : ١١٠، ١١١] .

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى بن مريم وأمه . من تأييده بروح القدس في مهده ، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام ، ويبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال ؟ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله. وروح القدس جبريل - عليه السلام - يؤيده هنا وهناك . ومن تعليمه الكتاب والحكمة ، وقد جاء فوجدها في بني إسرائيل ، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقًا لما بين يديه من التوراة . ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله . فإذا هو يصورٌ من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله لا ندري كيف لأننا لا ندري اليوم كيف خلق الله الحياة ، وكيف يبث الحياة في الأحياء ، وإذا هو يبرئ المولود أعمى - بإذن الله - حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر - ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور - ويبرئ الأبرص بإذن الله ، لا بدواء - والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء ، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة ، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ، وإذا هو يحيى الموتى بإذن الله - وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء - ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذا جاءهم بهذه البينات كلها ، فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين ، وذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ، وقد شهدتها الألوف . ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادًا وكبرًا ، وحمايته منهم فلم يقتلوه ، كما أرادوا ولم يصلبوه ، بل توفاه الله ورفعه إليه . كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله ، فإذا هم ملبون مستسلمون ، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ إنها النعم التي آتاها الله عيسى عليه السلام ، لتكون له شهادة وبينة . فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ ، وتصوغ منها . وحولها الأضاليل ، فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من

الملأ الأعلى ، ومن الناس جميعًا ، ومنهم قومه الغالون فيه .ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا ، وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين ! .

أنصار الله وأنصار الشيطان :

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)** ﴾ [آل عمران : ٥٢-٥٤] .

والمقصود : أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم . فوفق الله من بينهم طائفة صالحة فكانوا أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنوا إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه وقتلوه وصلبوه ، وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك غالطون ، وللحق مكابرون .

البشارة بخاتم النبيين :

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)** ﴾ [الصف:٦] .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيبًا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوَّه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم ، وإحسانًا من الله تعالى إليهم ، كما قال تعالى :

﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)** ﴾

[الأعراف: ١٥٧] . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نورًا أضاءت منها قصور الشام»(١) .

خبر المائدة:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥] .

يكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون، فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد . إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقهم بعد ذلك البرهان .

ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن . هذا هو الفارق الكبير بين حواري عيسى عليه السلام، وحواري محمد ﷺ، ذلك مستوى وهذا مستوى، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون . وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون ولكن تبقى المستويات متباعدة . كما أرادها الله . ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾؟ .

لقد كان الحواريون - وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به - يعرفون أنه بشر، ابن مريم ... وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة . وكانوا يعرفون أنه ليس ربًا وإنما هو عبد مربوب لله . وأنه ليس ابن الله، وإنما هو ابن

---

(١) إسناده حسن: رواه أحمد في المسند (٢٢١٦٢) . وقال المحقق: إسناده حسن .

مريم ومن عبيد الله ، وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه ، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة . لذلك حين طلبوا إليه ، أن تنزل عليهم مائدة من السماء لم يطلبوها منه ، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة . وإنما سألوه : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ واختلفت التأويلات في قولهم : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كيف سألوه بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى - عليه السلام - على إسلامهم له . وقيل : إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم . وقيل : إن معناها : هل يستجيب لك إذا طلبت . وقرئت ﴿ هَلْ تستطيع رَبَّكَ ﴾ بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء .

وعلى أية حال فقد ردَّ عليهم عيسى - عليه السلام - ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي اتقوا معاصيه وكثرة السؤال ، فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات ، إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به ، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى . ولكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه . ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض[١] وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم ، ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهودًا لدي بقية قومهم علي وقوع هذه المعجزة . وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معينًا دون مستوى أصحاب محمد ﷺ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز ! عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وفي دعاء عيسى عليه السلام كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة ، أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته

---

(١) قال الإمام القرطبي : والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل . والله أعلم بتعيينه .

بربه ، فهو يناديه : يا الله يا ربنا ، إنني أدعـوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا ، وأن هذا من رزقك فـارزقنا وأنت خـير الرازقين . فـهـو إذن يعرف أنه عـبـد ، وأن الله ربه، وهذا الاعتـراف يعرض على مـشهد من العـالمين ، في مواجـهة قومـه ، يـوم المشهـد العظيم .

واستجاب الله دعاء عبده الصـالح عيسى بن مريم ، ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه وتعـالى . لقد طلبوا خارقة ، واستجـاب الله . على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخـارقة عذابًا شديدًا بالـغًا في شدته لا يعذبه أحـدًا من العالمين . ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ، حـتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوًا . وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعـد البرهان المفحم دون جزاء رادع ! وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة فأما هذا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا ، أو أن يكون في الآخرة .

تنبيه : اختلف العلـماء في المائدة : أنزلت أم لا ؟ وجمـهور العلمـاء سلفًا ، وخلفًـا على نزولها ، وهذا ظاهر القـرآن ، فقـد وعد الله ، ووعـده محـقق لا محالة، وقد أحيطت المائدة بأخبار كثيرة ، أغلب الظن : أنها من الإسرائيليات .

مأثورات من كلامه ومواعظة عليه السلام :

* عن جعفر بن بلقان : أن عيسى عليه السلام كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع مـا أكره ، ولا أملك نفع ما أرجـو ، وأصبح الأمر بيد غـيري ، وأصبحت مرتهنًا بعملي ، فلا فقـير أفقر مني ، اللهم لا تشمت بي عدوي ، ولا تسؤ بي صديـقي ، ولا تجعل مـصيبـتي في دينـــي ، ولا تسلـط عليَّ من لا يرحمني .

* قال الفضـيل : كان عيسي عليه السلام يقـول : « فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق » .

* وقال قـتادة : قال عيـسى عليه السلام : « سلـوني فإني لين القلب ، وإني

صغير عند نفسي » .

* وعن ابن عمر قال : قال عيسى للحـواريين : « كلوا خبز الشعير ، واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم ، أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخـرة ، وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق مـا أقول لكم ، إن شـركم عـالم يؤثر هواه على علمـه يود أن الناس كلهم مثله» .

* وعن يحيى بن سعيد ، قال : كان عيسى عليه السلام يقول : « اعبروا الدنيا ولا تعـمروها » وكـان يقول : « حب الدنيـا رأس كل خطيئـة ، والنظر يزرع في القلب الشهـوة » . وحكي وهيب بن الورد مثله ، وزاد : « ورب شـهوة أورثت حزنًا طويلاً» .

* وعن عـيسى عليـه السلام قـال : « يا ابن آدم الضعـيف اتق الله حيـث ما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا ، واتخذ المساجد بيتًا ، وعلم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة » .

* وقال عليه السلام : « طالب الدنيا مثل شـارب ماء البحر ، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله » .

* وقال عليه السلام : « إن الشـيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزيينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات » .

* وقالت امرأة لعيسي عليه السلام : طوبى لحجر حملك ، ولثدي أرضعك ، فقال : « طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه » .

* وعنه قال : « طوبى لعين نامت ولم تحـدث نفسها بالمعصيـة ، وانتبهت إلى غير إثم » .

* وعن زكريا بن عـدي ، قال : قال عيـسى بن مريم : « يا معشـر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا » قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

* وعن مالك ، قال : قال عيسى عليه السلام : « لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد عن الله ، ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية» .

* وعن سالم بن أبي الجعد ، قال : قال عيسى عليه السلام : « اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها فإن قلتم نحن أعظم بطونًا من الطير ، فانظروا إلى هذا الأمة من الوحوش والحمر ، فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز .

* وعن عبد العزيز بن ظُبيان قال : قال عيسى عليه السلام : « من تعلم وعلم وعمل دعي عظيمًا في ملكوت السماء » .

* وقال أبو كُريب : روي أن عيسى عليه السلام قال : « لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي » .

* وروي ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعًا ، أن عيسى قام في بني إسرائيل قال : « يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحِكَمِ غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيَّه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل .

* ويروى عن عيسى عليه السلام أيضًا أنه قال : « يا علماء السوء جعلتم الدنيا فوق رؤوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء ، وعملكم داء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها ، وتقتل من أكلها » .

* وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلي فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : « قد كنتم فيما هو أضيق منه أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع » .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء :

تآمر اليهود على قتل عيسى عليه السلام ، فوشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان . قال الحسن البصري : كان اسمه - أي الملك - (داود بن نورا) فأمر بقتله وصلبه . فحصروه في دار بيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى عليه السلام من رَوزَنة (فتحة) من ذلك البيت إلى السماء ، وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى ، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه مهانة له ، وسلم لليهود عامة والنصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا .

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء : ١٥٥-١٥٩] .

قال ابن عباس : لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يُلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ فقال شاب من أحدثهم سنًا ، فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب . فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام ، ورُفع عيسى من رَوْزَنَة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به

وافترقوا ثلاث فرق : فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء هم المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله تعالى محمدًا ﷺ .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم وهكذا ذكر غير واحد من السلف . قال الله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** (٥٥) ﴾ [آل عمران : ٥٥] . واختلفوا هل رفع عيسى عليه السلام إلى السماء حيًّا أم ميتًا . على ثلاثة أقوال :

الأول : أنه رفع إلى السماء حيًا بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وهذا هو الظاهر .

الثاني : أن الله تعالى قبض روحه وأماته ثم رفعه .

الثالث : التوقف .

وإليك أقوال السادة العلماء في هذه المسألة :

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » : أخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به . اهـ .

وقال الإمام القرطبي : قال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ على التقديم والتأخير ، لأن الواو لا توجب الرتبة ، والمعنى : إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ، كقوله : ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى** (١٢٩) ﴾ [طه : ١٢٩] والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزمًا .

وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته وقال وهب بن منبه ، توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء . وهذا فيه بُعد ، فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجال أي آخر الزمان .

وقال ابن زيد : متوفيك قابضك ورافعك واحد ولم يمت بعد . وروي ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك . وقال الربيع بن أنس : وهي وفاة نوم، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ينيمكم لأن النوم أخو الموت ، كما قال ﷺ لما سئل : أفي الجنة نوم ؟ قال : « **لا ، النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها** » . أخرجه الدارقطني . والصحيح : أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس ، وقاله الضحاك[1] . اهـ .

قلت : وسئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية: هل عيسى ابن مريم حيّ أو ميت ؟ .

فأجابت : عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حيّ لم يمت حتى الآن ولم يقتله اليهود ولم يصلبوه ولكن شبه لهم ، بل رفعه الله إلى السماء ببدنه وروحه وهو الآن في السماء . فتوى رقم (١٦٢١) وتوقف في المسألة « صاحب الظلال » فقال : فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه . فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا في عقيدة ولا في شريعة . والذين يجرون وراءها . ويجعلونها مادة للجدل ،ينتهي بهم الحال إلى المراء ، وإلى التخليط ، وإلى التعقيد ، دون جزم بحقيقة . ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله » . قال سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨٥٣٢) .

---

(١) أما عن كيفية حياته في السماء ، فقال بعض العلماء : إنها حياة خاصة كما قال الله عن الشهداء : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

نزول عيسى آخر الزمان :

من علامات الساعة الكبرى ، نزول عيسى عليه السلام حيًّا من السماء إلى الأرض . فعن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف: ٦١] قال : نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة[١] وقال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩] قال ابن كثير : «أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام » . اهـ . وقد جاء التفصيل في السنة النبوية ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان ، ينزل الله عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق . قال ﷺ : « **ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق** » رواه الطبراني وصححه الشيخ الألباني : « صحيح الجامع » (٨٠٢٥).

وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله فقال : « **ليس بيني وبين عيسى نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فأعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل** » . رواه أبو داود ، وقال الألباني : صحيح . صحيح الجامع (٥٢٦٥) . ويكون نزلوه في وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر ، وتقدم إمامهم للصلاة ، فيرجع ذلك الإمام طالبًا من عيسى أن يتقدم فيؤمهم ، فيأبى . ففي الحديث : « **وإمامهم** - أي إمام الجيش الإسلامي - **رجل صالح ، فبينما إمامهم يتقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقرى ليتقدم عيسي ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصل بهم إمامهم** » رواه ابن ماجة وانظر « صحيح الجامع » (٦/ ٢٧٧) . وروي مسلم في «صحيحه » أن النبي ﷺ قال : « **لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال**

---

(١) إسناده حسن : رواه ابن حبان في صحيحه (٦٨١٧ - الإحسان) .

صلّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة » .

مهمته بعد نزوله :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً** - أي ليس نبيًا ولا رسولاً - **فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها** » .

وفي رواية في الصحيح أنه سيحكم بشريعة محمد ﷺ .

بقاء عيسى في الأرض :

روي أبو داود عن أبي هريرة قال : قال ﷺ : « **فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يُتوفى ويصلى عليه المسلمون** »[1] صحيح الجامع (٥٢٦٥) .

حجه إلى البيت العتيق :

ثبت في « صحيح مسلم» أن عيسى عليه السلام سيحج إلى البيت العتيق . قال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، ليهلّن ابن مريم بفج الروحاء ، حاجًا ومعتمرًا ، أو ليثنينهما** » والروحاء : مكان بين مكة والمدينة .

صفة عيسى عليه السلام وشمائله :

سمي عيسى عليه السلام بالمسيح لأنه ما مسح على ذي عاهة إلا برأ بإذن الله. وقال بعض السلف : سمي مسيحًا لمسحه الأرض وكثرة سياحته فيها للدعوة إلى الدين ، وعلى هذين القولين يكون المسيح بمعنى ماسح ، وقيل : سمي مسيحًا لأنه كان ممسوح القدمين لا أخمص له . وقيل : لأنه مسح بالبركة . أو طهر من الذنوب فكان مباركًا ، وعلى هذين القولين يكون مسيح بمعنى ممسوح ، والأظهر الأول والله أعلم . وعلى كل حال لا يتعلق بذلك عقيدة ولا عمل ، فالجدوى في ذلك ضعيفة أو معدومة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال النبي ﷺ : « **ليلة أسري بي لقيت**

---

(١) ورد في حديث ذكره ابن عساكر أنه سيدفن في « الحجرة النبوية » عند رسول الله . ولا يصح إسناده .

موسى ، قال : فنعته فإذا رجل حسبته قال : مضطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال : ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس - يعني الحمام -....... » الحديث . وروي البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « **رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر** » . وعن أبي هريرة أيضًا عن النبي ﷺ قال : « **إني لأرجو إن طال بي العمر أن ألقى عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام** » . أخرجه أحمد في « المسند » برقم (٧٩٥٧) . وقال المحقق : إسناده صحيح .

* * *

قصة قوم سبأ

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ : ١٥-٢٠] .

قال علماء النسب ومنهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ عبد شمس . قالوا : وكان أول من سبى من العرب فسمي سبأ لذلك ، وكان يقال له : « الرائش » لأنه كان يعطي الناس الأموال من قناعه . ويقال : إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلمًا ، وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « **بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير - وعربًا كلها - وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان** »[1] .

وسكن قوم سبأ بأرض اليمن ، وأغدق الله عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة ، وأصلح لهم البال والحال ، وبارك لهم في الأرض والمال ، ووضع عنهم الأوزار والأحمال ، ونقّى لهم الهواء ، ونزلت عليهم بركة السماء . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ أي : علامة دالة على كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه . قال الإمام عبد الرحمن بن زيد : « إن الآية التي كانت لأهل سبأ في

---

(١) إسناده حسن : رواه أحمد في المسند (١/ ٣١٦) وقال ابن كثير : إسناده حسن .

مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملة ولا عقربًا ولا حية ولا غير ذلك ، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم » . ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ كان الماء يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا السيول ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا (هو سد مأرب) حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات تلك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، فكانت الأشجار تثمر أجود وأنضج وأحلى الثمار بقدرة العزيز الغفار . قال قتادة : إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . قال الشوكاني : وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطت به من جهتيه ، وكانت مساكنهم في الوادي .

ماذا طلب الله منهم؟

قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] .

كانوا في رغد من العيش وسلامة الحال ورفاهيته ، فأمروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمر سهل يسير ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضيعوا الشكر ، فبدلوا وبدل بهم الحال . قال بعض الصالحين: من لم يشكر الله على نعمه فقد تعرض لزوالها ، ومن شكره عليها فقد قيدها بعقالها . ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي عن الشكر ، وكفروا بالمنعم سبحانه ، وكذبوا أنبياءه.

عاقبة الجحود :

قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ : ١٦] .

أرسل الله عليهم سيلاً شديدًا لا يطاق فشق السد وهدمه . وقيل : أرسل الله

على أصل السد الفار[1] . وهو الجرذ فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها «السنانير». قال وهب : فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلا جانبها هرة . فلم تغن شيئًا إذا حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لا وزر ، فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار ، فسلك الماء القرار ، فقطعت تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك الثمار ، وحادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والثمار كما قال العزيز الجبار : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ :١٦].

كذلك من الناس من يكون في رغد من الحال ، واتصال من التوفيق ، وطرب من القلب ، ومساعدة من الوقت ، فيرتكب زلة ، أو يسيء أدبًا أو تتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما هو به ، فيتغير عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا طرب ولا وصال ، يُظلم عليه النهار وقد كانت لياليه مضيئة ، كما قالوا :

ما زلت أختال في زمانٍ وحال ... حتى أمنت الزمان مكره

حال على الصدود حتى ... لم تبق مما شهدت ذرة

قال ابن عباس : خمط : هو الأراك - وأثل : وهو الطرفاء . وقيل : خمط : ثمر مرٌّ لا يؤكل ، وأثل : شجر لا ثمر فيه . (وشيء من سدر قليل) : أي قلة من شجر النبق ، وهو ثمر قليل في شوك كثير .

يا ترى ما السبب ؟

يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] . أي : نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا ، وكذب رسلنا ، وخالف أمرنا ، وانتهك محارمنا . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ فالجزاء من جنس العمل. قال الإمام القشيري : ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سقوا إلا مما ثبطوا[2] ، وما وقعوا إلا في الوهدة التي حفروا ، وما قتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا . اهـ . ثم فرقهم الله تعالى في البلاد ، وأذلهم بين العباد ، وشردهم في كل واد . ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) قال ابن الأعرابي : العَرِم من أسماء الفار » .

(٢) ثبط : حمق في عمله .

لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩] . فرقناهم تفريقًا حتى اتخذهم الناس مثلاً مضروبًا ، يقولون : ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أيادي سبأ ، وفي قصتهم آيات لكل صبَّار على العاقبة شكور على النعمة .

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ولا تتهم

فهل يتعظ المفرطون في نعم الله عندهم ، الذين تقلبوا في نعم الله ظهرًا لبطن، ومنعوا حق السائل والمحروم ، واستخدموا نعم الله تعالى في محاربته سبحانه ، ويا للأسف إن منا من فعل فعل قوم سبأ ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ فأرسل الله علينا الهموم وسلط علينا البلاء ، وشقى الإنسان بنعمة الله التي عنده : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ قال الإمام الحسن : إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يُشكر قلبها عليهم عذابًا » . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : ٢٠] صدَّق عليهم إبليس ظنه ، وإن كان لا يملك لنفسه أمرًا ، فإبليس مسلط على أتباعه من الجن والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يضر غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ الإسراء : ٦٥] . قال الإمام الحسن : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه .

* * *

قصة صاحب الجنتين

من الناس في هذه الحياة من يعمل للآخرة ، فيوظف نعم الله تعالى لمصلحة معاشه ومعاده ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧] وكما في الحديث الصحيح الذي يرويه النبي ﷺ عن رب العزة أنه قال : « إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة».

وبلا شك فهذا النوع هو الرابح الناجي . ومنهم من يعمل في هذه الحياة من أجل الدنيا ، فكل همه قضاء وطره منها ، تمركزت عقليته في شهوته . ﴿ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ [البقرة:] وبلا شك فهذا النوع هو الخاسر الهالك : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش »(١) . رواه البخاري.

قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ

---

(١) دعاء من النبي ﷺ إذا دخلت شوكة جسده لا تخرج حتى تهلكه .

كفَّيْه علَىٰ مَا أنفق فيها وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف : ٣٢-٤٤] . هذه القصة : تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس .

صاحب الجنتين : نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه .

وصاحبه : نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره . وتبدأ القصة بمشهد الجنتين الجميل : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ . فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر ، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال: ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ ويختار التعبير كلمة « تظلم » في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر وازدهى وتكبر . ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أي لصاحب الجنتين أنواع من المال من الذهب ، والفضة ، والحيوان وغير ذلك ، وقرأها ابن عباس ﴿ ثُمُر ﴾ وقال : هي أنواع المال . وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾[1] .ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ، وقد نسي الله ، ونسي أن يشكره على ما أعطاه ، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا ، أنكر قيام الساعة

---

(١) قال قتادة : تلك هي والله أمنية الفاجر كثرة المال والعشيرة .

أصلاً ، وهب أنها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ، أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلابد أن يكون جنابه ، ملحوظًا في الآخرة . ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[1] إنه الغرور يخيل لذوي المتاع والثراء ، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى ، فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض ، فلابد أن يكون لهم في السماء مكان ملحوظ .

ذكر محمد بن الحسن المقري قال : اسم الخيِّر منهما : « تمليخا » والآخر «فرطوش » وفي رواية : المؤمن يسمي « يهوذا » والآخر « براطوس » . ولا تهمنا الأسماء في قليل ولا كثير فالعبرة بما حدث منهما . قيل : كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهم عبيدًا بألف وأعتقهم ، وبالألف الثانية ثيابًا فكسى بها العراة ، وبالألف الثالثة طعامًا فأطعم الجُوَّع .

وأما الآخر فنكح بماله النساء ذوات اليسار ، واشترى دوابًا وبقرًا فاستنتجها فنمت له نماء مفرطًا ، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى ، وأدركت الأول الحاجة « الفقر » فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها ، فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته ، رجوت أن يكون ذلك أصلح بي ، فجاءه فلم يكد يصل إليه من غلظ الحُجَّاب ، فلما دخل عليه وعَرفه، وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ؟ فما صنعت بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير وأبقى . فقال : أإنك لمن المصدقين (أي بالبعث والنشور) ؟ وما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيهًا ، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان ، فذكره صاحبه (الفقير) بمنشئه المهين من ماء وطين ، ووجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم ، وأنذره عاقبة البطر والكبر ، وأنه يرجو عند ربه ما هو خير من جنته وثمره . ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ

---

(١) وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه . · الكشاف (٢/ ٧٢١) .

يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٨-٤١] .

هكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالي المال والفقر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظم وهو يطمع في فضل الله ، وأن نقمة الله وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين . وقوله : ﴿ لَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ أي : هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ، ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله» .

مصير المغرورين :

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ومن هيئة البطر والاستكبار ، إلى هيئة الندم والاستغفار ، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ وهو مشهد خاص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع وجهده الذاهب ، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته ، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركًا ينكره الآن ، ويندم عليه ، ويستعيذ منه بعد فوات الأوان . هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة ، فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه هو

خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ . ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها وهو يقلب كفيه أسفًا وندمًا ، وجلال الله يظلل الموقف حيث تتوارى قدرة الإنسان .

من فوائد القصة :

* وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده .

* وفيها : أن من قدَّم شيئًا على طاعة الله والإنفاق في سبيله عُذِّب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده .

* وفيها : أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة .

* وفيها : أن الندامة لا تنفع إذ حان القدر ونفذ الأمر الحتم .

* * *

قصة أصحاب الجنة

من عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب ، « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » ، وقد قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ فإذا غَيَّر غُيِّر عليه جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد ، فإن غَيَّر المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعز وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد : ١١] .

على أرض اليمن وبالتحديد في قرية يقال لها : « ضروان » على ستة أميال من صنعاء ، عاش أحد الصالحين الأغنياء ، وكان من أهل المعروف ، وكانت له جنة (بستان) ، وكان يسير فيها سيرة حسنة ، فكان يستغل منها ويرد فيها ما تحتاج إليه (أي من زرعها) ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [القلم: ١٧-٣٣]

﴿ إنا بلوناهم ﴾ أي : اختبرناهم ، وهذا مثل ضربه الله تعـالى لكفار قريش فيما أهدي إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة . ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهي البستان المشتـمل على أنواع الثمار والفواكه . ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ ها نحن أولاء أمام أصحـاب الجنة ، جنة الدنيا لا جنة الآخرة ، وها هم أولا يبيتون في شأنها أمرًا ، لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة ، على أيام صاحبها الطيب الصالح ، ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم ، فلننظر كيف تجري الأحداث إذن .

لقد قر رأيهم على أن يقطعـوا ثمرها عند الصباح الباكـر ، دون أن يستثنوا منه شيئًا للمسـاكين ، وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه ، وباتوا بهـذا الشر فيما اعتزموه ، فلندعهم في غفلتهم أو في كـيدهم الذي بيتوه ، ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون ، فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاء على ما بيتوا من بطر النعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين المعلوم ، إن هناك مفـاجأة تتم في خفية ، وحركة لطيـفة كحركة الأشـباح في الظلام ، والناس نيـام ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي : طاف على تلك الجنة طائـف من جهـة الله سبحانه ، والطائف قيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل ، وقيل الطائف : جبريل اقتلعها . وقيل : أصابتها آفة سماوية . وقال الكلبي : إن الله أرسل عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون . ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل الأسود وهذه معاملة بنقيض المقصود .

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا قد كان هيئ له » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ولندع الجنة وما ألم بها مؤقتًا لننـظر كيف يصنع المبيتون الماكرون . ها هم أولاء يصبحون مبكرين كما دبروا ، وينادي بعضهم بعضًا لينفذوا ما اعتزموا :

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ يذكر بعضهم بعضًا ويوصي بعضهم بعضًا ، ويحمس بعضهم بعضًا ، ثم يمضي السياق في السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون في خفوت ، زيادة في إحكام التدبير ، وليحتجزوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين . ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه ، نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها ، أجل . فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام ، فتذهب بثمرها كله ، ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب ، فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون . ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان ، حرمان أنفسهم على أقل تقدير وها هم أولاء يفاجأون .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي : لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حل بها من الآفة التي أذهبت ما فيها قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه . ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم ، بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القلم: ٢٧] . أي : حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها .

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ، ويبدوا أنه كان له رأي غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه ، ولم يصر على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم ، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ معناه : ألم أقل لكم سبحوا الله واشكروه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان ، وهل ينفع الندم بعد أن زل القلب والقدم ؟ ! وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه إلى الآخرين . ها هم أولاء

يصنعون . ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعًا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة . ﴿ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ** ﴿٣١﴾ **عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾ أي : طالبون منه الخير راجون لعفوه. وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب : ﴿ **كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ وكذلك الابتلاء بالنعمة ، فليعلم المشركون أهل مكة : ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** ﴾ ولينظروا ماذا وراء الابتلاء ، ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا ﴿ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ .

من فوائد القصة :

١- أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية ، دمر الله جنتهم ، فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية ، ومنع الزكاة طوال عمره ؟!

٢- قال بعض العلماء : على من حصد زرعًا أو جدّ ثمره أن يواسي منه من حضره ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٤١] وأنه غير الزكاة .

٣- النهي عن الحصاد بالليل ، روى البيهقي عن علي بن أبي طالب قال : إن رسول الله ﷺ « **نهي عن الجذاذ بالليل ، والحصاد بالليل** » .

٤- أن مواساة الفقير وإعطاء المسكين من مال الله الذي عندك ، حصن حصين، ودرع واقي من الآفات والبلاء ، فالبلاء لا يتخطى الصدقة ، وفي الحديث : « **داووا مرضاكم بالصدقة ، وحصنوا أموالكم بالزكاة** » .

٥- لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

* * *

قصة أصحاب الأخدود

هذه القصة : قصة أصحاب الأخدود ، سجّل القرآن خاتمتها في « سورة البروج » وبين النبي ﷺ بدايتها ، والقصة تظهر فيها قوة الإيمان ، وكيف أن العبد إذا وجد طعم الإيمان ، وذاق حلاوته فإن ذلك يشغله عما يتعرض له الجسد من إيلام وعذاب ، ويكون أيسر على المؤمن أن تخرج روحه من جسده ، ولا يخرج الإيمان من قلبه .

ما هي القصة ؟

روى مسلم في « صحيحه » عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر ، فبعث إليه غلامًا يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عَميَ ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك : من ردَّ عليك بصرك ؟ . قال : ربي . قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام ، فجيء

بالغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل فقال : إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قَرقُور « سفينة » فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس[1] ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهمًا من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت[2] وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتي جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبري فإنك على الحق » .

---

(١) كبد القوس : وسطه . (٢) الأخدود : الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق .

قلت : وهذه الرواية صحيحه - بلا شك - غير أنه لم يثبت من طريق صحيح، اسم الملك الذكور ، ولا اسم المكان ، ولا الجماعة المؤمنة التي ابتليت بهذا البلاء . قال القفال : ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس في شيء منها ما يصح إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين . خالفوا قومهم أو ملكًا كافرًا كان حاكمًا عليهم فألقاهم في أخدود حفر لهم ، وأظن أن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيهًا لهم علي ما يلزمهم من الصبر على دينهم ، واحتمال المكاره فيه ، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين ، على حسب ما اشتهرت به الأخبار عن مبالغتهم في إيذاء عمار وبلال » . اهـ .

مع آيات سورة البروج :

قال تعالى : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)** ﴾ [البروج : ٤-١٠] .

تبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** ﴾ وهي كلمة تدل على الغضب ، غضب الله علي الفعلة وفاعليها ، كما تدل علي شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه . قال ابن عباس : كل شيء في القرآن (قُتل) فهو لعن . والمعنى لُعن أصحاب الأخدود . ﴿ **النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ** ﴾ أي : عند النار وكان الملك وأصحابه جلوسًا علي الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر ، فمن أبى ألقوه . ﴿ **وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾ أي : حضور يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار. وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾

فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر علي ما يريد ، الحميد : المستحق للحمد في كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ، وهو والحقيق بالإيمان وبالعبودية له ، وهو وحده الذي له ملك السموات والأرض وهو يشهد كل شيء ، وتتعلق به إرادته تعلق الحضور .

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين فالله كان شهيدًا ، وكفى بالله شهيدًا . وتنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة ، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان بإمكانهم أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها ستخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية وانحطاطها حين يسيطر الجبابرة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد .

إنه معني كبير جدًا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض ربحوه وهم يجدون مسَّ النار ، فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب .

عاقبة الأشرار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ أي : حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فتنت الشيء أي : أحرقته ، وقيل : معنى فتنوا المؤمنين ، محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه ، ثم لم يتوبوا من قبيح صنيعهم ، ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ، فلهم عذاب جهنم أي: لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ولهم عذاب الحريق ، أي : ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذي وقع منهم للمؤمنين، وقيل : الحريق اسم من أسماء النار كالسعير ، وقيل : أنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأول : عذاب ببردها . والثاني :

عذاب بحرِّها .

عاقبة الأبرار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج : ١١]

وبهذه الآية الكريمة تنتهي قصة أصحاب الأخدود ، ويخبر الله تعالى عن عباده المؤمنين أن **﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ، ولهذا قال : **﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾** ألا هانت الحياة وهان الألم، وهان العذاب . وهان كل غالٍ عزيز ، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولي الودود ، ذو العرش المجيد .

معجزة للغلام بعد دفنه :

قال الشوكاني : فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب ، وأصبعه على صدغه ، كما وضعها حين قتل . وقال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران كان في زمن عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن تامر[1] تحت دفن فيها قاعدًا واضعًا يده على ضربة في رأسه ممسكًا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها تنبعث دمًا ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمها !! وفي يده خاتم مكتوب فيه « ربي الله » فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه ففعلوا .

* * *

---

(١) عبد الله بن تامر : قيل هو اسم الغلام ، وقيل : اسمه « فيمون » فالله أعلم .

قصة أصحاب الفيل

كان أبرهة الحبشي قد بني كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة ، وجمع لها كل أسباب الفخامة ، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذي يحكمهم إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة ، وشماليها كذلك ، وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية . ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب .

عندئذ صح عزم « أبرهة » على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ، وقاد جيشًا جرارًا تصاحبه الفيلة ، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم ، فتسامع العرب به وبقصده ، وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم ، فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : « ذو نفر » فدعا قومه ومن أجابه من سائرالعرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلي ذلك من أجابه، ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هُزم وأخذه أبرهة أسيرًا ، ثم وقف له في الطريق كذلك « نفيل بن حبيب الخثعمي » في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأسر نفيلاً ، الذي قبل أن يكون دليله في أرض العرب . حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذي يقصده ليس عندهم ، إنما هو في « مكة » وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للاَّت ، وبعثوا معه من يدله على الكعبة ، فلما كان أبرهة « بالمغمس » بين الطائف ومكة، بعث قائدًا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه ، أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يوم يومئذ كبير قريش وسيدها .

فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا

طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم ، فإذا كان سيد هذا البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك، فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ، فانطلق معه إلى أبرهة .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه ، قل له : ما حاجتك ؟ . فقال : حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك ، فرد عليه إبله . ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شعف الجبال . ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروي عن عبد المطلب أنه أنشد :

لا هُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدًا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له ، فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء (

أي حرنت) فقـال رسول الله ﷺ : « ما خـلأت القصواء ، ومـا ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » . رواه البخاري ، وفي « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قـال يوم فـتح مكة « إن الله حـبس عـن مكة الفـيل وسلط علـيـهـا رسـوله والمؤمنين، وإنه قـد عادت حـرمتهـا اليوم كـحرمتهـا بالأمس ، ألا فليبلغ الشـاهد الغائب » . فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة يوم الفيل .

ثم كان مـا أراده الله من إهلاك الجيش وقـائده ،فأرسل علـيـهـم جمـاعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة،كما يحكى القرآن الكريم وأصيب أبرهة في جسده ،وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات .

مع آيات سورة الفيل :

قال تعـالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴿١﴾ ﴾ وهو سؤال للتعـجيب من الحادث ، والتنبـيه على دلالته العظيـمة . ﴿ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴿٢﴾ ﴾ أي : ألم يجعل مكرهم وسـعيهم في تخريب الكـعبة واستـباحة أهلها في تضليل عـمـا قصدوا إليه ، حتى لم يـصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم . ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴿٣﴾ ﴾ أي : جمـاعات من ههنا وههنا قال سعيد بن جـبير : كانت طيرًا من السماء لم يُر قبلهـا ولا بعدها وقال قتادة : هي طيـر سود جاءت مـن قبل البـحر فوجًـا فوجًـا مع كل طائر ثلاثة أحـجار : حجران في رجـليه ، وحجر في منقـاره لا يصيب شيئًـا إلا هشمه . ﴿ **تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ** ﴿٤﴾ ﴾ قيـل : هي حجـارة من طين طبخت بنار جـهنم مكتوب فـيها أسمـاء القوم . ﴿ **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴿٥﴾ ﴾ أي : جعل أصحـاب الفيل كـورق الزرع ، إذا أكلته الدواب فـرمت به من أسفـل ، قال ابن عباس : كعصف مأكول : كالتبن .

وهكذا حـفظ الله تعالى البـيت ، وصان الأرض المقـدسة من أهل الكـتاب ، أبرهة وجنوده ، ليبـقى هذا البيت عتيقًـا من سلطان المتسلطين ، مصـونًا من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض المقدسة حريتها ، حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة

حرة طليقة ، **لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد** ، وكان هذا من تدبير الله بيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته أبرهة وجيشه ، سيحفظه إن شاء الله ، ويحفظ مدينة رسول الله من كيد الكائدين ، ومكر الماكرين .

وإيحاء آخر وهو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض ، بل لم يكن لهم كيان ، قبل الإسلام ، كانوا في حالة تفكك لا تجعل منهم قوة حقيقة في ميدان القوى العالمية وما حدث في عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه ، وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب ، قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية . ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ، نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم مسلمون ، ومسلمون فقط ، ورفعوا راية الإسلام وحدها، وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلي البشرية رحمة وبراً . عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله ، وقد ظلت لهم قوتهم ما استقاموا على الطريقة ، حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض ، وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه ، هذا درس عظيم ﴿ **لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد** ﴾ .

* * *

خــــاتمــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد :

فالحـمد لله تعـالى الذي وفقني لإتمام هذا العـمل الطيب (**بإذن الله**) . والله يعلم كم بذلت فيـه من جهد فلقد جمـعت لكل قصة أدلتهـا من القرآن والسنة ، وأقوال سلف الأمة ، ولقـد تجولت كثيرًا في الكتب آخـذًا قطفًا من هنا وزهرة من هناك ، ثم أبدأ في التـرتيب والتنسيق وتوضـيح المعاني ، حتى يصـل الكتاب بين يدي القارئ في أحلي صـورة - إن شاء الله - وبينت المصـادر التي استقـيت منها هذا الكتـاب وأدرجتـها في نهـايته ، أداء للأمـانة العلميـة . ولقد نأيت بنفـسي وبالقـارئ الكريم عن التطويل الممل والتـقـصير المخل ، فـالمعلومـة المباشـرة ، والأسلوب السهل هما الطريق الصحيح لتصحيح الأفهام ، دون تعب للأذهان .

راجيًا من الله جلت قـدرته ، أن يتقبل مني هذا العمل . فـاللهم هذا الجهد ، وعليك التكلان ، وهذا الدعاء ، ومنك الإجابة ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

****

****

****

****

****

**

أهــم المــراجــع

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف
١-	جامع البيان . ط دار الغد	للإمام الطبري
٢-	الجامع لأحكام القرآن . ط دار الفكر	للإمام الطبري
٣-	مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير . ط دار الغد	للإمام الفخر الرازي
٤-	روح المعاني	للإمام الألوسي
٥-	تفسير القرآن العظيم . ط دار الفكر	للإمام ابن كثير
٦-	في ظلال القرآن . ط دار الشروق	للأستاذ سيد قطب
٧-	فتح القدير	للإمام الشوكاني
٨-	أضواء البيان	للشيخ محمد الأمين الشنقيطي
٩-	زاد المسير في علم التفسير	للإمام ابن الجوزي
١٠-	لطائف الإشارات	للإمام القشيري
١١-	التفسير القيم	للإمام ابن القيم
١٢-	أحكام القرآن	للإمام أبي بكر بن العربي
١٣-	فتح الباري في شرح صحيح البخاري	للإمام ابن حجر العسقلاني
١٤-	صحيح مسلم بشرح النووي	للإمام النووي
١٥-	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	للإمام الهيثمي
١٦-	صحيح سنن الترمذي	للشيخ الألباني
١٧-	صحيح سنن النسائي	للشيخ الألباني
١٨-	السلسلة الصحيحة	للشيخ الألباني

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف
١٩-	صحيح الجامع	للشيخ الألباني
٢٠-	مسند الإمام أحمد	تحقيق الشيخ أحمد شاكر
٢١-	الترغيب والترهيب	للمنذري
٢٢-	بدع التفاسير	للشيخ محمد صديق الغماري
٢٣-	الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير	للشيخ محمد أبو شهبة
٢٤-	مجموع فتاوى ابن تيمية	للإمام ابن تيمية
٢٥-	البداية والنهاية	للإمام ابن كثير
٢٦-	تاريخ الطبري	للإمام الطبري
٢٧-	النبوة والأنبياء	للشيخ محمد علي الصابوني
٢٨-	نظرات في كتاب النبوة والأنبياء	للشيخ محمد علي أبو رحيم
٢٩-	قصص الأنبياء	للإمام ابن كثير
٣٠-	قصص الأنبياء	للشيخ الشعراوي
٣١-	قصص الأنبياء	للأستاذ / عبد المعز خطاب
٣٢-	قصص الأنبياء	للشيخ / حسن أيوب
٣٣-	قصص الأنبياء المسمى	للثعلبي
٣٤-	من أنباء الرسل	للأستاذ / عبد السلام محمد بدوي
٣٥-	مع الأنبياء في القرآن الكريم	للأستاذ / عفيفي عبد الفتاح طبارة
٣٦-	مع الأنبياء والرسل	للدكتور / عبد الحكيم محمود

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف
٣٧-	الصحيح من قصص النبي ﷺ	للأستاذ / مجدي فتحي السيد
٣٨-	خواطري حول القرآن	للشيخ الشعراوي
٣٩-	الكبائر	للإمام الذهبي
٤٠-	الزواجر عن اقتراف الكبائر	للإمام ابن حجر الهيتمي
٤١-	حوار هادئ مع الشيخ محمد الغزالي	للشيخ / سلمان بن فهد العودة
٤٢-	زاد المعاد في هدي خير العباد	للإمام ابن القيم
٤٣-	روضة المحبين ونزهة المشتاقين	للإمام ابن القيم
٤٤-	الزهد	للإمام أحمد بن حنبل
٤٥-	الحكم المضبوط في تحريم فعل قوم لوط	لشمس الدين الغمري
٤٦-	الصراع بين النفس والمال	للشيخ / عبد الحميد كشك
٤٧-	مباحث في علوم القرآن	للأستاذ / مناع القطان
٤٨-	الداء والدواء	للإمام ابن القيم
٤٩-	مجموع فتاوى ورسائل	للشيخ محمد بن صالح العثيمين
٥٠-	إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان	للإمام ابن القيم
٥١-	تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد	للشيخ الألباني
٥٢-	فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية . ط دار عالم الكتب	
٥٣-	القيامة الصغري	د / عمر سليمان الأشقر

الفهرست

* * *

9 789776 440272

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر - بجوار بيت الهراوى
القاهرة - تليفون وفاكس: ٥١٤٧٢٤٨
ت: ٥١٤٧١٧٩ محمول: ٠١٢/٧٤١٨٣٤٨